بناير مؤقت

رواية

عمرو جنيد

دار الكنزي للنشر والتوزيع

الكنزي

رئيس مجلس الإدارة
محمد صلاح شديد

المدير العام
إيناس الدسوقي

مدير الإنتاج
أحمد عبد الوهاب

الطبعة الثانية
الكتاب : يناير
تأليف : عمرو جنيد
تصنيف الكتاب : رواية
مصمم الغلاف : إسلام مجاهد
إخراج : أحمد عبد الرحمن
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٥٢١٨ / ٢٠١٧
الترقيم الدولي : 978 - 977 - 6599 - 65 - 9

All Rights Reserved
Alkanzy for Publishing and Distribution
+01003897918
Alkanzy.co@gmail.com
Facebook.com/Alkanzy.com
جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

«رجل واحد يملك شجاعة، يكون أغلبية»

"توماس جيفرسون"

«يا رب هب لي الصفاء لقبول الأشياء التي لا يمكنني تغييرها، الشجاعة لتغيير الأشياء التي أستطيع، و الحكمة لمعرفة الفرق».

"القديس فرانسيس الاسيزي"

«فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون»

قرآن كريم

تقديـــم لا يقدم أو يؤخر في شـــيء، لكن لنعتبره نوعًـــا من الإقرار و الفضفضة .

أعـــود إلى اعترافي، نعم كنت جبانًا و خائبًا، ولهذا الســـبب قررت أن أكتب هذه الرواية،

ليس تأريخًا أو توثيقًا للثورة، فهناك من هم أقدر مني وأشجع وأكثر علمًا لتحقيق هذا الغرض، إنما قررت أن أكتب للتأريخ و لكن تأريخ جزء برؤية مختلفة لم تُطرق من قبل، إن هذه الرواية تاريخ جبني الخاص.

«أنا»

إهداء

هذا الإهداء وضـــع قبل أن أكتب ســـطرًا في الرواية لأنه من وجهة نظري إقرار بفضل أشـــخاصٍ مميزين.

إلى الأصدقاء الشجعان المناضلين، من تصّدوا بقلوب مفتوحة للطوفان وصنعوا سفينة نوح لتنجو من الدولة التي سكنت أبراجها الشياطين، إلى كل الشهداء الأبرار الذين وهبوا هذا البلد قبلة النجاة من أرواحهم التي ضحوا بها لأجله.

إليك «أحمد سعيد» رفيق الدرب و أفضل من فينا.

إليكِ داليا أشـــجع بنات بلدي، لقد اســـتلهمت روحك عبر السطور القادمة..

الأصدقاء الذين آمنوا بي و دعموني حتى أنهيت هذا الكتاب

عبير عواد

ندي سامي

لمياء يسري

محمد جمال

هبة الله الجمَّاع

إليك يا جرحي النازف، إليك أيتها االخائنة الرقيقة

إليك يا عشق العمر و وجعه

إليك كريستال هذا السِـــفر.

افتتاحية أوبرالية :

«تنويعات على لحن قديم»

ليلة اغتيال الملك ، النوتة الثائرة و بائع النبيذ

اندفعت فرقة خيالة الحـــرس الملكي في زيها الأزرق المخطط بالأحمر والأبيض ألوان علم فرنســـا العظمى، لتمهد الطريق أمام الكابتن فيتون بوشـــاحه الأزرق القاتم المطرز برســـم بارز لصليب وردي و قبعة مريشة بريش أبيض طويل، تميزه عن بقية جنود الفرقة و تشـــير إلى مكانته التي وصل إليها عبر أعوام من الجندية و الالتزام، دلف الكابتن إلى بهو دار أوبرا المونسير التي أسسها لويس زافير ابن عم الملك وكونت بروفانس المتنور، خلع الكابتن قفازيه الجلديين بتكـــبر ذوي المكانة والحيثية الاجتماعية، أتى إليه مهرولاً أحد المشـــرفين على الدار، ثم انحنى أمامه بتذلل بالغ، سأله الكابتن عن المسئول الأعلى هنا، أجابه الرجل بصوت مضطرب جرّاء توسم سوء النوايا من كبير فرسان فيرساي:

— المايسترو فايوتي سيدي، جيوفاني باتيستا فايوتي.

داعب الكابتن لحيته المدببة و قال:

— إيطالي آخر!! تدارك الرجل و قال مصححًا:

— من مواطني مملكة ســـردينيا ســـيدي الكابتن و لكنه يحظى برعاية جلالة الملك وصاحب الســـمو الكونت زافير، هو مؤســـس هذه الدار.

تمتم الكابتن بشئ غير مفهوم أقرب لسبة ما، و دار بنظره الحاد يتفقد البهو المبهرج بلوحاته و سجاده الفاخر، توقف ملتفتًا إلى الرجل الصغير:

— أين هو الإيطالي؟ أريد أن أحدثه.

— هو في منزله سيدي الكابتن، لا يأتي الآن.

قاطعه فيتون بحزم بارد:

— اذهب و أحضره، أو أرسل جنودي يقتلعوه من سريره الدافىء.

ارتعش الرجل قائلًا بأنه سيحضره هو بنفسه، صرخ به الكابتن:

- أسرع من الريح، قبل أن تذهب، أريد نبيذًا و مكانًا لأنتظر دون ازعاج، هيـــا. فعل الرجل ما أمره، و انطلـــق يركض حتى العربة ثم ألهب ظهر الحصان بســـوطه، الأفكار الشريرة تحوم حول رأسه..

ماذا يبتغي كبير الحرس الملكي، بنبرته المتعالية العنيفة، هل يضمر شرًا لسيده الوديع الطيب، قال الرجل مخاطبًا نفسه:

- لا دخل لي، المايسترو بالتأكيد يعلم ماذا يفعل، هو محمي ليس مثلي، ليحميه الكونت، أما ابن الفلاح مثلي فيلجأ إلى الرب فقط و الاختباء.

ارتعد قلب الرجل الأربعيني الأصلع النحيف، محاولاً فك طلاسم ما يتفوه به المســـاعد، أمره أن ينتظر حتى يرتدي ملابسه. ارتدى المايسترو فايوتي ملابســـه الكاملة و وضع جمة الشعر البيضاء بحرص شديد، ثم ارتـــدى قلادته الذهبية التي أعطاها له الملـــك تكريما لجهوده المبذولة. قبل مغادرته العربة عند باب الأوبرا، وصى المساعد بأن يتابعه عن كثب، فـــإن رحل مع الجنـــود عليه أن يبلغ الكونت حتـــى يتدخل ويغيثه، لكن ينتظر حتى تبين النوايا. عندما دخل المايســـترو إلى مكتبه وجد الكابتن يعبث بالبيانو كقرد يلعب، توقف الكابتن ناظرًا إلى الرجل الواقف أمامه مشرئب الهامة عاقدًا يديه خلف ظهره، رشف الكونت بقية كأس النبيذ واضعه على أوراق الموســـيقى المتناثرة على البيانو لتترك أثرًا لا ينمحي. تقدم المايســـترو متلهفا ليزيح الكوب ثم يحاول بهلع إزالة أثر النبيذ عن الورقة، قال له الكابتن باستخفاف:

- لا أفهمكم أيها الموسيقيون، كيف تقرأون هذه الرموز؟

التفت له فايوتي محاولًا تملك نفسه:

- علم كأي علم يا صاحب العزة.

- أنت إذًا الإيطالي.

- ســـردينيا ســـيدي، لكن هل لي بمعرفة سبب تشـــريفكم لنا اليوم و

تعجلكم في رؤيتي.

استفزت نبرة المايسترو الكابتن، فهو يتحدث بثبات وقوة وعزة نفس لم يعهدها من أحد لا ينتمي إلى النبلاء، قال الكابتن:

- مايسترو فايوتي، أنا هنا في مهمة سامية، صاحبة الجلالة الملكة ماري أنطوانيت، قد قررت أن تكرم دار الأوبرا بزيارتها الميمونة بصحبة صاحب الجلالة والعظمة الملك لويس، وقد أتيت لوضع خطة لتأمين الدار و متابعة كل صغيرة وكبيرة معك. تنفس فايوتي الصعداء، و قال:
- أعلم يا صاحب العزة، أتاني مرسوم الزيارة من الديوان الملكي، على العموم المكان تحت أمرك، لك كلمة التصرف كما ترى و ترغب.

ربت الكابتن بصلف على كتف المايسترو و هو يهم بالانصراف:

- أسلوبك راق بالنسبة لإيطالي، شكرا يا مايسترو.

***

بدت الفرقة الموسيقية في القاعة الكبرى المضاءة بثريات الشموع، كأنهم جوقة من الطواويس المختالة بأزيائهم المزركشة و جمم الشعر المنفوشة، جلسا الملك لويس وحرمه الملكة ماري أنطوانيت في كرسيين من المخمل الأحمر و خلفهما بتدرج النبالة الأمراء والأميرات والحاشية ووصيفات الملكة اللاتي معظمهن من ابناء جلدتها نمساويات. الكابتن كان يقف في شرفة المسرح يجول ببصره العقابي يميناً و يسارًا وبين الفينة و الفينة يشير إلى أحد رجاله ليؤمن مكانًا معينًا يرى الكابتن أنه عارٍ من الحراسة.

دلف المايسترو فايوتي يتهادي كبجعة رشيقة بخطواته الواسعة البطيئة، ثم وقف لينحني أمام الزوج الملكي، أشار له الملك بطرف منديله الحريري، ليبدأ العرض.

كانت أزمة فايوتي العظمى موقعه من الأوركسترا، البروتوكول يحرِّم أن يعطي للملك ظهره، فهذه في عرف البلاط خطيئة، حذر منها

كثيرًا مما سيطيح به من منصبه أو يُلقىَ به على أثرها في غياهب الباستيل، لطالما غاب بشر وراء الجدران لأسباب أتفه، الملك مجنون، ليكن الجنون هو الحاكم إذًا. قبل الحفل أمر فايوتي أعضاء الفرقة بأن يجلسوا بشكل عمودي، من مقدمة المسرح إلى عمقه، حتى يكون الملك عند كتفه الأيمن. حل مجنون يليق بمجنون يكره أن يوليه أحد ظهره..

أطلق المايسترو إشارة البدء لتعزف الفرقة افتتاحية الكونشيرتو الجديد الذي كتبه فايوتي للملك، المايسترو كان يمسك بكمانه منتظرًا دخلته الانفرادية، في خلفية العازفين جلس عازف الكمان آرتور شارل برديو يتصبب عرقًا، حتى أنه تظاهر بالعزف، لم يكن يستمع إلى المعزوفة أو يتبع إشارات المايسترو، كانت عيناه فقط تسبح على النوتة أمامه منتظرًا، نوتة موسيقية في مفتاح سي صغير لينفذ ما أتى من أجله.

قبل الليلة بأربعة أيام، جلس «برديو» في قبو للنبيذ مع مجموعة من جميع الطوائف، كانت الخطة هي اغتيال الملك، الذي ماد فسادًا هو وحاشيته , وانتشر الظلم و دب الفقر في أنحاء البلاد، فما عادت القطط والكلاب تكفي الشعب كطعام، وكلما بدا صوت يتألم، زادت الضرائب، حتى أصبحت بقايا نفايات مطعم النبلاء تباع في الأسواق بضعف ثمن الأطعمة الطازجة الشحيحة. كانت الخطة أن يتم اغتيال لويس في حفل الأوبرا، و لموقعه اختير آرتور شارل برديو لتنفيذ المهمة، مع ثلاثة آخرين، أحدهم أحد جنود فرقة التأمين الملكية و الآخران متخفيان وسط العمال.

أراد قائدهم أن يكون اغتيالًا مدويًا، يترك أثرًا و يطير خبره إلى كل ركن بباريس، و بالطبع كعملية انتحارية، وعد القائد المتطوع المرغم شارل برديو بأن يخلد اسمه في سجل الشرف، لأن الملك لويس زائل و القادم للشعب.

كان الاتفاق على إشارة ليتحرك المتآمرون الأربعة، احتار القائد والجمع في تحديدها!!

كي يخرج «برديو» بحل عبقري. تسلل إلى مكتب المايسترو فايوتي لينسخ افتتاحية المعزوفة، وفي القبو عزفها أمام رفاقه، ليتعجب معظمهم

ذوي الأذن الموسيقية من اختلاف طفيف في المقدمة، هنا أخبرهم «برديو»، إنه سيبدل النوتة، الثانية دخيلة للحن غجري تعلمه في رومانيا، يُدعىَ عبدة القمر، عند بدايته تكون الإشارة المنتظرة.

زاد تعرق الرجل حتى غابت الرؤية في عينيه، غرق في مجرى أفكاره و كأنه أصابه الشلل، عند نقطة الانتقال اللحني، بنظرة خبير بُهت وجه المايسترو فايوتي، هذا ليس ما كتبه أو جادت به قريحته المتمرسة، النقلة في مقام سي صغير لم يضعها في مخطوطة اللحن، هذا شذوذ. اكفهر وجهه و أسقط في يده، لا يستطيع أن يوقف المقطوعة أمام الملك و النبلاء هذا سيكون عنوان لعدم الكفاءة، ليكمل إذًا، هؤلاء الارستقراطيون لن يعرفوا أبدًا أو يميزوا شذوذ اللحن.

عند بداية النوتة أغشي على «برديو»، ليهوي من مقعده كديك مذبوح من فوق المسرح إلى الأرض تحت قدمي ماري أنطوانيت. انتفض الكابتن فيتون و أشار بحزم إلى جنوده و اندفع ليتصرف في الكارثة التي ستعكر مزاج الملك المتنمر، كان ينقصه حادثة حمقاء كهذه. توقفت الفرقة عن العزف و مادت الأرض بالمايسترو فايوتي، زاد الهرج و المرج و تعالت زفرات الملك المتأففة، حمل الحرس جسد «برديو» من أمام منصة المسرح و بدأ المايسترو يعتذر و هو ينحني حتى كادت جبهته تلمس الأرض. هنا أخرج أحد الحرس غدارته، مواجهًا الملك و هو يصرخ:

– الموت للطاغية.

ثم ضغط الزناد، لكن لم تنطلق رصاصة، نظر بغباء إلى الغدارة ليتذكر أنه قد نسي أن يحشوها بالبارود، أطلق سُبة و لطم جبهته أمام نظرات الملك الفزعة، مد يده كي يخرج سيفه، لكن الكابتن لم يمنحه الوقت الكافي لذلك، أنقض عليه يطعنه بخنجره المشرع. سقط الجندي و هو يطلق كلمات غير مفهومة، تبين منها الكابتن والملك.

– الحظ عاهرة أزقة، إلى يوم آخر يا حقير.

الحركة الأولى

ALLEGRO MOLTLO APPISSINATO

لحن سريع فائض بالأماني والتوقعات..

(1)

يوسف الراوي

أ

استيقظت صباحًا محاولًا تدارك أنفاسي التي تقترب من اللهاث المزعج، يوم آخر ينزلق كحبة في مسبحة لا شئ جديد لا شئ على الإطلاق غير العمل و الأكل و أحلام إلى قظة بأن تنقضي أيام الغربة، عفوًا الغربة لا تقاس بالأيام الغربة تقاس بالسنوات، و هذا هو الأكثر دقة والأكثر إيلامًا.

الغربة دائرة مغلقة، سجن انفرادي عزلة للروح و صراع محموم ضد الزمن.

- نحن يا يوسف لسنا مغتربين بعيدًا عن الأهل و الوطن، أرى أن هذا منظور ضحل و معدوم الخيال، يا رفيقي! الوصف الأدق أننا مجموعة من المختلين جمعتنا شهوة الطمع لنجلس حول طاولة قمار نلعب ضد الزمن ننتظر مكسبا ماديا، و لكن لا ننتبه أننا نشترك في اللعبة بالمقامرة بسنوات عمرنا، إنها لعبة الخاسرين!!!

كلما رنت هذه الكلمات في خلفية عقلي تذكرت صاحبها الغامض الحكيم مصطفى زميل السكن والعمل من أفنى عشرين عامًا هنا في الخليج منذ أن كانت صحراءً جرداء إلى أن أصبحت صحراءً مشوهة بناطحات السحاب و مراكز التسوق العظيمة، فصارت مسخًا، صحراء باعت روحها للشيطان فكل الرفاهيات متاحة و لكن بلا روح، صحراء تقتات من شبابنا، نذبل نحن و الصحراء لا ترتوي.

أنفض عن نفسي أفكاري الفلسفية و أتجه إلى الحمام الخرب كأي شئ آخر يّمت لسكن العزاب بصلة، أفتح الماء الدافئ على جسدي، و أتمنى ألا أصاب بالبرد جرّاء الطقس المختل، يناير هنا بارد كأصقاع سيبريا و

الصيف بوابة من بوابات الجحيم السبع، أنتظر الماء الدافئ ولكن ما ينزل على جســـدي ماء بارد، فأصرخ كجرو مذعور و يختل توازني، أسقط و أسُب العالم بأبشع الألفاظ «اللعنة، فليذهب العالم إلى الجحيم»، أتحامل على نفسي و أصب جام غضبي عليها كالعادة «لا شئ يعمل كما ينبغي في هذا العالم، لا منطق» كم أنا محاصر و مقيد!!

أرتدي ملابسي و أخرج لأقابل رفاق السكن، كلٌ يسير كالميت الحي.

- صباح الخير يا يوسف..

أسمعها ست مرات من ستة أشخاص مختلفين و لا أجيب.

- لا تتصنعوا الاهتمام معي رجاءً.

هل سيصبح العالم مكانًا أفضل لو توقف الناس عن الأفعال و الأقوال الميكانيكيـــة المعلبـــة كعبوات الحليب من نوعية صبـــاح الخير ؟! أجلس لأتناول وجبة إفطاري الاقتصادية من فول وبيض و خبز، أحاول إشـــعال الموقد كي أعد كوبًا من شـــاي الصبـــاح المقدس الذي يعمل كوصفة ســـحرية تنتشـــلني من أعباء الأفكار وغلالة النوم، الموقد لا يشتعل فيما يبدو أن أســـطوانة الغاز قررت أن تكمل المشهد الســـيريالي ليومي هذا « اللعنة، لا شـــيء يعمل كما ينبغي في هذا العالم».

أسمع الضحكات المستهزئة فأصمت صمت الموتى.

أسمع الأخبار في التلفاز تتحدث عن الثورة المشتعلة في تونس، أتساءل بلا اهتمام ما الأمر؟

- أهل تونس مثال فعلى للشـــجاعة، بالتأكيد سيسدد الله خطواتهم، يدلي محمود بدلوه على سطح الأحداث و يؤكد بقيتهم على مقولته لأن أهل تونس بالطبع رجالا و بالتأكيد ربنا سيكرمهم.

- ناقص مصر، يا ليتنا نملك شجاعة كشجاعتهم، يقول محمد و هو يلوك البيض و يشعل لفافة تبغ:

- ســـهل عليك أن تقول هذا، من السهل التشدق بكلام دون فعل، أنا الآن أسألك هل لو ظهرت بوادر شجاعة هل ستعود لمصر تنضم إليهم أم ستظل هنا تقوم بدور محلل سياسي على أريكتك؟

قالها مصطفى الحكيم بســـخريته المعهودة و لم يرد أحد، أحيانا أشعر أن مصطفى صاحب حصانة وحصافة اكتسبها من سنه الكبير و سنوات الغربة العشرون و نظرة عينه الحادة الزاهدة الصوفية التي إن تكلمت قالت:

- «أنا لا أقبل الحلول المائعة أو الهزل من أحد»،

أقول و أنا ابتسم:

- و الله عنـــدك حق يا عم مصطفى، و الله عندك حق يا عم مصطفى، نحـــن فقط نتحدث حديثا فارغا، نتبادله لإزكاء الوقت كما نفعل أمام مباراة بين فريقين لا يعنينا أمرهما قط.. .

ينظر إلى بعطف ثم يتابع موجهًا كلامه إلى الجميع :

- سهل الكلام عندما يخرج من فم أناس ليس لها ناقة أو جمل.

ثم بصوت أعمق:

- يا يوسف يا ابني صدقني ما يحس بالنار إلا المكوي بجمرها.

أهز رأسي متفهمًا و أشعل لفافة تبغ و أتابع الأخبار دون اهتمام.

- الطوفان قادم يا عم مصطفى.

يقولها شادي فيجيبه مصطفى :

«الحق اشتري لك قارب يا ابن الكلب..»

و يعقبها بضحكة ماجنة مســـتهزئة، ليضحـــك بقية الرفاق و أظل أتطلع أنا إلى الشاشة بلا اهتمام ثم اطفئ لفافة التبغ و استعد للخروج و كلمات مصطفى تنتشـــر مرة أخرى في خلفية عقلي:

«ما يحس بالنار إلا المكوي بجمرها».

مصطفـــى أنت بطلي الخاص وســـط هـــذا العالم المـــوازي، ما أروع حكمتـــك و كلماتك!! أسمعـــه يتكلم بطريقته الســـاحرة:

- عارف يا واد يا شـــادي انك ابن كلب مصفـــي، ولا همك إني من سن أبوك، أتمنى أن أعرف كنه من سمح لأمثالك باستخراج جواز ســـفر، سمعة البلد لا تستحق تشويها بسببك.

لا أتمالك نفسي و أقهقه على هذا الصراع العبثي بين الاثنين على كل شـــئ بدءًا بالحمّام و انتهاءً بالآراء السياسية و الأخلاقيه، شادي هو كل ما يكرهه العم مصطفى في جيلنا، الشـــكل و المضمون و التوجهات.

جيلنا الضائع بلا هدف كما يصورنا العم مصطفى.

- أنت و أقرانك لم تختبروا الحياة كجيلي، دائما ترغبون في كل شئ دون مجهود أو علـــم، حتى طموحاتكم لا تواكب ضعف إمكانياتكم، مجرد صوت عالٍ و غرور جاهل.

العم مصطفى يعمل كاتب حسابات متزوج ولديه ولد وحيد و ثلاث بنات، يعمل طول اليوم ليوفر التعليم والحياة الكريمة بعيدًا عن السؤال وكما يقول:

- اســـتر البنات، هو ده المهم، و لهذا الغرض يحصـــل على إجازة كل سنتين توفيرًا للنفقات ويتحمل البعد عن الأهل. ابنه الوحيد طالب في كلية الهندسة و سبب فخره.
- أنا بانسى غربتي و مرضي لمّا باحس إن ابني متفوق و رافع راسي.
- و تمر أيامه، أقصد سنواته، و هو يمُنّي نفسه بتقاعد مريح و إن كان في داخله يشعر شعورًا أقرب إلى اليقين أنه سيموت بعيدًا عن مصر.
- البني آدم المصري غريب يا يوسف، يقضي عمره كله بعيد عن بلده و عند اقتراب موعد الموت تجده يوصي ادفنوني في تراب بلدي..

أجيبه بابتسامة:

- عادة فرعونية يا عم مصطفى.

أسمع في التلفاز الأخبار أخرج و أمر أمام التلفاز أرى أحد وزراء مصر يهرطق بكلام عن الحالة الاقتصادية الرائعة كما يصفها و حجم النمو.

- سامعين الكلام الموزون، و الله مبارك رجل حكيم، يقولها على ينظر له مصطفى و محمود شذرًا.
- أصلك حزب واطـــي منحط مثله، لو حكيم كمـــا تقول ما كان دكتور مثلك لجـــأ إلى الغربة، تصدق إنك ابن كلب مثل الحمار الآخر. يقولها العم مصطفى و نضحك كلنا، أفتح الباب و أستعد للخـــروج يأتي إلى صـــوت الوزير يقول بكل حســـم و موضوعية، «ما حدث في تونس مســـتحيل أن يحدث في مصر الوضع تمامًا مختلف»، اضحك و أســـب و أغلق الباب، أشعل لفافة تبغ و أتمتم:
- لا شئ يعمل كما ينبغي في هذا العالم العفن، و عفونته لا تنتهي.

ب

الأخبار تطاردني من مكان لمكان لا شئ جديد، تكرار و استعادة، آه أيها العالم كم سرقت من أرواحنا؟! خمس سنوات أسير في نفس الطريق إلى العمل تتوالى الأيام و الشهور و الفصول، كم شتاء اختبرته هنا!! و كم صيف ترك ندوبًا في وجهي!!

- يا الهي، لِمَ أعطيتني رعونة الاختيار؟!!

أتنفـــس بصعوبة و أنتظر الحافلة أضم ســـترتي القديمة و أســـعل، يدنو مني رجل يطلب قداحة، يشعل سجارته و يهمهم على سبيل الشكر، نتشارك في نفس النظرة التي تشـــكل بصمة للموتى الأحياء، ذاك الفرع المقتطع من شجرة الحياة النابضة.

تقرب الحافلة ثم تتوقف أصعد و أدفع التعريفة و أتوغل بعينيَّ إلى قلب الحافلة، أحدد مقعدًا بعيدًا لأجلس و أرتحل بناظري بعيدًا، الســـيارات و البشر و البنايات تتحول مع سرعة الحافلة إلى خط مختلط مبهم فتكون

هذه لحظتي أن أحلق بعيدًا عن جسدي لدقائق قليلة.

الهرب كان حلاً ساذجًا منذ خمسة أعوام، بل كان الحل الأوحد لشخص مثلي للخوف معتاد و فاقد لشجاعة القتال من أجل شئ ما أو فكرة ما، آه يا نور لمَ تركتني، لمَ وضعتني عند حافة التجربة؟ لم يكن حبًا بل انتحارًا.

– مش هاقدر أكمل يا يوسف، احنا بنخنق بعض.

رحلتان بدون سبب ولم تنظري خلفك، وأعطيتني فقط شعلة حقد تكفي لحرق كل الجسور..

أفيق على صوت مكابح الحافلة.

– لمَ تلك الخواطر الملعونة؟!

أحدث نفسي بصوت عال فتعيدني إلى وعيي نظرات الاستهجان المنطلقة سهامًا من أعين الناس، الجحيم أعين الآخرين سارتر قالها من قبل، أضحك على أفكاري فتصدمني نظرات أكثر حدة، لقد حكموا عليَّ بالجنون و أتوقع أن أصلب على واجهة الحافلة، استغرق في الضحك متلذذًا بأفكاري واشتعال النظرات من حولي، كلٌ صار قاضيًا و جلادًا.

– ما بك هل أنت مريض أم سكران؟! يقولها جاري في المقعد أنظر له بغباء وأقف استعدادًا للنزول مجيبًا على سؤاله في داخلي مخرجا الإجابة مكثفة في نظراتي.

– لا يا سيدي أنا مجرد رجل ميت.

أسير في اتجاه مقر عملي الشركة التي أعمل بها و قبل أن أدخل أقف لأشعل لفافة تبغ، القداحة قررت أن تتوقف عن العمل «لا شئ يعمل كما ينبغي» ألقيها بغضب و أدخل الشركة.

– صباح الخير يا يوسف،

اسمعها مرارًا ولا أجيب، التلفاز في المدخل يذيع آخر أخبار تونس الدنيا مشتعلة و الاعتصامات انتشرت كالنار في الهشيم، أقف في وسط

المدخل و تيارات البشـــر حولي لا تتوقف عن الحركة و الابتسام وكثير من صباح الخير، «ما يحس بالنار الا اللي مكوي بجمرها» صوت مصطفى يأتيني من داخل عقلي، أحس بنقص في الهواء وأشـــعر بدوار و ثقل على كتفي الأيسر، الرؤية تهتز بجنون، أصرخ و عقلي المستقل بإرادته يهرب خارج وعيي، أسقط على الأرض بلا حركة..

- كم أنا وحيد ملعون بائس بلا حيلة !!

تتلاحق الصور على مخيلتي و أسقط في دوامة الظلام،

لِمَ زارني طيفك اليوم يا نور؟!!

ج

أفتح عيـــنيَّ بصعوبة كجنين يتعرف على الحياة لأول مرة «رحم الأم التجربة المنســـية ولكنها حاضرة ومحفورة في ذاكرة العالم» أقاوم شعورًا حارقًا بمقلتي عيني، هل مت؟! الألم الخفيف يجيبني بالنفي، ينساب لوعيي الوليد صوت موسيقى يملأ فراغ الغرفة، مقطوعة البيانو ليتني أعلم من كتبها، الصوت الضعيف يعمل كيد رحيمة تشدني من غياهب الظلام.

- نفسي أفضل أسمعك و انتِ بتلعبي مزيكا لحد ما أموت يا نور.

أتذكر كلماتي لها و هي واقفة كملاك مشـــع حاملة الكمان تنظر إلي و تلمس شـــعرها خجـــلاً كعادتها عند أي اطراء، تصهرني رعشـــة الذكري و تنســـاب عبرة من عيني، لم أعد أحتمل، خارت مقاومتي للأبد.

- الحمد لله لقد بدأ يفيق.

اسمع صوت رجل خمنت أنه طبيب، وتأكدت حين استشـــعرت أياديَ تفحصني، يدَ رجل ويدَ امرأة

- اجعلي الإضاءة أقل، يمكنك أن تفتح عينيك الآن.

أستجيب و أفتح عينيَّ لأرى وجه الطبيب الودود يبتسم و يباشر فحصي.

- ما حدث لك غيبوبة بسيطة نتيجة إرهاق عصبي شديد و إسراف في

التدخين يا أستاذ يوسف، هذا اسمك أليس كذلك؟!

أهز رأسي مؤكدًا كلامه يبتسم و يتابع أسئلته التقليدية للتأكد من عودة وعي كاملاً.

- عمرك خمس و ثلاثون عاما و تعمل مهندسًا للحاسب الآلي، أليس كذلك؟!

أجيبه بنعم.

- عظيم لا ضرر مؤقت في الذاكرة، سأوصي بخروجك غدًا، هل لك أقرباء هنا؟

أهز رأسي بالنفي.

- إذن هل هناك أحد، صديق أو ما شابه نتصل به؟

أغرق في أفكاري، خمس سنوات وحيد مهجور كمعبد مهدم توقف الناس عن ارتياده، فقط أطلال سكنتها الغربان و الأفاعي.

- أهناك أحد؟!! (يقطع الطبيب سيل أفكاري السلبية).

- أظن أن زميلي في السكن علِم بما حدث.

يحافظ الطبيب على ابتسامته المهنية البلاستيكية الودود.

- حسنًا يا يوسف، أريدك أن ترتاح الآن و سأجعل الممرضة قريبة منك لتلبي ما تريد، لديك التلفاز استمتع يا صديقي.

ينهي جملته وهو يغادر الغرفة يشيعني بابتسامته الأزلية التي تختفي عند أول خطوة يخطوها خارج الغرفة ليعود لأفكاره و شياطينه الخاصة التي تسكن روحه المتعبة من كفاح مستمر خلف أشياء من نوعية «قسط مدارس الأبناء، متطلبات زوجته التي لا تنتهي و مشروعه المؤجل أن يعتزل العزلة و الغربة و يعود ولكن خوف البدايات الجديدة يعصره و يعيقه».

أتابع البرنامج الإخباري في التلفاز، المشهد هالني و شعرت بقشعريرة،

الحشـــود في شـــوارع تونس تهتف وتهدر مطالبة بالخلاص، ديكتاتورهم المحلي صاحب الأربعة و عشرين عامًا في الحكم يحاول محاولة مستميتة للتشبث بطوق نجاة بعد أن فشلت قبضته القمعية في منع الطوفان، الأمن هو من بدأ هذه الثورة عندما دشـــن آخر حجر في جبل الحقد المشـــتعل داخل صدور الناس، و صارت صفعة فردية متعســـفة غبية على وجه بائع فقير، صفعة على وجه ملايين، البائع لم يعرف أنه حين صب الوقود على جسده و أشـــعل النار فيه أنه قام بإشعال فتيل الانفجار الأخير، الشوارع صامدة و الديكتاتور المحلي يلعب على وتر وحيد بعد أن تقوضت أركان دولته، نغمة الوتر المكررة أن كل الشعوب العربية تنسى و تشرب من نهر الوعود الكذوبة، ولكن الصفعة لا تنســـى و مركز الكرامة لا يذوي.

أغلق التلفاز و أنصت إلى صوت الموسيقى السرمدية الآتية من مكبرات صوت الردهة مختلطة بأصوات أجهزة التنفس و أنين المرضى، أضغط الجرس المجاور لســـريري تدخل الممرضة لتتســـاءل عن الخدمة التي أريد، أطلب منها أن تبقي الباب مفتوحًا تجيب طلبي بترديدها لأقدم أســـئلة الأرض:

- لماذا؟

وأجيب:

- أريد أن أستمع إلى الموسيقى بوضوح أكثر.

تبتسم بغباء و هي تقول:

- لكن الموســـيقى تكاد أن تكون مسموعة و صوت المرضى و الحركة و الأجهزة ضوضاء مريعة..

أرنو إلى سقف الغرفة و أقول بصوت كالهمس:

- ضوضاء !! لكن على الأقل وسط هذا الضجيج كله توجد موسيقى تشق طريقها إلى أذنيَّ وقلبي..

(2)

نور الهدى فريد عبد العظيم

هل شعرت يومًا أن الحياة تقع أمام عينيك كمن يشاهد لوحة خلقت من قطع موزاييك متناهية الصغر،

هذه نور لوحة محكمة الصنع، التفاصيل الصغيرة الدقيقة تشكلها، ليس في يدك إلا أن تشعر أنك ترى الحياة بشكل جديد مبهر ملىء بالألوان الصاخبة والعمق العفوي، نور مغرمة بالتفاصيل الدقيقه، نور تقطب حاجبيها عند أقل خطأ يخل بدقة كونها الخاص.

تقف أمام المرآة الكبيرة التي تغطي الحائط بإطارها الأسود الغامض وزجاجها المصقول، لجة فضية، باب إلى بعدٍ آخر يقع خلف عالمنا البائس، تكحل أجفانها بروية لتحدد العينين الزرقاوتين بإطار يزيدهما بريقًا، عينا نور باب إلى عوالم أخرى أيضًا، عوالم الحوريات و الأفراس الطائرة و الأفيال الخضراء و الوردية، ترتدي فستانًا أسود يكشف نحرًا عاجيًا متوردًا و ذراعين بضتين، قصير يصل طوله إلى ما فوق الركبة قليلاً ليظهر أروع ساقين تثيران الخيال الجامح، فستانا فاق إطار المراة روعة ليعمل كظلال في خلفية لوحة لرامبرانت يحدد و يشعل تأثير هذا الجسد المنحوت من خام الأنوثة، هذه هي نورالهدي و الآتية حكايتها.

نور الاسم و الكينونة، نادر من البشر من يملك اسمًا يعبر عنه، الاسم يصاحب الإنسان من مولده بلا اختيار منه، قدر مفروض، عندما استقبلت الحياة الطفلة في الخامسة فجرا و أطلقت أول صرخة في وجه العالم حملها أبوها و قال بدون تفكير: نور الهدى، و قد كان.

الابنـــة الوحيدة، الابنـــة المفضلة، صدمة موت أمهـــا على الأب وهي تســـتقبل عامها الخامس كانت مفجعة، حبـــل متين قد قطع، كل ما قـــرره أن تكون الطفلة مهمته الوحيـــدة، و أن يعينه الله على هذا العبء وحيدًا، الأطفال لايستوعبون فكرة الموت لا تستقبلها عقولهم، الموت عند نور كان مجرد عدم حضور، اختفاء شـــخص ما لوقت ما..

وظيفته كرئيس حســـابات في هذا المبنى العتيق و تعامله مع الأرقام بشكل يومي شكلت شخصيته، يحسب كل خطوة واحد زائد واحد يساوي اثنين لا مجال للإبداع أو القواسم المرتبكة.

فريدعبدالعظيم خريـــج كلية التجارة أواخر الســـبعينات ابن حي العباســـية، توسط له عمه للعمل محاسبًا في إدارة الضرائب العقارية، بدأ حياته العملية من ســـفح الســـلم الوظيفي، كان بارعًا مقارنة بحداثة ســـنه لكنه لم يتحمل بعد أقل من عام كم الفســـاد و العطن الناخر في الهيكل كله، عاد و طلب عون عمه وكيل الوزارة، بعد محاورات ومجادلات ووصمة مـــن جانب عمه بالجنون والمثالية.

- كيـــف تتخلى عن إدارة كنز مثـــل هذه!! و أخيرًا رفـــع العم راية الاستســـلام البيضاء، بعد مرور أســـبوع أبلغ فريد بقبول نقله و تم نقلـــه إلى دار الأوبرا المصرية.

فريد عبدالعظيم موظف الحسابات في آخر مكان كان يتخيله، مكان هادئ خالٍ من المشاكل فانتظم بكل حماس في عمله و استمتع بالروتين المريح، لكن بدأ السؤال يقحم نفسه إلى تلافيف عقله، لمَ كل هذا المجهود و الموظفين لخدمة مكان لا يربح أو يبيع أو يشتري بضاعة رائجة؟!

طرح السؤال على مسامع مديره المباشر فأجابه بصوته الأجش:

- رزق الهبل على المجانين، أوبرا إيه و باليه إيه في مجتمع همه يلاقي رغيف العيش الحاف!! رفاهية كتيرة علينا و إحنا مالناش فيها إن جيت للحق، بس تقول إيه ربك بيفتح أبواب رزق، إن أعطى لا تسألن عن السبب..

عشق فريد روتينة اليومي المريح و عمله الخالي من المنغصات و المعضلات الأخلاقية، بعد عام من الاستقرار الوظيفي تزوج و أنجب نورا، دارت عجلة الزمن و السؤال قابع بلا إجابة تشفي منطقه، لمَ كل هذا الاهتمام و المبالغ الهائلة التي تتكلفها خزينة الدولة كمصاريف إدارية و رواتب و مبالغ تدفع لجلب فرق بالية و فنون شعبية لتقدم عروضًا لا تحظى بأي اقبال جماهيري اللهم جمهور كله من أصحاب الدعوات المجانية، هل مثلا نحن في إحدى دول العالم المتحضر الذي يدفع المواطن ثلث راتبه ضرائب و هو يعلم أن جزءًا منه يذهب لانعاش ميزانية الثقافة، بالطبع لا!!

فهنا في مصر إذا أخبرت مواطنًا أن جزءًا، حتى لو زهيدًا، يذهب لدعم الحركة الثقافية لأسمعك ما لا تحمد عقباه.

كانت الدار تشهد أيامًا استثنائية لا ينكر فضلها، بل يبتهج من المردود المادي و المعنوي، حفلا محمد منير و عمر خيرت الثنائي أصحاب الموسيقى المصرية المتعولمة الأقرب إلى أذن و نبض الشارع العادي والمثقفين، أيضا ليالي مهرجان الموسيقى العربية بما له من وقع محبب ومألوف لديه، كان يقوم بدعوة عائلته وأصدقائه لحضور الحفلات التي تعيد إليه حنين أمسيات أم كلثوم و عبدالحليم و فريد و عبد الوهاب، أمسيات زمن إذاعة صوت العرب و لمة الأسرة عند أول خميس من كل شهر سابحين في ملكوت صوت الست و خطب عبدالناصر الخالدة، يتذكر و يبتسم.

نور كان لها مكان خاص وسط كل هذا، اعتادت عند اقتراب موعد المهرجان أن تفرح و تلح على أبيها أن يأخذها معه كانت تجلس في حضن أبيها في المقاعد الأخيرة المخصصة للدعوات المجانية مبهورة بالألحان و الأغاني، لم تكن كأي طفل يتلبسه الفزع في قاعة السينما أو المسرح، بل كانت تعشق لحظات انحسار الضوء و همهمات الحضور الخافتة و صوت الآلات الموسيقية تستعد قبل البدء.

عشرون عامًا يذهب إلى عمله الهادئ و ابنته تكبر يومًا بعد يوم، لتصبح فخر حياته.

يتذكر كيف كان يصحبها معـــه إلى عمله و كيف كانت تلهو و تتنقل بين المكاتب تشاغب زملاءه الذين أحاطوا الطفلة إلى تيمة الملائكية بكل عناية و حب، نور نفســـها وضعت نصب عينيها قانون أبيها الوحيد.

– العبي كما تحبين و لكن ممنوع الاقتراب من المسرح أو مغادرة مبنى الإدارة،

يومًا ما إذا بنور ابنة الســـابعة قـــد تعدت قانون أبيها، كانت تلهو في الممر الواقع بين المكاتب بجدرانه ذات اللون الأصفر الحكومي الشـــاحب، وصلت إلى آخر الرواق رأت الباب المعدني الذي تتصدر صدره لوحة كتب عليها بحـــروف صارمة «ممنوع الدخول لغير العاملـــين» وقفت ترنو إلى الباب برهبة، كان الباب مواربًا أطلت برأســـها الصغير من فرجة الباب كان يقع خلفه قاعة كبيرة، كان المـــكان خاليًا إلا من رجل في العقد الخامس يجلس خلف البيانو الأســـود المهيب الذي يتوسط المسرح، كان الرجل ثابتًا في جلسته و عيناه شاخصتان في الفراغ المشع بإضاءة باهتة.

تسللت نور على أطراف أصابعها لتختبئ خلف المقاعد، هكذا الأطفال وحـــوش صغيرة تحكمهم الرغبة فقـــط و الغريزة و فضول أعظم من أي فضول قط يحترم تاريخه في التلصص، قاعدة راســـخة لا تكسرها حتى طفلـــة كنور ذات وجه ملائكـــي، فلم يكن غير الفضـــول و اللهو خارج الحاجز المرسوم لها من أبيها بالسنتيمترات، ملّت الممر و جدرانه الضيقة و أصدقاء أبيها و حُســـنة عاملة الكافيتريا العجوز التي لا تنفك تحشو فمهـــا بالطعام منذ أن تراها إلى أن تغـــادر كأنها ولدت في مجاعة، ملت أحاديثها مع عاملة النظافة عن طليق ابنتها و «حظها المايل»، ملّت الهدوء المريب الذي يستشري في المكان كأنه معبد أو مسجد، فالكلمة بحساب و الصوت دائمًا على أقل درجة من الخفوت.

تســـللت نور ودنت من الصـــف الأول من المقاعد المواجهة للمســـرح، أنفاســـها تتسارع و نبض قلبها عند درجة الغليان، و لذة اقتحام المجهول تســـتحوذ على أعصابها، الرجل مازال في جلســـته المتأملة مرتديًا حلة شديدة السواد تضاهي لون البيانو الضخم الجالس أمامه الرجل و رابطة

عنق قرمزية، شعره الأبيض كالثلج مشذب و منسال طويلاً على جبهته البيضاء الناصعة المليئة بالتجاعيد نظرًا لعوامل التعرية أمام الزمن، كل ما كان يشغل بالها أن تشاهد المسرح من هذا القرب، الصف الأول الذي حرمت مع أصحاب الدعوات المجانية من الاقتراب منه، بدنو جليل من جنة مقاعـــد الدرجة الممتازة، خطت إلى الأمام خطوة طماعة فاختلت الأرض تحت قدميها، تهاوت منكبة على وجهها، الألم لا يحتمل ولكن خوفها كان أكبر فكتمت صرختها وإن أفلت منها أنين مكبوت و دموع صامتة، لملمت أوجاعها وعادت متراجعة إلى مخبئها الأول حتى اســـتوقفها صوت رخيم:

- تعالي لا تخافي. .

صوت ودود محبب إلى النفس، صـــوت رجل في العقد الخامس فضي الشعر، كان واقفًا أمامها عند الممر الفاصل بين المقاعد يمد يده و تعلو وجهه ابتســـامة تودد دافئة تزيد من أخاديد التجاعيد المحيطة بفمه.

- تعالي، هيا، مدت يدها و قامت، كفكف دموعها الصامتة وحملها إلى المسرح.
- انت بخير الآن؟

ارتبكت فداعبها و أجلسها على كرسي البيانو المخملي.

- حسنا، على الأقل أخبريني باسمك، لا بد أنك تملكين اسما، أليس كذلك ؟!

ردت بدون تردد كمن يســـمع درسا حفظه عن ظهر قلب «نورالهدى فريد عبدالعظيم». .

زادت الابتسامة اتساعًا على وجهه.

- انت ابنة الأستاذ فريد المحاسب؟! أطرقت و هزت رأسها اجابة بنعم. .
- أتعلمين إن أبوكِ أهم شخص في الدار كلها؟

بدا الفضول على ملامحها الصغيرة، وتابع هو:

- آه طبعا، أليس هو المسؤول عن الرواتب للموظفين؟

ضحكت نور من قلبها، شعرت بالدفء و الامتنان.

- أخبريني ماذا تفعلين هنا، أظن أننا صرنا أصدقاء؟

هزت رأسها أي نعم.

- أنا فقط كنت أريد أن أرى المسرح عن قرب..

ارتسم اهتمام طفولي على وجه الشيِّب

- حسنا أنا جميل الفقي تقدري أن تقولي أنني أنا المسؤول عن الموسيقى هنا.

ردت متصنعة التفهم:

- يعني حضرتك عندك خزانة بها كل الموسيقي في مكتبك.

ضحك جميل و ربت على رأسها.

- ليس بهذا المعنى لكنك اقتربتِ، هل تحبين الموسيقي يا نور؟
- نعم أحبها جدا.
- حسنا لو تمنيتِ أن تعزفي على آلة، أي آلة تختارين ؟

أشارت إلى الكمان الملقى بجوار البيانو على حامل النوتات.

- لـــمَ الكمان!، البيانو أكبر و يصدر أيضاً أصوات جميلة؟!

هزت رأسها نفيًا و أجابت:

- «أصلهـــا بتطّلع صـــوت نفس صـــوت العصفور اللـــي كانت ماما جاييهولي، بس ماما لما ما بقتـــش موجودة العصفور نام و مابقاش يغني و بابا خـــده من القفص و ماجبليـــش واحد تاني...

أتى صوت أبيها الغاضب من الباب المفتوح:

- تعالى يا بنت هنا، ألم أقل لك ألا تتجاوزي الطرقة..

مع اقترابه منهما بدا الخوف يرتسم على وجهها.

- كده قلقتيني و عطلتِ المايسترو، أنا آسف يا فندم..

نهـــض جميل من جوار نور و بنفس الود صافح فريد و وضع يده على كتف نور

- لا مافيش حاجة، دي حتى نور كانت بتحكي لي على العصفور بتاع مامتها.

ختم الحزن على وجه فريد و همس:

- الله يرحمها.

تفهم جميل الوضع بخبرة السنين.

- نور بنت مهذبة ربنا يخليها لك. .

استشـــعر جميل خجل فريد و إحساســـه كموظف تعدى الحاجز و القوانـــين أولاً باصطحاب ابنته إلى العمل و ثانيًا بعدم الانتباه إليها مما حدا بها أن تخترق وقت المايســـترو المعروف بشدته و التزامه بالقواعد.

- شوف يا أستاذ فريد أنا عندي طلب صغير.

- حضرتك تأمر يا مايسترو..

- أنا أريدك كل يوم أن تحضر نور معاك و لا تدعها وحيدة في مكتبك، أحضرها إلى في المسرح، غدا نور سوف تتعلم أول دروس الموسيقى.

- لكن حضرتك أنا أرى أنها صغيرة و بعد شهر سوف تلتحق بالمدرسة و أيضاً لا أحب أن أرهق حضرتك.

- أول شئ، هذا أنسب سن إنها تتعلم موسيقى ولا إنت فاكر إن العازفين بدأوا في الثلاثين، و يا سيدي خليها تتعلم حاجة مفيدة و تتسلى و لما تيجي المدارس ربنا يحلها.

تنهد فريد خجلاً و تملكته حيرة و خوف.

- اللي تشوفه حضرتك يا مايسترو..

و مـــن هنا بدأت نور الهدى طريقهـــا العجيب، يوميًا تحضر مع أبيها الـــذي التزم بوعده لجميـــل متجنبًا إغضابه فتتركـــه عند باب غرفه المايســـترو جميل، يومًا بعد يوم قوي ارتباطها به و اهتمامها بالموســـيقى يتنامى.

لحن سماوي جديد يتشكل.

(3)

داليا جلال حجازي

الرابع عشـــر من يناير، انتهت الثورة التونسية هرب طاغيتهم المحلي ابن على، كان الوضع يغلي كمرجل جحيمي تحت الســـطح في مصر، تتنقل بين قنوات الأخبار و هي متوجســـة خيفة و زادها توجسا مهرجان النفي الحكومي المنصوب على شاشـــات القنوات المصرية «مصر ليســـت تونس، مصر ليســـت تونس» الوجوه فاقـــدة الحياء، مهرجون كل بلاط يصرخون ويصرحون بها يقصدون الإيحاء بأن مصر بلد بها حكومة، إنكار واســـتنكار على الوجوه الحكومية وأيضًا وجوه أبطال المعارضة الكارتونية المتقابلين على مقاعد الاســـتوديوهات المكيفـــة يقيئون نفس الهراء أمام الكاميرات و فواصل الحديث « مصر ليســـت تونس، مبارك ليس الزين «، ملعونون أيها اللاحسون أصحاب معرض الأقنعة الهشة ادنأ أنواع البشر فـــلا يرقون ولا حتى، لكونهم مجرد برغـــوث في رأس فأر مجذوم، ما هذا التطفل و الكـــذب و الهراء؟!! أغلقت داليا التلفـــاز ونهضت في محاولة منها للاحتفاظ ببقية مرارتها المتورمة، فتحت الكمبيوتر حاولت أن تخط كلمات مقال للجريدة.

— ليس أســـوأ من الهراء التلفزيوني إلا أن تكون الكتابة مهنة!! حدثت نفسها بهذا الخاطر، تفحصت البريد الالكتروني رسالة من الجريدة تستفسر عن مقالها المطلوب بناء على تغطيتها لمهرجان الإسماعيلية للفنون الشعبية، شكلي هاترفد النهاردة. .

نهضت و ارتدت ملابسها سريعًا و خرجت قاصدة الجريدة، مستحيل الحصول على تاكسي في ساعة نحس كهذه، أخيرًا استوقفت تاكسي.

- المهندســـين.. كادت أن تركب حتى ألجمتها نظرات السائق الميتة الشهوانية المنبعثة من تحت أنقاض أعصاب دكت بأطنان من حبوب الترامادول، تراجعت إلى الرصيف فلحقتها ســـبة فاحشـــة و انطلق التاكســـي ناثرًا الغبار، تمتمت «عادي هي الشتيمة بتلزق»، انتظرت نحو ربع الساعة حتى لاح تاكسي آخر.

- مهندسين؟! ملامح السائق العجوز شـــجعتها، من الصعب أن تكون انتقائيًا في مدينة إجبارية كالقاهرة، لعنة أن تكون أنثى في مجتمع يستهل أعياده الدينية بحفلات تحرش جماعي يتحرك فيها كقطيع ضبـــاع، القاهرة المدينة الرمادية، قاهرة الإنســـان، وصلت إلى مكتب الجريدة «صوت الحقيقة» اللافتة تتصدر مدخل البناية نظرت إليها و بتهكم قالت :

«صـــوت النفاق»، هذه هي داليا الســـاخرة صاحبة المدونة النارية على الانترنت، من جرؤت أن ترسم بالاسبراي على لافتة محطة الملك الصالح علامة X و كتبت تحته «الملك الفاسد مبارك»، خطت إلى مقر الجريدة، جلست إلى مكتبها أمام الكمبيوتر محاولة الإمساك بخيط تبدأ به المقالة الملعونة، حدثت نفسها:

- الآن موعد القهوة و كتابة مقال مفتعل عن المهرجان.

داليا جلال حجازي الصحفية الناشـــطة التي ترى نفســـها مخلصة الكـــون من أوزاره بفضحه أمام ذاته المنتفخـــة، المبدعة صاحبة الرؤية لا كزملائهـــا كُتب عليها الدفن في هـــذا الركن الخرب من العالم الذي يدعـــي جريدة، كم من العمر ضاع في انتظار شـــئ مـــا جيد يحدث أو معجزة. خمس ســـنوات أهْـــدرت هنا بلا مردود يذكـــر، أرادت الخبرة و بعض المعـــارف و المصادر و هنا كانت ضالتهـــا «صوت الحقيقه» مصب لأمـــوال تتدفق من أباطـــرة الحزب الحاكم كواجهة مســـتقلة بعيدة عـــن الجرائـــد القومية الـــتي فقـــدت مصداقيتها في الوعـــي الجمعي لشـــعب مفعـــول به الكـــذب صباحـــا مســـاء، و كل قيمتهـــا أن تباع

بالكيلــو لأصحاب المطاعم الشــعبية كمصفاة لزيــت قلي الطعمية..

عام ٢٠٠٥ «فكر جديد» شــعار التوجه الجديد للحاكم شهد انفتاحًا للرأي عندما قرر مجلس الشــر الأعلى أن يعتمد سياسة « نفخ البالونة» مع الشعب، تطالبون بحرية و تعددية حسنا نعطي تراخيص انشاء جرائد خاصة و مســتقلة تسب الحكومة في إصدارات أسبوعية و مع الوقت صار الإصدارات و السباب يومية، دع الشــعب يعبر عن غضبه المعيشي المكتوم و يأسه المســتعصي بهذه الجرائد، فيتداول تلك الجرائد يبتسمون مع هذا التحليل المركّز للفســاد و تلك المقالة الملتهبــة و الانفردات التي تكشف فساد هذا أو ذاك كأنه نصر شخصي للشعب الموهوم بديمقراطية مزعومة فيقل الضغط و يفرغ الغضب.

هذا هو الشــكل الظاهري والإطار الظاهري للفكر الجديد، لكن على جانب آخر وُضِعت خطوط حمراء خفية، الزعيم أو نجله لا تقترب منهما ومن قربهما له عذاب عظيم، و من مفارقات مصر الشــديدة السخرية أن كثيرًا من تلك الجرائد التي تدعي أنها تقول كلمة حق عند ســلطان جائــر ممولة من لجنة السياســات في الحزب الوطني، غســيل عقول يا ســيدنا، إلا من رحم ربي وسط هذا الســوق و أشعل حربًا على الحاكم وقام بمهمة المغسلة لعقول المصريين و لكنه تعدى كل الخطوط الحمراء لينفذ صبر الحاكم للأســف - و من رحم ربي- صودرت و أغلقت و بيعت و خربت مجلاته أو جرائده من الداخل، فالمجد لمحرك الدُمى المتحكم في كل الخيوط و الخيط المتمرد النافر يقطع لتسقط دميته الموصولة به.

- أســتاذة داليا، ماهر بك طالب يشــوفك، قطع حبل أفكارها صوت الســاعي، تنهدت وســارت بخطوات ثقيلة مهمومة إلى مكتب ماهر الشربيني وقفت أمام الباب المغلق، برائحة خشبه النفاذة، باب الجحيم المنتظر، ماهر الشربيني رجل كل شئ مربح، الابن البار لأية رائجة، أحد الدمى المتحركة «الماريونيــت» محكمة الصنع لتعطي انطباعًا بالصحفي العصامي صاحب الصولات و الجولات و الحروب الملحمية

ولا أحد يعلم نشاطه كمرشد وفي لأمن الدولة و أحد الجالسين على حجر النظام، ماهر الشربيني وجبة شـــهية طُبِخت بعناية شيطانية لتقدم إلى الشعب فتسمم أفكاره يومًا بعد يوم.

طرقـــت الباب بقوة محاولة إخفـــاء تردد و خوف و قرف يصل إلى حد الغثيان من الكائن القابع خلف الباب، دلفت إلى حجرة المكتب الواسعة التي يلزمك اثنتا عشرة خطوة كي تقترب من المكتب الأسود العريض بمنتصفها كقارب فهذا من شيم من يحب التلاعب و ترك انطباع الرهبة عند زائريه، لا تتذكـــر أين قرأت أن الملوك كانوا يجعلون قاعة العرش متصلة ببهو طويل مـــترامٍ لكي يعطي الزائر وقتًا لتتملكه مخاوفه من صاحب المقام.

- أهلا بالهانم، قالها ماهر بتهكم و هو يشعل سيجارته..
- بص يا أستاذ ماهر بالنســـبة لتحقيق المهرجان بصراحة ثقيل على قلبي.
- ليـــس هذا هو الموضوع الذي طلبتـــك من أجله، لكن جيد إنك قد ذكرتيني. هل انتهيت منه ؟
- لا طبعا لست قادرة على هضمه، اكتب عن فنون شعبية حسنا، لكن قصيدة مدح في الوزير !!!
- ما علينا، سلمي الموضوع لأي أحد، المهم أنا أريدك في موضوعين.

بدا الاهتمام على وجهها، فيما يبدو الآتي لن يكون أفضل من مهرجان الإسماعلية!!،

مد ماهر ورقة ووضعها أمامها على حافة المكتب..

- ما هذا؟ تساءلت داليا فارتخى ماهر في مقعده و قال:
- اقرئي و ســـوف تعرفين!! مرت بعينيها ســـريعا علـــى الورقة، كان التحقيق الذي انكبت عليه طوال الشـــهر الماضي، رفعت عينيها إليه متســـائلة!! نفث دخان سيجارته و قال:

- هذا هو الكلام الذي لا يمكن هضمــه ابداً، و أطلق ضحكة فاجرة و أتبع:
- جميل إنك تقومين بكتابة تحقيق ملتهب ســاخن عن أرض أسوان و المال العام المسروق و الفاسدين الذين يحاولون بيعها، ليتجه مصيرها من مساكن للشباب إلى مشروع سياحي، لكن للأسف أمامك عقبة واحدة، هل تعلمين من هو صاحب النسبة الأكبر بالمشروع؟

ابتسمت داليا باستهانة و قالت:

- أكيد شخص كبير، طقطق بلسانه و غمز بعينه
- ليس كبيراً فقط، إنه الباشا ابن الباشــا الراس الكبيرة يا داليا، و حضرتك أصبتِ!

رسمت علامات التحدي على وجهها و قالت:

- و ما المشكلة؟! أليست سياسة الجريدة كشف الفساد؟

لم يتأثــر ماهر بتحديها له، الملامح الثلجيــة التي اعتادت القوادة لم تعطِ أي انطباع، سحب نفسًــا طويلاً من سيجارته و قال:

- سياســتي أنا هي التي تحدد النشر أو عدم النشر و المبادئ أنا من أقوم بوضعها.
- في أي قانون أو معنى!، على كل حال، أنا ســوف أغادر، و سوف أنشر التحقيق بالمســتندات في أي جرنال معارضة و استقالتي ستكون على مكتبك غداً..

همت بالانصراف غاضبة حتى استوقفها ماهر مهدئًا:

- قفي عندك، الموضوع لن ينشــر حتى في أحلامــك الخاصة و هذا يقودني إلى الموضــوع الثاني الأهم..

انا الوحيد الذي يمنع أمن الدولة عنك يا قلبي.

تسمرت في مكانها و اقترب منها ماهر بخطوات و اثقة.

- اهدئي و انصتي جيدا.

مد يده و لمس أذنها فأزاحت يده بعنف فابتسم و واصل السير ليجلس علـــى الأريكة الجلدية، اوعـــي تكون فاكرة إنك أذكـــى مني أنا ماهر الشربيني مش أي حد.

شـــقة طلعت حـــرب اللي بتقابلـــي فيها أصحابك العيـــال الصيع الشـــيوعيين رفقاء الكفاح معروفة و متراقبة، ازيدك من الشـــعر بيتًا.. المدونة بتاعتك اللي فاكرة إنها مش معروف صلتك بيها اسمها «زهرة الثورة»، خدي الثقيلة بقى شقه شارع مصدق الدقي اللي بتروحيها تقابلي فيها الواد المحامي بتاع الجمعية المصرية للتغيير كان اسمه إيه يا ماهر، آه أحمد عزت مش ده اسم الولد إلى مرافقاه يا صاحبة المبادئ، شايفة أنا شايل عنك إيه؟!!

الصدمة تعصر رأسها، ألف جالون ماء بارد لن يطفىء نار قلبها، تعلم أنه حقير لكن لم تتوقع الوقاحة المفرطة، تلبسها الصمت و فرت الأفكار و تبخرت الشجاعة، اللعنة على أتباع الشيطان فهم أشد وقاحة من سيدهم، ها هي تنحر على مذبح مدنس قربى لسيده محرك الدمى.

كانت كتابًا مفتوحًا أمام عينيه النافذتين بعد أن انتزع ورقة التوت كاشفًا أسرارها، نهض من جلسته ودنا منها و هي مطرقة إلى ثقبٍ أسود يبتلع ضوئها.

- داليا أنا باعزك و لو كنت عايز أضرك كنت عملتها من زمان».

بصوت مبحوح مخنوق قالت:

- و المطلوب مني إيه؟

شعر بالنصر، الفتاة التي ترتدي مسوح التمرد و القوة أتت له في المربع الذي خطط له و رسمه أراد أن يضعها في ركن الحلبة، هو الآن المسيطر،

إله هذه اللحظة، إحساس رائع يخدره كدمية متحركة آن لها أن تصبح و لو لمرة محركة دمى، تبدلت لهجته إلى لهجة أقل حدة و أكثر عمقا.

- معلومات، محتاجين معلومات من داخل الجمعية المصرية للتغيير اللي انتِ واحدة من اللـــي بيجمعوا التوكيلات فيها، التوقيعات الخطط و التحركات على مســـتوى مؤسسي الجمعية وعقولها المدبرة، كل همسة بتتقال في اجتماعاتكم و الشخصيات اللي بتحضر.

تبسمت بحسرة.

- يعني أســـيادك عارفين عني كل حاجة و مش عارفين إيه اللي بيدور في الجمعية؟

أجابها:

- عارفين كل همســـة معلومة، بس على مســـتوى الكوادر محتاجين أمثالك تأكيد للمعلومات و تنويع المصادر و يا ســـتي زيادة المرشد مرشدين.

لم تجب داليا من فورها أنفاســـها مبهورة كمن يصارع الغرق و شعور كريه بالغثيان يغلي تحت مسام جلدها.

- ابقى مرشدة و ابلغ عن زملائي. مش هي كدة ببساطة؟!

عاد ماهر ليجلس خلف مكتبه و قال:

- فكري براحتك و خذي الوقت اللي يريحك، مع السلامة.

خطواتها تزن أطنانا، الباب كاد الوصول إليه أن يكون حلمًا مستحيلاً، عندما وصلت إليه أخيرًا وفتحته و همت بالخروج أتاها صوته الحازم:

- ما تطوليش و توقعي غير المتوقع يا أستاذة.

ركضت إلى الحمام أغلقت الباب و أخرجت سيجارة و حاولت إشعالها بيد مرتعشة. .

بكت قهرًا و حزنًـــا و تقززًا، قناع القوة المفتعل الذي ترتديه لم يصمد أمام أول اختبار جدي..

أفرغت معدتها الفارغة لخمس دقائق متواصلة، تمالكت نفسها و قفت أمام المرآة غســـلت وجهها وأخرجت قلم الشفاه و ظلت تفكر بلا هدف، لم تزين شفتيها بل أمسكت بالقلم بكل غلٍ و تصميم وخطت على المرآة. .

«فعلا مصر مش تونس، تونس أشرف».

(4)

حكاوي البحر

امتد البحر مغبرًا راكدًا يشبه نقطة زيت كبيرة عائمة، الممشى كان هادئًا في هذا الصباح المدلهم الغائم في أوصار يناير الحزين، جلست أنا و العم مصطفى، شاب في الثلاثينات و كهل في الخمسين، لا يربطهما إلا التجربة و حزن و انكسار ضوء الشمس المنهكة على صفحات أعينيهما المتعبة.

- يوسف الحياة حرب أو معركة بين اثنين ملاكمين، لا تحاول أن تتلقى اللكمات بصمت.

أطلقها مصطفى بأسلوبه المعهود.. أومأت بإيماءة صغيرة وأنا أحاول لملمة سترتي لتقيني البرد أكثر.

كان طلبًا غريبًا عندما أتى ليصحبني من المستشفى هذا الصباح، لم يصحبني إلى مطعم أو يعرض عليَّ مشروبا يعيد قواي أو حتى نعود إلى البيت فأعانق فراشي، فقط نظر إلى و قال بابتسامته الغامضة وأصابعه تداعب حبات المسبحة الكهرمانية الخضراء بدأب مدهش :

- هيا، ارتدي ملابسك سنزور صديق قديم..

الفضول كان قاتلي إلى أن جلسنا في ذاك الزمهرير على المقعد الخشبي مواجهين البحر، قال بأريحية مريبة و هو يشير إلى البحر:

- يوسف هذا أقدم أصدقائي، قل مرحبًا للبحر الأقدم و الأحكم، ثم عقب متجاهلًا البلاهة المرتسمة على وجهي:

- نظرتك إليه كمصرف نفايات أو بركة من الزيت لا تقلل من شأنه كامتداد من كيان أعظم هو المحيط،

هو لم يختر الانعزال لنفســـه عن أصله الواســـع الرحب الواقع خلف المضيق، نظرتنا إلى الأشـــياء هي التي تحكم موقعها من نفوســـنا، احترم هذا الكائن المعزول يحترمك و يهبك أسراره، في المجمل أنتما متشابهان، أصل عظيم و ماض سئ ومستقبل غامض..

ابتســـمت و إن كنت أقاوم الابتسامة ففلتت رغم الحزن، أنت بالفعل بطلي الخاص..

كنت أحيانًا أظن أنه شـــخصية خيالية مختلقة داخل عالم افتراضي من صنعي، منذ زمن و أنا لم أعد أســـتطيع التفرقـــة بين عالم الواقع و الخيال قد ذابت الحدود بينهما فامتزجا في كيان هلامي يشـــبه حلوى «الجيلو».

العم مصطفى خمس و عشرون عامًا غربة، كما يحب أن يقدم نفسه، شاب سكندري ولد لأبوين حُرِما الإنجاب طويلًا، الأب عامل بسيط بالميناء و الأم خير مثل لمسمى ربة منزل رغم نيلها قدرا من التعليم وذكائها، بيت قديم ينقصه الكثير و إن كان الحب و العشرة و التمسك بالصبر يشبع النفس الأمـــارة بالقنوط، رحلة البحث عن الإنجاب بين أرفف العطارين و وصفات الدجالين و الأطباء فاقدي الاهتمام، سبع سنوات عجاف مرت والصبر يقطـــر مرارته في الحلق، بدا التذمر على حورية كتمت لوعتها وإن جاهرت بالشـــكوى أمام زوجها عبدالصمـــد الجنايني أكثر من مرة ليكون رده المكرر طوال السبع سنوات.

— ســـيدنا زكريا ربنا أكرمه بســـيدنا يحي و هو في آخر عمره، ربي لا تذرني فردًا و أنـــت أرحم الراحمين، مش ده كلام ربنا.

مـــا بين اليأس و الصبر و التماس الرجاء أُهْديت إلى حورية النصيحة من قِبل جارة مخضرمة.

— اعطيني أي أثر ليكي و لزوجك، أرسله للشيخة نعمة،

الأمل كائن شهواني يسكر الحواس، قبس نور غامض جالب المدد لمن كابده ظلام أليأس.

بعد يوم عادت إليها الجارة بتعليمات المباركة نعمة و حجاب له رائحة عطرية نفاذة.

- تحطي الحجاب تحت الفرشة بينك و بين زوجك و تناما عليه سبع ليالي و بعد السابعة ما تعدي تروحي تنامي على البحر ثلاث ليالٍ و إياك تمشي و هتنولي المراد.

نفذت التعليمات كمن يتعلق بطوق نجاة أخير و أخفت الأمر عن عبدالصمد لعلمها أنه سيغضب ويلقيها بالجهل و قلة الإيمان.

بعد انتهاء الليلة السابعة طلبت منه أن يدعها ثلاثة أيام تزور بيت أهلها في المكس، بيت أبيها المطل على البحر عند نزول المساء تترك البيت و تجلس على البحر متمسكة بالحلم، تبيت على الشاطئ الموحش و عند الفجر تعود إلى بيت أبيها.

الليلة الثالثة كانت مختلفة الطقس لم يكن مبشرًا بأي خير بدت السماء كما لو كانت تستعد لعزف أشرس سميفونياتها، جلست محتمية بعش كان مقهى للصيادين في زمن ما، الرعد افتتح السيمفونية بحركة أولى مشتعلة، بم بم بم، كم يذكرها هذا الصوت بخوف مترسب منذ الطفولة لتشابهه مع أصوات قصف طائرات المايسرشميت النازية على رؤوس الحلفاء المتمركزون بالأسكندرية. البرق يشق السماء، الأمطار تنهمر ثقيلة كأحجار يشقها هدير هواء كافر لا دين له يخترق وينفذ إلى العظام كإبر جحيمية، ارتعدت بلا توقف و اختلط الخوف بالبلل بجنوحها إلى الهروب عائدة إلى بيت أبيها و لكن الغاية تمنعها، من المؤكد الشيخة المبروكة تعلم ماذا تفعل، فسمعتها أنها مخاوية ملك من ملوك الجن، الاسكندرية كلها تعرفها، البحر صار كتلة سوداء متلاطمة و البرق ينكسر على السطح الفائر كسوط عملاق يجلد ظهر شيطان ثائر. . .

انطلقت تعدو تاركة مأواها و اندفعت إلى أقرب نقطة و ألقت نفسها على حافة الرمال و الأمواج تلطمها مزيج من الأمطار و الدموع و ملوحة ماء البحر تعصرها ووسط اللجة أطلقت ضحكة انتصار، بعد انقضاء النوة عادت إلى بيت أبيها و قدماها لا تكاد تحملانها، عشرة أيام طريحة الفراش من أثر الحمى.. تحلق حولها كخلية نحل الزوج و الأهل، بدءًا برقية و انتهاءً بجلب طبيب من المستشفي الميري، مضادات التهاب و مخفضات حرارة و سوائل و الكثير من الأعشاب و حساء الليمون و الدعاء.، و أتت بشرة الطبيب عند المراجعة، مبروك الست حامل.

قص العم مصطفى على سمعي أسطورة خلقه، و أردف و هو يطوّح يده في الهواء البارد كمن يحاول الطيران.

- تقدر تقول إن البحر هو أبويا الحقيقي مش عبدالصمد الجنايني، و استغرق في ضحكة طويلة،

عارف يا ولد يا جو إيه مشكلتك بالضبط، إنك كتوم و اتحملت حياة صعبة و إنت ابن أكابر،

صوت نفس الحلة البريستو بتغلي على النار و محدش حاس و يسكتوا و يصهينوا لحد ما تفرقع نفس اللي حصلك، فطرت بسيجارتين و كتمت دنيتك جواك جالك هبوط و غيبوبة و كنت هتصيف يا حاج،

كان كجراح خبير يعلم أين يقطع و أين يوصل بضربات يد مدربة، الأوحد من يستخرج صديد روحي و يجعلني ابتسم.

- يا ليتك زي العيال السوّ اللي ساكنين معانا أو حتى زي أي ابن كلب طلع باسبورت و طلع سلم الطيارة مكسور كأن الدنيا هتقف عليه، بس يستجرأ كده و يبص وراه لشاف البلد عاملة فرح عشان خلصت من وشه.

القصد، أنـــا مش هاقول لك مالك أو احكي كلام من نوعية الرط اللي بيجيب العصبي، أنا هاقول لك بس اسمع يا يوسف و انصت كويس، اتبع و نظرته الصوفية العميقة تقرأ فضولي.

- عارف الواد المخنث اللي اسمه شـــادي عمل إيه؟ كنت شـــايل نص فرخة من غدا أول امبـــارح في الثلاجة و لما روحت بعد الدوام و قلت اتغدا بقى فتحت الثلاجة لقيته واكلها و يا ريت كُلها، ابن النزيهة لهطها وســـابلي عظم وجلد عشان اغسل الطبق..

شاكسته بسؤال:

- و غسلته يا أبو محمد؟!

أخرج شخرة سكندرية أصيلة و قال:

- أيوه، غســـلته بس مش الطبق، غسلت شـــادي ذات نفس أمه، فهمته يعني قد إيه فاضل له عشـــان يترقـــى و يبقى حمار محترم..

اســـتغرقنا ضحكًا حتى دمعت العيون، وضـــع يده على كتفي بأبوة حانية.

- انصت يا يوسف. اسمع ما يخبرك به البحر، هتلاقي الإجابة عنده..

(5)

نور الهدى فريد عبد العظيم

قارب الشـــهر على الانتهاء، و نور غارقة لأذنيها وسط دروس الموسيقى الغامضـــة، كطفلة في الســـابعة كان الاهتمام الحاني الذي يشـــملها به جميل يعمل كمنفذ إلى أرضها الموعودة، أرض الأحلام حيث تســـكن الحوريـــات المجنحـــة و أفيال تطـــير و دببة تأكل العســـل وهي تغني و الأشـــجار تطرح حلوى، جميل في حد ذاتـــه تملكته فرحة غامضة كمن وجـــد أرضه الموعودة متمثلة في هذه الطفلة، موهوبة هي بالفطرة، تلك هـــي قناعته الخاصة التي جاهر و صدح بها أمام كل الزملاء و التلاميذ الذيـــن تعجبوا من أفعـــال القدر التي تهبط برجل بـــكل هذه القامة في مجاله ليصبح معلمًا للموســـيقى لطفلة، بـــل و الأعجب أن ما يقوم به ليس دروسًـــا بدائية على ســـبيل إذكاء الوقت بل دروس مكثفة متقدمة تعطى لأشـــخاص ينتوون التخصص، و لكن بالوقت نفسه لم ينكر أحد أن نور كانت مبهرة بل طفرة يصعب حدوثها إلا كل حين، على ســـبيل المثـــال لا الحصر، كلمـــا اجتمعت الفرقة الأولى لأوركســـترا القاهرة الســـيمفوني للتمرين كعادتهم كان المايســـترو يأتـــي بالطفلة معه، وهذه معجزة تجعل المايســـترو يقدم على خرق قواعد التدريب الصارمة.

حدث مرة أنه أوقف التمرين بإشـــارة حازمة و نظر إلى نور التي تجلس على يساره ترسم وتأكل و سألها:

- ما هـــذه المقطوعة يا نور؟ فتجيـــب دون أن تتوقف عما تفعله بعدم اكتراث..
- افتتاحية كسارة البندق..

فيهز رأســـه و يعطي إشارة لاســـتئناف العزف و بعد ثواني يوقفهم بإشـــارة أكثر حزمًا لا تمحو الاندهاش الذي يصل إلى حد البله المرتسم على وجوههم ويسألها مرة أخرى:

- من المؤلف يا نور؟

تجيب كمن يشرح شيئا اعتاده بروتين مبهر:

- «بيتر أليتش تشيكوفســـكي» يبتسم المايسترو برضى و يكمل التمرين، وتتنوع مشـــاعر العازفين بين الغضب و الاستهجان و الدهشة ولكن افتقارهم إلى الشجاعة و الجرأة أمام الوحش تمنعهم من إبداء أدنى إيماءة اعتراض على ما يفعله المايسترو.

الـــكل يعرف الرجل خير معرفة و يفقهون كيف أنه يتناول الفن بكل قدســـية و تعظيم فلا يسمح بأية هفوة، اعتادوا على عصبيته و تطرفه في النظام و حزمه المخيف و تحكمه في كل تفصيلة متناهية الصغر، الملابس مواعيد الاســـتيقاظ و النوم و مواعيد الوجبات، بل وصل إلى أنه خصص لهم أوقـــات تدريب محددة في العطلات. لم يكـــن ليتهاون مع أي إخلال بالنظام، كانوا يخشـــونه و إن كان الاحترام و المودة لهما وقع خاص في قلوبهم، لذا كان التبدل في طباعه أمرًا هز عالمهم و تلك الطفلة ملائكية الوجه أو أميرة الثلوج، كما كانوا يطلقون عليها، أصّلت داخلهم شعور الاغتراب إلى حد ما، النظام الكوني ينهار، يوم الساعة قد حان، تلك هي همساتهم سرًا، شـــيء تبدل في ملامح المايسترو القاسية لتكون أقرب إلى الرقة، ماذا صنعت أميرة الثلوج في عالم الوحش؟!

جميل الفقـــي يعلم الجميع معظم تاريخـــه و تفاصيل حياته، نظام عســـكري ينتهجه، نوم مبكر و اســـتيقاظ مبكر، وجبـــات ثلاث بالدقيقة يتناولها، حتى نوعية قماش الحُلل الذي يصر على استيراده من متجرين أحدهما في نابولي و الآخر في ليفركوزن، يســـكن وحيدًا في شـــقة بحي الزمالك، الشـــقة التي من كتب له حظه السعيد أن يدعى إليها مرة و

أن يراها فيغادر لينظم قصائد غزل في وصف المتحف الصغير و اللوحات النفيسة التي يقتنيها المايسترو..

المايسترو الجيل الثالث من عائلة فنية، أبوه إبراهيم الفقي عازف الكمان المشهور الذي صاحب عمالقة الطرب الشرقي «عبدالوهاب» و «أم كلثوم» و «عبدالغني السيد» و «فوزي» طوال ربع قرن..

هو بدوره ورث الفن عن أبيه الشيخ عبدالمنعم الفقي المنشد الديني و صييت زمانه من ملأت شهرته الآفاق و أورث ذريته لقب الفقي ليكون اسمًا للعائلة. تغلغُل الفن في جذور الأسرة هو ما جعل إبراهيم الفقي يرسل ابنه ليدرس الموسيقى أكاديميا، نبغ في معهد الدراسات الموسيقية ليستحق بعثة إلى النمسا عاصمة الموسيقى الكلاسيكية في القرن التاسع عشر، جميل كان ممتلئًا بالموسيقى الشرقية متشبعًا بموشحات مسجد الرفاعي في ليالي رمضان و أصوات المقرئين العظام «رفعت» و «اسماعيل» و الشيخ «علي محمود» والأغنية المصرية بدءًا بـ«سلامة حجازي» و الشيخ«سيد درويش» و انتهاءً بـ «عبد الوهاب»، و قد أهمل أجيالاً أتت بعده لإحساسه بانطفاء جذوة ما، اراؤه صادمة دائمًا في الفن و ناقد لا يتسامح مع أي وجهة نظر معاكسة. ما انفك يدافع في كل ركن عن «سيد درويش» مفعمًا بحب غامض و إجلال مفرط، و ندد بالظلم الذي حرم تاريخ الموسيقى من ألحان لم يكتبها «القصبجي» بسبب «السِّت»، و لم يخف كرهه الشديد لـ «عبد الحليم» الذي ارتاءه خاليًا من العمق و الأصالة، لكن سنوات البعثة في النمسا فتحت أمامه آفاقًا أرحب، الموسيقى الحقيقية كما كان يسميها، موسيقى العباقرة و النبلاء، «موتسارت» و «بيتهوفن» و«ليست» و «شوبرت» و «فاجنر»، غرق في أنهار الموسيقى الكلاسيكية ينهل إلى حد الارتواء و يعب منها حتى النخاع.

معظم الناس تعلم أن جميل الفقي أحب و تزوج مرة واحدة و أخيرة من تلك الفتاة الشقراء صاحبة الصورة الكبيرة في شقته كليمنتين النمساوية، تزوجا بعد قصة عشق عنيفة تداولتها أركان و أزقة و حانات

مدينة سالزبورج، لكن لا أحد يعلم كيف انتهت الزيجة و إن تكهن البعض برفض الفتاة العيش في مصـــر وآخرين قالوا إنها توفيت، عاد جميل إلى القاهرة لينضم إلى أوركسترا القاهرة السيمفوني عام ١٩٦٠ الذي أسسه أستاذه المايســـترو النمساوي «فرانتس ليتشـــار» و عمل في كونسرفتوار القاهرة أســـتاذًا للبيانو، لم يتزوج طوال أربعين عامًا، عاش وحيدًا بنظام يجمح عنان أية نزوة رومانسية أو إبداعية تأتيه.

لكن نور ملكـــت القلب المغلق من أول نظرة و زاد تعلقه بها مواظبتها الدؤوبة و تفوقها السريع، ارتعد من فكرة بعدها عنه بعد انتهاء الشهر و دخولها المدرسة، فذهب إلى أبيها في مكتبه.

لم ينكر فريد عبدالعظيم فضل الرجل أبدا عليه و على ابنته و عشـــق المرتبة التي وصل إليها كموظف صغير وســـط أقرانه بالدار، الكل تقرب منه وداهنه و أجزل له الشـــكر و المديح و العطاء، اســـتفاد كثيرًا بقربه من المايســـترو صاحب الكلمة العليا بالدار، و لم ينكـــر تغير طباع ابنته إلى الأفضـــل، و إن كان قـــد ضايقه أن معظم الأوقـــات التي تكون معه خلالها تقضيها في الاســـتماع إلى موسيقى لم يستسغها طيلة عمره حتى أحاديثها عما تعلمته و هذا المؤلف أو ذاك، ما كان لمحاســـب من الطبقة المتوســـطة المتآكلة أن يســـتوعب معنى تلك التعريفات ولا الفرق بين عصر الروكوكو و الباروك في الموســـيقى العالمية، ولكنه كان يتعجب و يفتخر بابنة الســـابعة التي في مجال شهير صارت أكثر نضوجًا.

أتى إليه جميل الفقي ليطلب ما لا يتوقع..

— أســـتاذ فريد أنا أولًا عارف إن نور خلاص هتدخل المدرســـة كمان يومين بس أنا شـــايفها في مكانة أخرى بعيدة عن الدراسة العادية، يا أستاذ فريد بنتك مش زي الأولاد اللي في نفس سنها، نور فلتة نابغة ما بتتكررش إلا كل مائة ســـنة زي «موتسارت» !!

قاطعه فريد بجهل» مين؟!»

زفر جميل و تراجع في جلسته:

- «موتسارت» يا أستاذ فريد ده موسيقى ألماني من أعظم ما أنجبته البشرية في تاريخها، عارف أغنية فيروز طيب «يا أنا يا أنا»؟ اللحن سرقوه من السيمفونية الأربعين لموتسارت، بنتك بقي من نفس القماشة، هو اتعلم بيانو و عنده خمس سنوات و ألف أول مقطوعة و هو في الثامنة، رد فريد بحيرة:

- يعني دي حاجة تتصدق إن البنت المسخوطة دي عبقرية؟ دا أنا أبوها مليش في أي فن أو كلام من ده، طيب خليني معاك المدرسة الصرفة فيها إيه و للا يقولوا الناس فريد ماوداش بنته الوحيدة المدرسة الناس هتاكل وشي!!

قال جميل بهدوء وتصميم:

- ما تقلقش، هتدخل المدرسة بس مش أي مدرسة، مدرسة معهد الموسيقى. . الكونسيرفتوار، دراسة عادية زي أي مدرسة حكومية بالإضافة إلى الدراسة المتخصصة، و ما تقلقش أنا اللي هتابعها ويا سيدي حتى الكمان هدية مني، نور بنتي زي ما هي بنتك!!

نهض جميل كمن لاينتظر الرد و مد يده مصافحًا فريد.

- توكلنا على الله؟

أسقط فريد في يده، و منولوج داخلي يحدثه:

«مدرسة عادية و تعليم نظامي و كمان تدرس اللي بتحبه و بردو ابقى علمتها حاجة ما كنتش هفكر فيها، تنفس بعمق و قال:

- توكلنا على الله يا مايسترو. .

عند باب المكتب قال جميل وهو منتشٍ:

- بنتك هتكون أعظم واحدة في الدنيا .

جلس فريد و أشعل سيجارته و لسان حاله يردد « الوهّاب إذا وهب لا تسألّن عن السبب».

(6)

داليا جلال حجازي

«لقد حانت ســـاعتي». قول لازم داليا منـــذ خروجها من مكتب ماهر، غادرت الحمام و اتجهت صوب باب الجريدة، استوقفها آخر صوت ينقصها سماعه في هذا اليوم المشحون.

– ما بك؟ خير انشاء الله يا داليا!!!

جمحت انطلاقها وأغمضت عينيها متقبلة الفخ و احتضنت حقيبتها، كان هو بالفعل علاء الســـمري بطوله الفارع و بشرته البيضاء الأقرب إلى «البينو» برأسه الحليقة تماما من المنبت و لحيته البنية الكثيفة وهذه المفارقة الشكلية جعلتها تسخر منه في أول لقاء مشيرة إلى صلعته و لحيته:

– فعلاً يقطع من هنا و يوصل هنا.

علاء الســـمري الزميل الذي تنفر منه بدون أي ســـبب معقول يفسر الانقبـــاض الخانق الذي ينتابها كلمـــا اقترب من مجالها الحيوي، هي مقتنعة بشهامته و نبله و تصفه دائمًا بأنه صاحب صاحبه و لكن نفورها الفطري منه قام بـــدور الحاجز الخفي أمام صداقتهما فانحصر دوره في حياتها بناء على غريزة داليا النفعية باســـتغلاله عند الحاجة لينجز لها تحقيق أو يمدها بصور أو مواضيع، وهو لم يرد لها أي طلب. غريزة داليا النفعية تحكـــم علاقتها بالكون كله، فهي أولًا و أخـــيرًا، لكنها لم تكن هكذا في البدايـــة، لقد اعتنقت الفكر البراجماتي بعد أن كفرت بمُثلها الرومانســـية الخاصة، يحدث هذا للجميع بفضل عوامل الزمن و خلاط التجربة، البداية قصة حب حلمـــت بها و قررت تحقيق فصولها مع أول يوم لها بالجامعة لتنتهي كأي شئ ينتهي و لكن بخسائر، انتهت بخسارة

عذريتها و ثقتها بالعالم، و كرد فعل عكسي و كنتيجة منطقية تغيرت، كنت حمقاء و لم أعد» وإن كان العالم مسخًا لا يرحم؛ و البشر أدوات قهر و اغتصاب و استغلال و أحكام مسبقة، فلأقف وحيدة إذًا أمام العاصفة.

داليا لا تحب سوى داليا، انخرطت في العمل السياسي بالصدفة و تنقلت بين المدارس السياسية المختلفة كرد فعل متمرد على الأفكار العطنة التي تحرك المجتمع، كنوع ما من إعلان الحرب على العالم المعروف و محاولة تغييره إلى أي اتجاه، و كنتيجة تراكمية لخسة أقرب المقربين تعلمت الدرس جيدا.

- العالم مكان موحش نولد وحدنا و سنموت وحدنا لكن يجب أن نقاتل لخلق مساحة لنا و متنفس وسط الزحام الخانق كما يحدد الحيوان منطقة نفوذه !! هذا ما اعتنقته و ما تسير عليه.

يشهد لها سلم نقابة الصحافيين، كم من وقفة احتجاجية شاركت بها ضد قرار بغلق جريدة أو اعتقال كاتب ما لمجرد أن قلمه يضج مضاجع الكبار.

البداية عام ٢٠٠٥ مع زخم الانتخابات الرئاسية، كان من ملامح تلك الفترة، صورة باهتة عن الديمقراطية يصدرها الزعيم بعد ثلاثين عامًا إلى أسياده في الغرب ليمتص إلحاحهم اللزج لفرض شروط ما لعبًا بورقة تداول السلطة، انتعاش الوعي الشعبي الرافض لتلك المسرحية الهزلية، « أول انتخابات حرة نزيهة» كما يصدر إعلام الحكومة أو الإعلام السري التابع أيضًا لها، إذا كانت تلك المهزلة أول انتخابات حرة فتحت باب الحرية، فماذا كانوا يصنعون بنا و فينا طوال ثلاثون عامًا بكل انتخاباتها و استفتاءاتها «أول انتخابات حرة نزيهة» ياله من تعبير !! ففار التنور رافضًا، كأول إرهاصة لما سيكون هذا المشهد الفارق المنتمي إلى أنقى أنواع الكوميديا السوداء، أقل من مائة شخص منهم القضاة المحسوبون على تيار الاستقلال و نشطاء من شتى الأطياف يحيط بهم خمسة تشكيلات عسكرية للأمن المركزي و قوات مكافحة الشغب «هما

جايين يحرروا رهائن» تعبير ساخر أطلقته داليا وسط الجمع أمام دار القضاء العالى فانتزعت الضحكات العصبية، هذا التعبير الساخر الذي تداولته صفحات النشطاء على الإنترنت مرفق بصورة سحل أحد القضاة المشاركين الذي لم يشفع له كبر سنه و علو منزلته أمام فرق الكاراتية التابعة لمباحث أمن الدولة.

يشهد شارع ٢٦ يوليو ركضها المذعور هاربة لا تنظر خلفها، الهول بدأ لما هوت هروات الأمن المركزي على الرؤوس و الظهور بكل همة، في حمية الوغي توقف الزمن فطالعت عيون المجندين أبناء الصعيد الجواني و البراني يحركون أيديهم بالعصي الغلاظ بمكانيكية، عيون خائفة ووجوه قاربت على الهلاك من التعب، فظنوا أن خلاصهم من أتون الوقوف تحت عين شمس لاترحم و تكدسهم أقرب إلى الدواجن بعربات الترحيلات الزرقاء سيكون عند اتباع أوامر البك الضابط و بذل كل غال في تفرقة أعداء الوطن كارهي فرعون الحكيم و ابنه الولي المنتظر.

ركضت وسط العرق المنهمر و الدماء المتطايرة والصريخ الملهوف طالبًا الرحمة، ركضت بعد أن خلصها ذلك الشاب الأسمر الطويل الذي دفع المخبر الممسك بشعرها فأطاح به و جذبها من يدها و هو يقول «اجري، اجري» لينطلقا في الشارع التجاري المزدحم هاربان من نهاية العالم الماثلة خلفهما، يلجآن للممرات المتشعبة الواقعة بين المحلات و عند بناية قديمة يحتل مقهى شعبي الممر الممتد أمامها يدخلان و يجلسان على السلم الرخامي المحطم في محاولة لالتقاط أنفاسهما و تهدئة روع قلبيهما الراقص تحت مفعول الأدرينالين الملون.

- أحمد عزت محامي أعمل في إحدى جمعيات حقوق الإنسان، تساءلت ساخرة:
- أي حقوق إنسان؟!! أجابها
- الإنسان المصري يا أستاذة، نظرت إليه مخفية إعجابها وقالت وهي تنهض:

- هو فيه إنسان مصري أصلا عشان يبقى له حقوق يا عم، في البلد دي في حقوق حكومة و محاسيبها بس.

افترقا على وعد بلقاء قريب و الذي كان بعد أربع و عشـــرين ساعة فانغمست في عالمه و صارت مناضلة كما تحب أن تتشدق على مدونتها.

- مافيش حاجة يا علاء أنا كويسة بس دايخة شوية، حاجات حريمي يا شيخ.

هضم علاء السمري كذبتها الصغيرة و ابتلع سخريتها بدعوته شيخ فطالما تندرت بها أمام الكل،

الشيخ علاء راح الشيخ علاء جاء.

علاء الســـمري يعترف أمام نفســـه أنه يحبها، الرجفـــة الملعونة التي تقبض أحشـــائه كلما وقعـــت عيناه عليها، عطرهـــا المثير الذي يوقظ مشاعر أقدم من الكلمات فتهز ثوابت عالمه المعلوم، ذات مرة انتابه انتصاب ورعشـــة عندما كانت بقربه تستفسر عن صورة ما فقفز و ركض و هو يخفي خطيئته كمن شـــوهد عاريًا في ميدان عام.

علاء الســـمري الشـــاب المهذب المتدين «الملتزم» كما يحب أن يعرف حالته الوجودية، الصامت كل الأوقات متصنعًا الوقار و إن كان صمته في الحقيقة خجلاً و خوفًا من الاشـــتراك في موضوعات بعيدة عن عالمه، حيث كان يتجنب الانخراط في أحاديث كرة القدم و الجنس و الشائعات المتبادلة هنا و هناك، لم يكن له تجربة حياتية ثرية ينهل منها عند اللزوم فنشـــأته في أسرة متدينه «ملتزمة « لأب يمتهن الدعوة في إحدى الأقطار العربية جعلت عالمه متمحورًا حول ما يناسب تلك النشأة، بالإضافة إلى الغربـــة الدائمة والتي بررها الأب لابنه الصغير على أنها إعارة و لكنه مع الوقت عرف أن أباه أحد قيادات الإخوان المســـلمين المنفيين طواعية عقب اغتيال «الســـادات» خوفًا من التضييق الأمني الذي أعقب أحداث أكتوبر المريعة.

بعد عودته إلى مصر اعتبر علاء أيضًا محسوبًا على الجماعة المحظورة كوريث للأب الإخواني فلاحقه الأمن بالجامعة و أعتقل أكثر من مرة بدون سبب، فقط لأنه ابن خالد السمري، و كرد فعل انتكاسي انضم بالفعل لشباب الإخوان مادام أمن الدولة لا يحتاج لسبب لاعتقاله، انخرط علاء في هيكل الجماعة و إن مال إلى التيار الاصلاحي الجديد الذي قاده أصحاب الفكر الانفتاحي بالجماعة و حاول تغيير فكرة السمع والطاعة بالمناقشة و الحوار و لم يفلح بتحريك صخور متراكمة في عقول أعضاء الجماعة فتركهم و إن كان قد رسخ قلمه للدفاع باستحياء عن أي تصريح أو تصرف تقترفه الجماعة كابن مخلص لذكرى أبيه، لكنه لم يملك الشجاعة لمهاجمة مؤسسات الدولة عند وقوع اعتقال أو مصادرة أموال أحد أفراد الجماعة و ترك تلك المهمة للمحسوبين على التيار الناصري و الليبرالي، كان مهذبًا إلى أقصى الحدود حتى مع الظلم.

أحبها و هو يعلم أنهما أتيا من عالمين متباعدين لا يربطهما جسور، عالم الفتاة المستقلة المتمردة صاحبة الصوت العالي و السخرية اللاذعة و الأفعال المثيرة للجدل و الرافضة للأعراف المقولبة، وعالمه « الملتزم «.

اللعنة على تلك التعويذة الشيطانية المسماة حب، أحببت لأنك فقط أحببت، لا سبب و لا منطق يمكن أن يفسر الحب، و من المستحيل تطبيق قواعد المنطق على أمر لا يمت إليه بصلة، أيقن و سلم أن حبه لها أكثر ما يفرقهما فرضي أن يبقى على حدود عالمها المضطرب.

- أنا بس لما شفتك شكلك قلقني.

أوليته ظهرها منصرفة و هي تتمتم :

- أبوس إيدك، أنا مش ناقصاك يا شيخنا.

و انطلقت صوب الباب، أوقفت تاكسي و تفحصت السائق كعادتها، فتحت الباب الخلفي و ركبت:

- شارع مصدق، الدقي، يا أسطى.

(7)

يوسف الراوي

ليال الشتاء الحزينة، تردني إلى أيامي المهدرة كماء يتسرب إلى قاع قارب مثقوب و يزيد ثقله حتى يغرقه، مرت أيام الغيبوبة و المشفى و عم مصطفى و حكايات البحر الساحرة، العم مصطفى شملني برعاية واهتمام أكثر بعد وعكتي الصحية التي زادت من عزلتي أكثر فأكثر، و إن كان دائمًا يذكرني بأنني الوحيد من يستطيع أن يساعدني لاتلتمس طريق الخلاص لدى غيرك، أنت العدو الوحيد و المخلص الوحيد لنفسك يا يوسف.

محاسبتي لذاتي اشتدت لدرجة جلد الذات، هل أخطأت؟ بالطبع إن أردت الخلاص يجب أن أصدق نفسي القول لو مرة و أن أعترف بما اقترفته مع الجميع و في حق نفسي، و ألا ألقي باللوم على الظروف و قسوة القدر العاتي؛ فأنا من اخترت و إن كانت اختياراتي خاطئة حمقاء متعجلة فهذه مسئوليتي الشخصية «لمَ أعطيتني حرية الاختيار يا الهي؟!» الحماقه أعيت من يداويها، أنا الأحمق و أنا من يداويها. كل ما أحتاجه هو قرار، قرار بترميم سفني المحترقة منذ ثلاث سنوات، قرار شجاع بعبور الممر الذي تركته خلفي. ظللت ليومين أزور البحر، أشاركه ما يعترك في صدري، ألتمس منه قرار، أتبادل معه قصص الزمن الفائت وأقلب صور الأشخاص و الأحداث، أيامي تعبر كشريط سينمائي أمام عيني، هل اقتربت من الموت إليهذه الدرجة؟! يقول المتبصرون إن تجربة الغيبوبة أقرب إلى الموت خلالها ينشط جزء من المخ ليفرز مادة غامضة من الجسم الصنوبري تعمل كعامل مساعد يحمل الروح لتعبر البوابة إلى العالم الآخر بتعبير آخر مخدر لتقبل الموت، تجربة الغيبوبة السبب أم البحر؟

تاريخي أتلمسه حثيثًا لأجد الكبرياء القاسم المشترك، العند الذي هو أبــــو الكفر، هذا ما أدى بي إليهنا معتصمًا بهذا الركن المظلم من الكون بلا روح، أمي و أبي، المصحة، نور، أتذكر و أتنهد بحرقة، أنهيت سيجارتي العاشـــــرة وقد لمع القرار في رأســــي كعمود إنارة مهمل استيقظ فجأة في عتمة روحي.

(8)

داليا جلال حجازي

شـــقة متواضعة تتراقص ظلال الضوء على حوائطها المكســـوة بورق حائط قديم، صوت محمد عبدالوهاب يصدح من مذياع في أحد الاركان.

داليا و أحمد يجلســـان على الأريكـــة الخضراء هي تبكي بحرقة و هو منهمك في لف سيجارة حشيش من النوع المتداول، أمامهما طاولة خشبية مكدسة بزجاجات البيرة الفارغة و منفضة سجائر تفيض بالأعقاب بنية اللون المحترقة، قصّت عليـــه ما حدث منذ أن قابلت ماهر حتى أتت إليه باكية، رد بلسان ثقيل:

- ولا يهمك. . عادي، فكك منه، انتفضت صارخة.
- إزاي عـــادي، أمن الدولة هيجيبوني لو ماعملتش اللي عايزه مني ابن الكلب، اقترب منها ووضع يده على فخذها:
- ما تشـــليش هم، هنفكر في حل، و لو على حوارنا نكتب ورقتين عريفي و نبقى في السليم.

شعرت أنها تغرق، تساهله أصابها باليأس، سيلتهمونها حية، و غضبهم نذل لا يملك ذرة رحمة.

- يعني استسلم لهم و اتجسس على الناس بتاعتنا ! أبلعها إزاي دي؟!

انســـال صوت «عبدالوهاب» الرخيم يتبختر برقة فتحركت يد أحمد تتلمس الطريق تحت قميصها .

«جفنه علم الغزل، و من العلم ما قتل».. ..

- عادي، كونـــي عميل مزدوج، فهميه إنك موافقة و تعطيه معلومات

نتفـــق عليها يكون فيها حاجات صح تثبت لهم ولائك، و مش يمكن كـــده وضع مفيد لقضيتنا مع الزبانية دول و نخلص منهم أســـرع، اقترب أكثر و التصق بها، «فحرقنا نفوسنا، في جحيم من القبل». . . .

– سيبيها على أنا هاظبطك..

استســـلمت لحلـــه لترتاح من هـــذا الحمل المضني الـــذي أثقلها، و استســـلمت لســـخونة قبلاته التي تمتص رحيقها،

وجدت نفســـها معه لا لتقـــارب الأفكار أو الانتماءات السياســـية بل لتناغمهما الجنسي المتطابق، جمعهما الجنس و وحد بينهما لترى أن الحب و المال و السلطة و السياسة و الدين أمور تفرق البشر و لا تقرب، الجنس أول الغرائز و أقواها و أعمقها في الوعي البشري؛ حق الإنسان في الوجود تمارسه الآن بكل شـــفافية، حق التفكير و الانعتاق و التجرد و الانتشاء، الآن رُدوا إليها، نزع ملابسها بكل سلاسة متتبعًا خارطة هذا الجسد التي يحفظها عن ظهر قلب، تشتعل النار المقدسة لتزكي الشعور القديم قِدَم الخليقة فيعلن ولادة رجفات و ارتعاشات و تدفق و امتزاج جسدان تجسد فيهما الكون كله، الكمال ينبعث، الانفجار الأول الذي شـــكل المجرة..

«ونشدنا ولم نزل، حلم الحب و الشباب حلم الزهر و الندي، حلم اللهو و الشراب»..

كانـــا اثنـــين وثالثهما «عبدالوهـــاب».. . كم تزيدنا اشـــتعالًا يا موســـيقار الأجيال المنفية!!

طوقت ظهره بساقيها لتدفعه أكثر داخلها، و تتأوه من اللذة..

«هاتها، ها ها هاتيها، من يد الرضا جرعة تبعث الجنون»

وصلت إلى الذروة مرارًا و تكرارًا كمن هوى من السماء و صعد ليهوي من جديد، و تدفق ماؤه ليروي أرضها برحيق الخصوبة والحياة.

«كيف يشكو من الظمأ، من له هذه العيون؟!!». ..

(9)

نورالهدى فريد عبدالعظيم

الطفلة الملائكية كبرت لتصير امرأة ملائكية، ابنة السابعة صارت على مشارف السابعة عشرة، مكتملة الأنوثة تنتزع التنهدات من الجميع، قادرة على أن تجعل قاعة صاخبة بالبشر تكتم أنفاسها إجلالا حينما تدخلها.

عشر سنوات مرت و المايسترو يتعاظم إيمانه بها ويطّرد يومًا بعد يوم، يرى فيها تجسيدًا لأمانيه الدفينة لأن يكون له ابن من صلبه يحمله الأمانة التي عُرِضت على القطيع و العامة فأبوّا أن يحملوها، الموسيقى!!

أن يصنع معجزة موسيقية ساحرة في زمن اختفى منه السحر و الموسيقى و الإعجاز.

نور بوتقة أمانيه و خلاصة صراعاته و أحلامه المجهضة، علمها كل شئ و سقاها أسرار الصنعة «الفن»، ساعده تفوقها و تميزها إلى أقصى الحدود. وضع لها نظامًا صارمًا يليق بالمايسترو جميل، نظام يصل إلى درجة الهوس بكل تفصيلة صغيرة مهملة، هي ذاتها صارت مدمنة تفاصيل، و هذا أصاب فريد عبدالعظيم بالإرهاق المعنوي، أرقّه ألا يكون له لمسة ملحوظة في تنشئة وحيدته، فتكونت بداخله هوة عميقة بين جبلين حكمت العلاقة بينهما. أحب و مدح التزامها و تفانيها و تفوقها و بالتالي أقر بالعرفان للرجل الذي لولاه ما كان أن تكون بهذا الرقي في الذوق و المعرفة؛ لكنه باحتجاج أخرس أعلن عن غيرته من المايسترو الذي صار لها أبا فعليا لا بيولوجيًا. المايسترو سيد التفاصيل، اهتم بكل شئ، كان يصحبها إلى أفخم المكتبات ليختار لها ما تقرأه من شتى فروع المعرفة، وعندما تبدي ضجرها كانت حجته البينة « الفنان يجب أن

يكون ذو ثقافة موسوعية لا أن يكتفي بفنه «موسيقاه» فقط، بل يجب أن ينهل من كل أنواع الآداب و العلوم و السياسة و التاريخ و علوم الاجتماع و الفلســفة ليصبح عقله كخلفية بانورامية يستقي منها موسيقاه.

كانت نور تشــعر برهاب الزحام، أن تعزف أمام مائة شــخص أسوأ كوابيســها، فتضطرب و تنسى اللحن، حاول معها العديد من زملائها و كذا العازفين الكبار الأكثر تمرسًا و لكنهم جميعًا باءوا بفشل محبط.

يومًا طلبها المايسترو فأتت إليه في مكتبه:

- العبي الآن أية مقطوعة !

أمســكت القوس والكمــان و بدأت تفيض باللحن، أوقفها المايســترو بإشارة من يده:

- ما انتِ عظيمة أهوه، أمال خايفة من إيه؟ تلعثمت و هي تجيب:
- اللحن بيهرب من راسي لمّا بأركز في وجوه الجمهور..

نهض جميل و اقترب منها بتؤدة و نظر إلى عينيها بتمعن خبير.

- أنــا عندي فكرة، ارسمي دائرة وهمية حولك و اعتبري إنك بتعزفي لوحدك، انتِ عندك أول حفل «صولو» مع الأوركســترا أول الشهر و دي اللحظة اللي كنا أنا و انتِ منتظرينها من عشــر سنين يا نور.. ربت على كتفها بحنو فابتســمت كما اعتــادت في حضوره و دبّ الاطمئنان في جنبات روحها كما شعرت للمرة الأولى عندما مّد يده ليحملها في المسرح و هي طفلة،
- أنا هاحاول، و إن شاء الله هننجح..

الأول مــن نوفمبر امتــلأت القاعــة بنوعيات الحضــور المختلفة، المتخصصون و الهــواة و أصحاب الدعوات المجانية في آخر القاعة، جلس فريد لأول مرة في المقاعد الأولى المواجهة للمســرح الدرجة الممتازة، ملأه الفخر و لســان حاله يقول: «انظروا إلى مكانتي أيها الموظفون البائسون،

ابنتي هي نجمة الحفل» و طفق يبتســـم كالمجذوب و يعدل من جلسته كل لحظة، ألقى نظرة على الورقة الملونة التي كُتب بها برنامج الحفل و ترتيـــب المقطوعات المعزوفة و اسمائها،

انخفض الضوء بالقاعة تدريجيًـــا، و تحولت الأحاديث المتداولة إليه مهمات و فُتِح الســـتار ليدخل العازفون و المايسترو و نور.

انتهى تصفيق الترحيب و تراص العازفون كل في مكانه ينتظر إشارة البدء من كف المايســـترو الذي توسط المســـرح مواجهًا للفرقة و موليًا ظهره إلى الجمهور، على يســـاره الذي هو يمين المسرح وقفت نور ممسكة بالكمان و القوس، يضرب المايسترو بعصاه حامل النوتة فينتصب العازفون ترقبًا، ألقى فريد نظرة أخرى على الورقة الملونة، كانت أولى المقطوعات التي ســـتعزف الآن و بطلتها ابنته «كونشيرتو الفايولين و الأوركسترا لفيلكس منديلســـون»، تســـاءل فريد ما معني كلمات ككونشـــيرتو و فايولين من الأصل؟!!

و تابع القراءة «الحركة الأولى، أليجرو مولتو اباشـــيوناتو» و بالطبع لم يكن لديه أيـــة فكرة عما تعني تلك المصطلحـــات **appassinonato molto allegro**.

كان انطلاقة نور، اختار المايسترو جميل هذه المقطوعة بعناية بالغة لما فيها من تقنيات تطلق عنان العازف الصوليست منذ الوهلة الأولى بلا مقدمات الأوركسترا مما يخطف آذان المستمع.

أشار المايســـترو إلى نور بأطراف أصابعه يسألها عن جاهزيتها، فهزت رأســـها بتوتر و أخذت نفسًا عميقًا محاولة أن تتمالك أعصابها و نقص الأوكسجين في رئتيها، القشعريرة الثلجية زاحفة على عمودها الفقاري خوفًا من الحشـــد الكبير. مدت القوس على امتداد يدها و بدأت في رسم دائرة وهمية، بدا التعجب على وجوه الجميع، الجمهور و الفرقة و والدها حتى عامل الإضاءة المسن.

نظرت إلى المايسترو معلنة استعدادها، فأعطى إشارة البدء للأوركسترا

allegro molto appassinonato.

حركة ذات إيقاع سريع مليء بالشغف، انتهت نور من العزف، وانفجرت الأيدي بالتصفيق ووقف الحضور تحية للشابة المعجزة ليخرقوا قواعد الاستماع الراسخة بأن لايكون هنالك تحية إلا بعد انتهاء المقطوعة كاملة.

بكى فريد لأول مرة بحياته، ولج عالم ما وراء الأرقام للمرة الأولى، بسمة نصر تعلو شفاه المايسترو والعازفون يواصلون قرع آلاتهم انحناء لتلك الفتاة.

عامل الإضاءة المسن سقطت سيجارته من فمه المرتعش وانتابته انتفاضة مشاعر لم يختبرها من قبل.

allegro molto appassinonato.

حركة سريعة متفجرة بلمسة ملائكية، تُوجت نور ابنة السابعة عشرة «مشروع عمر المايسترو» من عظماء العازفين، انحنت كثيرًا للجمهور و ترنحت و استقامت و بكت من روعة رد الفعل.

تذكرت كلمات المايسترو بأن الموسيقى مشاعر خفية وُضعت كتابةً و عُزفت لتسير كأمواج الراديو يستقبلها المستمع كمذياع لتصله ترجمة مشاعر الفنان صاحب المعزوفة.

انتصرت نور و نالت ما تستحقه و لن تخشى شيئًا بعد ذلك، لامكان للفوبيا بحياتها، المايسترو ذاته بُهر من مستوى أدائها، كان يخشى من نقص تجاربها و هي ربيبته، و لكن مع أول نوتة تأكد أن نور خُلقت فريدة، تستحضر أحلامًا من أماكن غابرة من عالم ما وراء العالم.

***

(10)

سطور من مذكرات يوسف الراوي

عدت إلى عم مصطفى، استقبلني كمن يعلم مسبقًا ما بخلدي.

- قررت أخيرا يا جو !!
- أي نعم كل ما بداخلي واضح الآن أمام عينيه.

عانقني بأبوية و قال:

- يلّا بينا، خلينا نشوف لك تذكرة. .

«لم تحاول أن تناقشني أو تزحم عقلي بأسئلة جديدة تدور بي في متاهة من الكوابيس، أنت بالفعل بطلي الخاص»..

انتظر الطائرة أمام البوابة، أشـــعر بخوف و استمتاع، سألاقي روحي أخيرًا التي خلفتها ورائي بالقاهرة، جســـدي معي و روحي هناك..

أعطاني العم مصطفى مظروفًا مغلقًا به مبلغ مالٍ و عنوان أســـرته بالأسكندرية..

هاتفي نفد شحنه، «لا شئ يعمل كما ينبغي في هذا العالم»، و القابض على النار يحرق بها وحيدًا..

الحركة الثانية

Adagio

لحن رومانسي يثير الأشجان

(1)

يوسف الراوي

حمد الله على سلامة الوصول، قالها أحد طاقم الطائرة في مايكروفون داخلي لأستفيق من جمودي، يا ليتني سافرت نهارًا فكرة الطيران ليلاً لم تكن تناسبني، الركاب يغطون في نوم ثقيل و كل ما أردته أن أتطلع إلى السماء عبر الكوة الدائرية بجانبي، النوم في أية وسيلة مواصلات سيظل بالنسبة لي أسطورة و أتعجب دومًا من قدرة من حولي على النوم بسلاسة تستدعي حقدي. استغرق عقلي في حسابات الزمن و المسافة طوال الرحلة و عفت معدتي الطعام و تشنجت أعصابي المستثارة مما هو قادم، ما تركته خلفي منذ ثلاث سنوات عجاف و لكن الراحة و الرضا من قراري بالسفر كانت واعدة.

لقد دفعت ضريبة الحُمق المتتالي و حق عليَّ التطهر من عذاباتي، هكذا حدثت نفسي و حان وقت العمل و لكن في أي اتجاه ابدأ؟ أبي، أمي العائلة المصونة.

السبب الأول و محرك كل شئ، الحافز الفعال كما يكتبون في معادلات الكيمياء، لو أن حياتي معادلة كيميائية ستكون كالتالي:

عائلة مشوشة + إدمان «نور» = تغريبة. .

نور العامل الحفاز الذي أشعل معادلة عائلتي و جنوني.

عائلتي و ما أدراك ما عائلتي؟ العائلة أول ما يفرض على الإنسان عند استقباله هذا العالم الدنيء، ويليه الاسم الذي هو مفروض من قبل العائلة التي لم تخترها منذ البدء، مفروض فُرِض من مفروض، فتكون توقعات الحياة جلية..

أبي كامل الراوي أمي شاهيناز هانم دويدار كما تحب أن تلصق لقب هانم باسمها، أبي هو أمبراطور صناعة الأسمنت و العضو البارز في لجنة السياسات بالحزب الوطني، و هي أمي سيدة الأعمال التي لا أول لها ولا آخر، و أهم وجوه المجتمع المخملي المحسن بأطنان «البوتوكس»، كنت أنا و أخي شريف نتاج هذه الزيجة الغريبة بين الزوج الذي تعود أصوله لخلفية فقيرة؛ عائلة تعمل بالبناء والتشييد ربما منذ بناء هرم زوسر المدرج، عائلة متواضعة تعيش على الكفاف حتى بزغ نجم كامل الراوي في واخر السبعينات بدون مقدمات معلومة.

شركة توريد و مقاولات و من ثم شبكة علاقات بالكبار و زواجه من ابنة الأكابر ابنة عائلة دويدار سليلة البكوات و الباشاوات منذ أيام المماليك البحرية، رأس المال يقترن بالتاريخ و الاسم. هذا يعوض ما فقده و تلك تكمل ما افتقدته.

أرى السؤال ملتمعًا في عينيك ما الذي يفعله ابن الأكابر في الخليج؟ فأمثالي يكفيهم تغير السيارة أو السفر كلما شعروا بالملل، و لكن!! الإجابة قصة أخرى.

أن تكون ابن كامل الراوي هذه نقرة، و أن تكون يوسف الراوي تلك نقرة أخرى، استرجاع الضائع في خزانة اللاوعي شئ صعب و مهلك، ولكن الخلاص يأتي من حرق أحمال قديمة.

نعم، كنت كل ما تتخيل، الابن الأصغر المدلل آخر عنقود الجنون، أهذا يناسب قناعتك المعلبة؟ حسنا!!

قصور و أموال و سيارات ومنتجعات و حفلات في أفخم الأندية و سفريات حول العالم، أظن هذا أيضًا يداعب الصورة الكارتونية الطبقية عندك، حسنا!! لكن الحقيقة أسوأ بكثير.

إن كانت تخيلاتك المسبقة ستقود دفة الحوار فلا داعي للحكي، إن أردت الحقيقة، فقط انصت وجمد قناعاتك قليلًا.

الطائرة تهتز جراء خروج عجلات الهبوط و المضيفة الحسناء تفتش بروتينية عمن أغفل غلق حزام الأمان و تميل على جارتي لتساعدها في غلق الحزام فاختلس نظرة تفقدية على مؤخرتها و ساقيها اللامعتين، اللحم البشري أعظم سلعة في العالم منذ عصر الكهف البدائي مرورا بعصور الجواري و النخاسة، وانتهاءً بإعلانات الترويج و مضيفات الجو و البحر و الأرض، اللحم الذي لا يقاوم. .

– كل يا يوسف !!

أتذكر صوت أمي العنيف على مائدتنا و هي تأمرني بالأكل؛ فطفل نحيف تهمة تطارد ابنة الحسب في أوساط المجتمع الراقي و حديقة نادي الصيد.

– أأنتِ لا تطعمين ابنك يا شاهيناز التهمة الماثلة بين حروف السؤال.

أمضغ اللحم بقرف و تململ و أخي الاكبر فخر صناعة الراوي يأكل بنهم تحفزه نظرات الرضا المسكوبة من عيني أمي، شريف الأفضل، الأفضل صحة، الأفضل استذكارًا، الأفضل في مطاردة الذباب في الحديقة.

أبي كان أقل رقة معنا من أمي، صامت في الدقائق التي تجمعنا معًا على طاولة الطعام الفيكتورية، الرجل الذي أحب ركوب الطاحونة منذ الأزل، المصنع، لجنة السياسات، سهرات رجال الأعمال، الغرفة التجارية و مساء السهرات السرية في شبرا الشعبية ليرتد إلى جذوره المنسية راكبًا بساط الريح بواسطة الجني الأزرق المدعو حشيش.

كبرنا أنا و شريف شبه مهملين، أفخم المدارس و أرقى النوادي و أغلى الملابس و أفضل العطلات،

لم ينقصنا سوى شئ بسيط، أب و أم.

تعلمت أن أعتني بنفسي صغيرًا و أخي تعود الاعتناء بنا نحن الاثنين. . كان أكثر حيوية و اندفاعًا. كبرنا و ظللت أنا المنطوي و هو المتفاعل المشتبك دائمًا مع الحياة، لم يكن لي أصحاب إلا شريف و أصحابه كنت

ظلــه في كل مــكان، وإن أحببت الانعزال في غرفتي ناثــرًا الألوان على لوحاتي الهائمة.

كابن لكامل الراوي كنت مخيبًا للآمال، بعد الثانوية العامة قررت أن التحق بكلية الفنون الجميلة، لكن الأب دافع عن حقه الأبدي و طالب به.

– كلية الهندسة، مجموعك كبير يا يوسف. لن نضيع مجهود سنين من أجل سراب أحلام مراهق يظن نفسه «مايكل أنجلو». .

أجيبه كرد فعل سمكة تقاوم الاختناق على رمال شاطئ ملتهبة

– ما شريف دخل الهندسة!!، هل يلزمك اثنين مهندسين؟

فينظر لي من فوق إطار عويناته المخصصة للقراءة.

– نعم لازم، لو لم تعجبك رغبتي الباب يفوت دبابة، تنسانا و ننساك!!

لم أحتمل الضغط كعادتي عند كل مواجهة مع المارد صاحب الألف يد كامل الراوي. . ابن ســوق قرارى، يعلم جيدًا ما في حوزته من أوراق، في الحزب يظهر ورقة التابع الأعمى المتفاني، في أوســاط رجال الأعمال ورقة الكلمــة و ألعاب الحواة، في البيت ورقة اليــد العليا المنفقة و ورقة التجاهل.

كامل الراوي بئر الأســرار، لا أحد يعلم عنه شيئًا غير أساطير، حتى أمي لم يطفىء فضولها بإجابات عن بداياته، فتناســت و تعايشت ما دام نهر الأموال جاريًا لتؤسس عملها الخاص رغبة منها في تحقيق اكتفاء ذاتي تأمن به غدر الراوي، لم تحببه يوما و لم يحبها، حتى قوانين العشرة الراسخة لم تقرب بينهما، تحملا الســنوات من منطلق المصلحة العليا، ابنة الأكابر التي فقدت أســرتها العريقة الثروة و البريق، لترتبط بأول عريس يرد لها لمعان المجد المنكســر على صخور الحاجة. و ابن السبتية المغمور بعــد ظهور بوادر النعماء عليه بحث عن أســرة لها أصل تعطيه الاســم الذي يقوى به، فوفق أولاد «النخاس» الرأسين في الصفقة، و بعد ليلة عرس في أكبر فنادق القاهرة عاد كلاهما راضٍ بما قُســم له.

أسطورة الراوي غامضة أقرب إلى الحكايات الخرافية. . .

مواليد كوبري اللمون بحي السبتية، ابن عامل البناء الذي استطاع أن يختطف ركنًا في السوق ليفتتح محلاً لأدوات البناء و الحدادة، كبر الابن الذي فشل في الدراسة و التحق بجبر الخواطر بآخر عربات الجامعة المسمى بمعهد التطبيقيين.

ثماني سنوات لم ينجح مرة، علم قدراته فاتجه إلى التجارة صغيرًا، بدأ بمحل أبيه انطلاقًا إلى الشارع المتلاطم، باع أي شئ تتخيله، بطاريات الراديو أمشاط الشعر مواد البناء إلى قطع غيار السيارات المستعملة حتى أتت لحظته التاريخية عندما قابل ولي نعمته أحمد نوح صاحب محلات البقالة المشهورة و نوح لقطع الغيار اليابانية. و نوح للسفريات، قابله في إحدى جلسات المزاج و حول الدخان الراقص أحبه نوح و مع الوقت أعطاه أمام إلحاحه أعمالاً صغيرة على سبيل التجربة فأثبت صلابة و شطارة، يومًا طلب نوح منه أن يكون المسئول عن مكتب السفريات، و قام كامل بالمهمة على أكمل وجه، بكل قدرة و عنفوان ليدشن في أواخر السبعينات مواكبًا انفتاح «السادات» سوقًا سوداء جديدة لتأشيرات الحج و العمرة التي أصبحت سياحية خمسة نجوم، و أبدع فأطلق أول شبكة بيع إقامات عمل لبلاد النفط التي بدت تلوح في جغرافية الحلم المصري للثراء السريع. أطلق مندوبيه ككلاب صيد مدربة في قرى الصعيد و الدلتا يوسوسون الأحلام إلى بسطاء الفلاحين و عمال الترحيلات، وصلت التأشيرة إلى خمسة آلاف جنيه ليبيع الفلاحون أراضيهم فتبور فيما بعد ليحتشدوا في أتوبيسات تلقيهم إلى المجهول، مفرخة آدمية، كبائع أحلام استحق مالًا وفيرًا، هو لم تشغل باله أية معضلة أخلاقية أو أسئلة من نوعية ما هو مصير العمال المساكين.

إن كان كامل الراوي علميًا يساوي صفر لكنه كتاجر لا يشق له غبار، رجل مخلص بل مبدع للفلسفة النفعية، «إن كل ما يحقق السعادة و المال مسموح به» و لا وجود لما هو أخلاقي أو لا أخلاقي في قاموسه،

التجارة فقط غاية تبرر كل وســـيلة مادامـــت تقدم على طبق ذهبي من الإقناع، المجد للنصابين أصحاب المبـــاديء، نصاب له مبدأ هكذا ما قيل على ألسنة المحيطين به و فسره هو لدائرته و نوح بأنها غيرة سوداء تنهش قلوبًا لا تفقه معنى الحمد. .

في غضون عامين أســـس شـــركته الخاصة للمقـــاولات و التي زامن تأسيســـها إصابة أحمد نوح بشـــلل جرّاء صدمة عصبية مجهولة المصدر أودت به طريح الفراش في غرفة ٨١ بمستشـــفى السلام حتى واتته المنية، و لم يُعـــوّده تلميذه ولا حتى مرة، لتتناقل الألســـنة أن ســـبب موت نوح الرئيسي حســـرته على أمواله الضائعة التي استولى عليها الراوي بتزوير عقود بيع و برعاية أحد كبار أعضاء مجلس الشعب الذي صار له شريكًا من الباطن، يوســـف جبر ســـبب لمعان الراوي و صاروخ انطلاقه إلى عالم فضاء السلطة، و مقترح الزيجة الميمونة التي كنت أنا و أخي نتاجها، أبي أسماني تيمُنًا و نفاقًا لدرعه الواقي يوســـف جبر، كرهت اسمي عندما علمت السبب، «مفروض فـُــرِض من مفروض».

— الرجاء البقاء في مقاعدكم. .

نـــداء قائد الطائـــرة الأخير أيقظني من ســـيل الذكريات المتحللة كجثـــث عبيد آبقين.

أنتبه و أحل حزام الأمان و أنتظم في ممر الخروج إلى باب الطائرة.

تشـــيعني ابتسامة تعبة من شـــفاه المضيفة صاحبة السيقان البلورية فابتســـم لها، أخطو خارج الطائرة فيصدمني هواء ليـــل القاهرة البارد، تصيبني قشـــعريرة فانتشي، أنا حي، و المهمة الجسيمة أمامي، كراكيب عقلـــي يجـــب أن تُلقى لأجد مســـاحة للتنفس، تخلص يا يوســـف من بضاعتك الراكدة في لاوعيك المغبر، انزل الســـلم و عبأ رئتيك بهواء الليل المريب ليعود لي يوســـف الذي خلفته ورائي. .

(2)

نور الهدى فريد عبد العظيم

قطبت نور حاجبيها معترضة على صوت عاصم المُلح القادم من خارج الغرفة يأمرها أن تنجز، انتزعها من ماضيها الجاري أمام عينيها النابض في مرآتها الفضية، أنهت رتوش المكياج بحنكة و حملت حقيبتها و أخيرا تأكدت من قلادتها الذهبية التي على شـــكل خرطوش يحمل حروف اسم يوسف بالهير وغلفية، تنهدت ثم تحركت إلى الخارج بخطوات محكوم عليه بالموت.

كان عاصم جبر يقف وسط الردهة ينتفض من التوتر. .

— الهانم هل تحتاج قرنًا لارتداء ملابسها، سوف نتأخر!!

سبقته إلى الباب و هي ترد بموات « طيب ».

دلفا إلى المصعد، انشغل عاصم بتعديل ربطة عنقه الحريرية و منديل الجيب الحريري، الحلة الســـوداء ذات الســـعر الخيالي، أطرقت نور إلى الأرض بانكسار تُكابد العنكبوت السام الذي يعتصر روحها ليشكل بيوتًا من خيوط ترابية خانقة، رزحت تحت ثقل من السخافة تغزو نطاقها الحيوي قادمةً من اتجاه عاصم، زوجها مفاعل الســـخافة و التكبر و التعالي، هي لم تُصدم فيه بعد الزواج، بل إحقاقًا للحق عرفت من أول وهلة عيوبه التي تليق بشيطان رجيم لا مجرد زلاتٍ لبشر. . كان اختيارها العقلي هو ما دفعها في اتجاهه هربًا من مصيرٍ خشـــيته، الضياع في أمواج عالم يوسف المتلاطمة، فلم يلزم جبنها وقت لتعلم مغبة القرار. .

الســـؤال الكوني يقرعها ليل نهار: ماذا كان ســـيحدث لو ظلت مع يوسف؟

بمفترق الطرق يُختبر الإنسان عند لحظة ما في حياته، الأسطورة المتداولة بين السود في أمريكا، أسطورة مفترق الطريق، عند كل مفترق طريق ينتظر الشيطان يسعى لعقد صفقة ممهورة بالدم مع صاحب الحظ العاثر، فكان مفترق طريقها مشابه و شيطانها هو عاصم جبر ابن يوسف جبر رجل الحكومة و الحزب الحديدي أحد محركي الدمى المجدِّين في بلاط السلطة. عقدت الصفقة لتتخلى عن يوسف و الكمان للأبد، و آل بها المآل وحيدة مهجورة في شقتها بأرقى أحياء باريس قلب فرنسا النابض.

جذبها عاصم من ذراعها بعنجهية تليق بأمين شرطة و هو يحثها على السير، دفعها و هي تبكي بلا صوت أو دموع..

- أين أنت يا مايسترو؟

سبقها عاصم بخطوات إلى باب السيارة «الأودي» السوداء، ففتح له السائق الباب ليدخل و ينظر إلى ساعته بملل، اقتربت بمشية متلعثمة، سكين بارد داخلها يذهب و يجئ، دخلت السيارة فتسلل إلى أنفها رائحة جلد المقاعد البراق، كل شئ في حياة عاصم لامع و براق وهي جزء من هذا البريق أرادها منذ الوهلة الأولى عندما رآها مع يوسف في الحفل.

كان يحتقر يوسف و يشعر أنه لا يليق بالنعمة التي ورثها من أبيه، لكن الحظ «ابن كلب يعقر اللص في المولد»، لتزيد حسرته عندما رآهما معًا:

- هذا الولد لا يمكن أن يُشبِع فرسة جامحة أبدا، أنا من يجب أن يقتنيها !!

محاولات منه معها انتهت بأن صفعته فأطلقت مارد الانتقام من محبسه، عاصم جبر ورث كل شئ من جينات أبيه، ابن أبيه و ابن زمنه حقا، لكنه تفرد بقسوة تكفي قبيلة من آكلي لحوم البشر.

يومًا أتت إليه طالبة الغفران و أن يعطيها فرصة ليتعارفا و قد كان، تزوجها ليكسرها و يكسر يوسف.

- العشــاء مهم جدًا، سيترتب عليه أن أوقع عقود شراكة مع الألمان، و أيضًا الســفير المصري هيكون موجود و دبلوماسيين و زوجاتهم، هزت رأســها متفهمة و لم تعقب، انطلقت السيارة تتهادى في شوارع باريس التي يبدو للناظر أنها غسلت بالصابون صباحًا، لم تحب باريس يومًا منذ أن انتقلت إليها، من الممكن بســبب ظروف الانتقال نفســه، لو كانــت في زمن آخر مع شــخص آخر لربما كانت عشــقتها، و إن كانت كما هي لا زالت تملك موسيقاها، لم تقع في غرام باريس، و كيف يغرم إنسان بمكان منفاه الإجباري ؟!

توقفت الســيارة أمام مطعم باريســي فخم فهرع عامل المطعم ليفتح باب الســيارة ليســتقبل الضيفين المميزين، دخلا إلى قاعة فسيحة ذات إضــاءة هادئة مركزة تترك حرية للظلال، اســتقبلهما مندوب الحجز بأرســتقراطية عتيدة لينضما إلى طاولة محتشــدة بعلية القوم.

- بونسوار، عاصم جبر آسف على التأخير هذه زوجتي نور.

عقب الترحيبــات الميكانيكية قُدمت الأطباق و المشــروبات و فُتحت زجاجــات النبيذ «البوردوكســي» الفاخر و تهافت النُــدَّال على خدمة الطاولة ذات النجوم العشــر، صب النادل النبيذ لعاصم بكأســه و اتبعه لصــب كأس نور، فقال عاصم بكبره الاســتعماري:

- لا السيدة لا تشرب.

فهز النادل رأســه متأدبًا، لتســحب نور الزجاجة بعناد طفولي من يده لتصب ملء كأســها، ثم أشارت إليه أن يبتعد، نظر لها عاصم شذرًا بطرف عينه لم يكن يعنيه أن تشــرب أم لا!! و لكن استهجن تصرفها غير اللائق في حضرة أســياده، خشي أن يترك الموقف انطباعًا سلبيًا داخلهم، ابتســم ببروده المعهــود و تابع حديثه مع الألماني. عبّــت نور من النبيذ و ظلت تشــرب و تشــرب، أرادت مفتاحًا لعالم موازي يخرجها من نطاق هذه الســهرة الثقيلة، لم تحــب أو تتقن يومًا دور زوجــة رجل الأعمال،

فتكــورت حول ذاتهــا ككيان ممســوخ، كينونتها مُسِــخت بصمتها.

والوحــدة ، آه من الوحدة!! وحدة ســجين انفــرادي، وحدة راهب في صومعتــه، تذكرت آخر كلمات جميل لها قبل الزواج عندما ذهبت إليه تطلــب مباركته حتى ولو لفظيًا للزيجة، كان قد اعتزل العالم!! حتى الموســيقى اعتزلها و احتجب في شــقته المبهرة، المايسترو فقد الكثير من قوته و ما بقي هو عناده الذي لا يهادن، كانت آخر مرة تطأ قدماها هذا الســجاد الفارســي لتجده أمام النافذة قعيد و موسيقى الكمان تنساب من جهاز الأســطوانات العتيق الذي لم يبدلــه بكمبيوتر أو حتى جهاز تسجيل، خطواتها المترددة المهزوزة انعكاس صادق للزلزال الذي نسف عالم المايســترو المنظم، ألقت التحية و لم يرد قال و هو لا ينظر إليها:

- ما اسم المقطوعة هذه يا نور؟

بصوت واهن سألها كمن يســتعيد رائحة ماضي محبب اقتربت من الجرامافــون و أغلقته و هي تقول:

- كابريس رقم ٢٤، نيكولو باجانيني.

عقبت بتنهد محرق، أمال رأسه ليمد يد مرتعشة محاولاً الوصول إلى كوب ماء على منضدة صغيرة، حملت نــور الكوب متلهفة لتناوله إياه، شرب رشفتين و أشاح بوجهه تجاه النافذة،

- هل ستظل غاضبًا مني هكذا؟

سألت ملتاعة، أجابها بحزم:

- طلباتك يا نور. . .

ركعت عند قدميه و بصوت يائس قالت:

- رضاك، أنت أبي، طيلة عمري أنت أبي، ابتسم بحسرة و قال:

- صعب يا نور صعب، عندما أتيتِ لتخبريني بخبر زواجك المشئوم من عاصم أنا رفضت ليس لأن سمعته القذرة تســبقه، بل كان الرفض

لأنك من عالم آخـــر لا ينتمي إليه عاصم، أهنالِك ملاك يمكن أن يرتبط بشيطان؟ لا أبدًا. .

مسكين يوسف، كنت أخرق طوال خمسة عشر عاما لأظنك مختلفة، يبدو أنني أشبه من كانوا يصنعون آلهة من العجوة، انفجرت باكية، هل من الممكن أن يرق لدمعها و اليد التي حملتها صغيرة ســتلفظ القسوة، كفرها بعالمه أصابه في مقتل ليقرر أن الحياة ما عادت تستحق.

- مايســـترو، أنا ســأرحل إلى باريس غدًا، عاصم لديه مشــكلة ما مع الحكومة و قرار حبســه و التحفظ على أمواله ســيصدر قريبًا فقرر الهرب، قلت لنفســي فرصة أبتعد عن مصر، أرجوك ســامحني و لا تترك نفســك في وحدتك.

نهضت و قبلت يده و اتجهت إلى الباب فأتاها صوته:

- ربنا يوفقك، أنتِ خسارة كبيرة يا نور، كبيرة و لا تعوض،

أما الوحدة هي أساس العالم، نولد وحدنا و سوف نموت وحدنا و نُبعث وحدنــا، الوحدة هي ناموس الكون الأكبر، المشــكلة فقط تظهر عندما يفكر الإنســان في محاربة الوحدة، آدم طُرد من الجنة و هبط إلى الأرض يبحث عن حواء في كل بقعة لمحاربة الوحدة، البشــر أسســوا الجماعة و القبيلة والدولة ليقضوا على فكرة الوحدة الموحشــة، نصادق بشــرًا لا ينتمون إلينا فيزيد شعورنا بالوحدة، نتزوج و ندخل في شراكات وننجب أبناءً جاحدين و تلهينا الأماني، تتولد المأساة من المقاومة لتموت أحلامنا لأن توقعاتنا أشــبه بشــطحات دائما ما تخذلنا، ما علينا، أنا عمري لن أســتطيع أن أكرهك، فقط السكينة سارقاكِ و ستتذكرين كلماتي و أتمنى أن يكون هذا في الوقت المناسب.

- من أين أتت كلماتك يا مايسترو؟! هل مفعول النبيذ هو من قادني إلى الهذيان، نعم كنت على حق يا مايسترو، و ما أشرت إليه قد تحقق، تعالت ضحكات دبلوماســية بين عاصم و رفاقه، سحقًا للمتزلفين.

صبت لنفسها كأسًا آخر وســـع أجواء الوحدة داخلها، خطف أذنيها صوت الموسيقى التي تنســـاب من طرف القاعة، رجلان فرنسيان أحدهما أشقر في العقد الثالث يعزف على البيانو و الآخر في العقد الخامس أصلع سمين تتنافى زيادة تعرقه مع الجو و الكمان الذي يحمله؛ له ابتســـامة طفولية نقية خجلة، اخترقتها الموســـيقى فلاحَ في مخيلتها مُحيا يوسف.

– كم اشتقت إليك و إلى جنونك السرمدي؟!! بوصلة روحها أصابها الصدأ لتضل الطريق.

نهضت نور تقاوم الســـكر، لم يلتفت إليها عاصم قيد أنملة و انكب مع رفيقه الألماني في أحاديث المال والأعمال، ترنحت نور يمينًا و يسارًا و مدت يدها إلى جيب ســـترة عاصم الداخلي لتخرج حافظة نقوده السوداء ذات الجلد البراق.

– هل كان يعلم التمساح البائس ما سوف يؤول به الحال بعد موته ؟!

تطلـــع إليها عاصم بغباء، فتحت الحافظة، انتزعت الأوراق المالية ثم ألقـــت بالحافظة على الطاولة أمام عاصـــم تحركت بخطوات مخمورة تجاه العازفين، دمية تتحرك بلا اتزان، سفينة بلا دفة، اصطدام بالطاولات والمقاعد. نظرات استهجان نارية تصيبها، أخيرًا استندت على البيانو ثم بعناء وضعت الأوراق المالية بكأس مخصص للبقشـــيش فتطايرت الأوراق على سطح البيانو، ابتسم عازف البيانو ممتنًا و متأدبًا، اقتربت منه هامسة، ارتسمت على قسماته علامات التعجب لكنه انصاع فأشار إلى زميله السمين.

– السيدة تريد أن تعزف قليلا على الكمان يا جان. .

بـــدا الغباء على وجه العازف لكن أمـــام إكراميتها الجزلة و اعتياده طوال عمله بالمطاعم الراقية غرابة طباع الزبائن، تريد أن تعزف فلتعزف، امرأة سكرانة مخرفة استحوذت عليها نزوة فظنت أنها «هيلاري هان» و مع أول حركة غير منضبطة من القوس ستخجل و تهجر حلمها المخمور.

أعطاهـــا الكمان بانحناءة متأدبة، أمســـكت الكمان و القوس مقاومة

انطفاء مركــــز الاتزان في جمجمتها، نظرت إلى رواد المطعم الذين لفت انتباههم تصرفها النزق، ممنين أنفسهم بأمسية لطيفة تتخللها ضحكات ساخرة مع أول مداعبة طفولية للكمان. .

عاصم لم يلق بالاً و تجاهل أسئلة الألماني و السفير المتشوقة أن تخترق نظراتهم، أخذت نور نفسًــا عميقًا و رسمت دائــرة وهمية حولها لتفلت ضحكات من الزبائن، خاطبت العازفين بلسان ثقيل:

— «كابريس ٢٤»، «نيقولو باجانيني». .

انطلقت، لم تكن وقت العزف مخمورة أو محبطة، فقط تجردت و ذابت و اندمجت مع المقطوعة الأصعب فى تاريخ الكمان بكل حرية بكل سلاسة، فنت نور في النوتة المشــتعلة. النوتة الموســيقية التي تحمل بين طياتها كل مشاعر البشر، أشــهرت النوتة في وجه العالم، سلاحها العائد، هذه النوتة تسخر من انتفاخ بطونكم أيها المتزلفون، تلك النوتة تدهس على حُللك و أربطــة عنقك الحريرية يا عاصم، وهذه طعنة نافذة إلى قلبي المحترق من أجل أحبتي، لك يوســف و لك يا مايسترو، و لك يا أبي يا من انفطر بكاءً من مقعد الصف الأول المميز.

نقرت و حركت قوســها بسلاسة مدهشــة و انثنى و استقام جسدها مع كل سحبة وتر، فغر الجميع أفواههم و توقفت أصوات الطعام وأدوات المائــدة و أحاديث التملق، كأن على رؤوســهم الطــير، العمال والنُدَّال خرجوا من المطبخ و المشرب تكدسوا يســتمعون بشغف، العازفان تهاوى عالمهمــا تمامًا، شــيطان الكمان مؤلف المقطوعة هنــأ في رقدته الأبدية راضيًا قرير العين، أخيرًا أتى بعد قرون من عزف مقطوعته كما ينبغي.

انتهت نور من المقطوعة، وســط سكون تام تملك المكان حتى خرجت أول كلمة « برافــو» صارخة والهة، لتصخب القاعــة بتصفيق ملتهب، الألماني و الســفير، عاصم اضطرب، ارتعد من أن يكون تصرف زوجته غير المسئول مسمارًا في نعش أحلامه لكن رد فعل صاحباه جعله يحييها بوجل

متتبعًا وجه السفير و الألماني بطرف عينه مبتلعًا فقده ألف يورو.

اقترب عازف الكمان لاهثا متعرقًا فقبل يد نور مشعًا ابتسامة:

- أحسنتِ سيدتي، أحسنتِ ، ردت الكمان ممتنة. .

عادت منتشية إلى طاولتها وسط تحيات تقدير تنصب عليها من الزبائن. .

قال الألماني :

- جدًا سيدتي، كم أنتِ محترفة.

عقب عاصم بسرعة صياد محنك:

- زوجتي كانت قبل زواجنا عازفة الكمان الأولى بأوركسترا القاهرة السيمفوني وأيضًا معلمة بالكونسيرفتوار، ألهبته نور بنظرة متهكمة.
- كم تتكشف يومًا بعد يوم يا عاصم، في لحظة براجماتية اعترفت بمكانتي لأن هذا الرجل يملكَ ما تشتهي، لن أتعجب إن عرضتني عليه من أجل مصلحتك!

قال الألماني :

- سيدتي بكل سرور إن سمح وقتك الغالي، أتمنى أن تنضمي إلينا غدًا في عرض أوبرا «كارمن». .

عقبت نور:

- «كارمن» «لجورج بيزيه»، اعتادت على ذكر اسم المقطوعة و المؤلف و أحيانا رقم تصنيفها.
- بالطبع سيدي من دواعي سرورنا أجاب عاصم بلهفة جائع، قالت نور:
- هل الدعوات مجانية؟

تبسم الألماني من غرابة السؤال و قال:

- كبار الزوار، سيدتي.

انتهى العشاء و تهيأوا للمغادرة، مال عاصم على أذن السفير:

- يا ليت فخامتك لا تنسى موضوعنا، أتمنى أن تكلم «جمال بك» و تقرب وجهات النظر،

فخامتك تعلم رضاه هو المراد قال السفير بكبرياء:

- مفهوم مفهوم، لكن فقط من أجل ذكرى المرحوم والدك يوسف جبر أفضاله على كثيرة، أهم شيء أن تكون قد تعلمت الدرس، كن طيعًا تأكل عيشًا، أمَّن عاصم على كلام السفير بتذلل، كانت نور منغمسة مع الألماني و زوجته في حديث موسيقى عكس اهتمامهما وثقافتهما الواسعة، لحق بها عازف الكمان الفرنسي مهرولًا بجسمه السمين ثم استوقفها:

- سيدتي، عفوًا، اعتذر عن تطفلي، أنا أدعى جان باتيست جودار هذا رقم هاتفي. .

رجاء خاص أتوقع مكالمتك في أقرب وقت، مد يده المتعرقة بورقة عليها رقمه فتناولتها نور مبتسمة.

حملتهما السيارة السوداء، عند الوصول ترنحت حتى باب الشقة مبتعدة عن عاصم قدر الإمكان،

ارتمت منهكة على سريرها، قالت لعاصم:

- لماذا تزوجتني؟

لم يعرها أي اهتمام فقط خلع ربطة عنقه، الصمت يحمل الإجابة، لن يدعها تفسد عليه انتصاره القريب بتدمرها اليومي، فاتبعت بعند:

- السؤال خطأ، الأصح هو، سؤال منعك غرورك أن تسأله، لماذا بعد صدِّي لك مراتٍ وافقت على الارتباط ؟

نظر إليها عاصم بغضب:

- يبدو أنكِ مصممة على النكد !!

ضحكت نور بجنون و تابعت هجومها:

- أتيت لك لأني أنا من قررت هذا، يوســـف أوصلني لهذا القرار بسبب عدم قدرته على التوقف عن المخدر و هروبه المســـتمر من المصحة و أيضا بسبب موت أبي، اسودت الدنيا في عينيَّ فقررت بغباء أنك الباب الوحيـــد إلى الهرب، كنت حمقاء لأرتبط بحقير متســـلط مثلك، يوســـف المدمن أشرف و أكثر رجولة منك يا عاصم بِك.

انقض عليها عاصم و هو يرغي و يزبد:

- حسنا، أنا غير مهتم، المهم أنكِ ملكي يا نور ملكي.

بعنف بدأ في تمزيق فستانها:

- حقي الذي تمنعينني منه منذ سنة سآخذه الآن، لتري من هو الرجل الحق أنا أم ذاك المخنث!!

حاولت بضعف المســـتميت أن تدفعه عنها، خمشـــت وجهه بأظافرها لكنه كان مصممًا كالموت، الشـــيطان يطالب بروحها، حاول أن يلجها بعنف فأفرغت معدتها في وجهه.

- ما هذا القرف، اللعنة عليكِ، مجنونة.

أخذ ملابسه و هرع إلى الحمام ليغتسل و بعد قليل سمعت صوت باب الشـــقة يغلق بغضب، رحل الشيطان، انفجرت في بكاء أقرب ما يكون إلى العواء، لا بد من مخرجٍ من هذا الجحيم لا بد، تكورت على نفســـها عارية في المغطس الوردي و الَماء منساب فوقها.

- ماذا فعلتِ بنفسك يا نور؟

قامت متهالكة لترتدي رداءً قطنيًا يقطر الماء من جســـمها و شعرها، اتجهت إلى الردهة و ألقت نفسها على الأريكة، استلقت في وضع جنيني و غرقت في نوم بلا أحلام..

(3)

داليا جلال حجازي

آه من القهر الأعمى، حِمل يذل أعتى الجبال، يقهر أشجع الأبطال.

تقدمت داليا بوقع خطواتها التي تـــدب على الأرض تتأبط حقيبتها تحاول أن تستمد رابطة جأشها من صوت دقات كعب الحذاء على أرض الطرقة الرخامية المؤدية إلى مكتب ماهر الشـــربيني، اعترض مســـيرتها الصغيرة نداء إحدى الزميلات:

– داليا تعالي، انظري حملة الفيسبوك مشتعلة.

انضمت داليا إليها و بعض الصحفيين الشباب المتحلقين حول شاشة كمبيوتر، دنت من الشاشـــة تســـتطلع، وقعت عينيها على شـــعار أحمر مكتوب تحته

«انزل، ٢٥ يناير، ثورة»

و شعار آخر أكثر قوة و صـــدقًا:

«عيش، حرية، عدالة اجتماعية»

هي بحكم قربها من دوائر النشـــطاء تعلم عن هذه الدعوة التي دعت إليها قوى وطنية، ستكون كأية تظاهرة سابقة لأي فصيل معارض، هكذا خمنت و أحست و لم تتحمس كثيرًا،

– عادي لن يحدث شـــئ، كبيرها ستكون مائة شـــخص و آخر النهار الأمن المركزي ســـوف يصحبهم في نزهة.

ضحك الجميع إلا هي و علاء الســـمري ؛ تشاركا في نفس الشعور، رغم اختلاف مذهبهما كانـــت الفكرة واحدة أن لا فائدة ترجى، النظام

الحاكم مســيطر في كامل بطشه و لن يتغير إلا بتغيير عقلية المجتمع ككل.

– أظن أن الحشد على جميع الأصعدة مطلوب يا جماعة !! قالها أحد الصحفيين بحماس.

أجابه علاء بتهكم:

– كُل عيش وحياة أبوك، حشـــد !، والله إن صرخ أمين شرطة الحشد سيركض ملتاعًا.

اتفقت معه داليا فيما أسلف، اليأس عرف طريقه إلى قلبها، هذا العالم ككل يجب أن يتغير.

أسنظل ندور في هذه الحلقات السيزيفية المفرغة إلى الأبد.

– ألم يحن لهذا الشعب أن يرقى إلى أول درجات سلم الإنسانية؟

أسئلتها تتكسر على صخور الواقع. .

قال علاء بنبرته الهادئة:

– اختيار يوم عيد الشرطة غريب.

عقب أحد الصحفيين:

– مبارك قالها «خليهم يتسلوا، شكل الداخلية هي من ستتسلى يا شيخ علاء»..

لم يكن بال داليا رائقًــا لمتابعة الجدال المصري الصميم، عالمها توقف أمـــس، كوكب الأرض الخاص بها رفض الدوران، لم يخفف عنها أحمد أو حتى ليلتها الســاهدة تتطلع إلى سقف الحجرة لعله يتشقق عن حل ليجيب على معضلتها المؤرقة لضميرها، ما هو الأخلاقي أو غير الأخلاقي من الأساس؟ هل غير الأخلاقي هو من يصطدم بضميرنا الواعي و يعلن عليه حربًا لا تهدأ ليهدد ســلامنا الروحي و النفسي؟ أي مقياس عاجز يقيس الضمير؟

إن الأخـــذ بعين الاعتبار ظـــروف و إحداثيـــات وجدانية أخرى لأي فعل، ســـيتحول اللا أخلاقي إلى أخلاقي فتقبله النفس، أليس هذا فقه الضرورة؟ «الضـــرورات تبيح المحظورات»، بالقياس هي مؤمنة برســـالة الثورة و حتميتها لمقاومة نظام تجبّر، و الصراع سيحسم بالضربة القاضية لصالح الضمير و المبدأ لكن من قال إنها «جان دارك»، القديسة التي حُرقت من أجل قضية عادلة فانتصـــر الأخلاقي، هي أضعف كثيرًا، لا تملك يقين القديسين الذين لا تنازعهم رغبة تجنب المهالك، الثبات على المبدأ يا صاحب الرسالة، الآن هي تعتنق فكر المضطر تتمنى مصالحة أو هدنة بين الضمير و الفعل.

- أي مقصلة ســـتطيح بعنقك يا داليا؟! لم تحســـم أمرها و إن رفعت دفاعاتها الأخلاقية الراية البيضاء مستسلمة لقرصنة ماهر الشربيني.

استأذنت من زملائها واتجهت إلى مكتب ماهر لم تطرق الباب بل فتحته عنوة و دلفت، و نظرات علاء القلقة تتبعها، كان ماهر في جلسته الأزلية يطالع بعض الأوراق و يتابع الشاشة « ال سي دي» بين الفينة والأخرى. .

- أهلا يا أســـتاذة، كظمت ثورتها لتخرجها على شكل صوت مرتبك مختنـــق جراء صراع دامٍ بين عقلها و ضميرها.
- يعني، لم تسألني لمَ أتيت؟

ابتسم الثغر الشيطاني و أجاب:

- أتيتِ لتقولي إنك موافقة على ما عرضته عليك يا أستاذة.

عقبت بشراسة المحاصر:

- و من أين جئت بالتأكيد؟

أشعل سيجارته الثانية بهدوء واثق.

- هناك دائمًا عروض لا يمكن رفضها.

قالت داليا بتعجل من ينتظر حكم إعدامه:

- إذن !! ســـأفعل ما تريد، و ستكون عندك القائمة المطلوبة، لكن أريد عمودًا يوميًا باسمي في الجريدة. .

هز رأسه محافظًا على ابتسامته الضبعية:

- لا مشكلة، برجًا إذا طلبت، أنت الآن واحدة منا يا داليا، على فكرة إذا نظرت بتمعن ستجدين أن هذا يصب في مصلحتك، يا حبيبتي هذا البلد لن يتغـــير ولا بألف ثورة أو حتى بالطبل البلدي، الذكي من يعرف من أين تؤكل الكتف و يستفيد، استفيدي يا داليا و دعي العيال أصحابك يخرفون كمـــا يحلو لهم، خيال في خيال. . أنت تملكين القدرات اللازمة لكن يجب أن تتعلمي كيف تستغلينها، مثلا أترين تلك الحملة المخبولة التي يروجون لها على الفيسبوك، ٢٥ يناير ثورة، والله العظيم قتلوني ضحكًا، وهل الثورة بموعد مسبق الآن؟ عالم غريبة. .

قالت داليا:

- من الممكن أن يحدث شـــئ لا تستهن بوضع أنت تعلمه جيدًا و لا أحد بعيد عن الطوفان يا ماهر.

- ســـترين كيف أن قبضة الأمن ســـتجمعهم كالناموس، هذا نظام راسخ رســـوخ الجبال يا داليا و الشـــدة هي علاج هذا الشعب الوحيد.

لم تعقـــب!! امتعضت لكنها لم تعقب، كانت مـــن داخلها تتفق معه أن النظام بالفعل راســـخ متغلغل؛ توحش و استبد و من الصعب إزاحته، تركت المكتب و خرجت لا تنوي على شـــئ.

ارتمـــت على مقعد مكتبها تحدق في صورتها المنعكســـة على شاشـــة الكمبيوتر الفارغة.

- أيـــن أنت يا أحمد الآن، كلماتك أمس لا تزال تحاول أن تســـتلب منطقي

- يـــا داليا الإنســـان في موقفك يكابد الصراع بـــين العقل و الضمير فعندما يضيق الخناق يخســـر العقل أمام غريـــزة البقاء و يتراجع الضمير تمامًا أمام سيطرة الغريزة البدائية الموروثة من عصر إنسان الكهف !!

يـــا ليت الضمير يتراجع للأبد يا أحمد يا ليت!!، من المؤكد أنه الآن مع الرفاق يحضرون للتظاهرات، يُعدون العُدة بجدية ككل مرة، يؤمنون و يبلغون بعضهم البعض بقرب حدوث معجزة ما، رومانســـية المناضلين أكثر إحراقًا من رومانسية العاشقين، فكرة الهروب ما فتئت تكبر و تكبر في عقلها، لكن أي هروب، إلى أي مكان.

أتاها علاء الســـمري يتهادى مازحًا محاولًا كســـر الثلج المتراكم، جلس على مقعـــد مقارب و قال:

- ألن تخبريني بمَ أصابك، ألم تري وجهك، كمن مات له عزيز!

كبحت داليا زمام عصبيتها فما ذنبه و هو المبتلى بقلبه و ما يعانيه يشبه ما تعاني منه، صراع باختلاف شكله لكنه يظل صراعًا..

- أنا متعبة يا علاء، لا أعلم ما بي، الحياة مجرد فراغ و عدم، قال علاء:
- لا عليك، اتجهي إلى الله، هـــو مجيب دعوة المضطر إذا دعاه و مفرج الكرب، أدعية بنية صافية فقط، كم من الســـهل أمام أي شكوى أن يُقذف البشر بحلولٍ ربانية في الوجوه.

تعلم كل هذا لكنها كأي ســـجين يبغي حلًا جذريًا لمعاناة مضنية، أتبع علاء:

- ما رأيك أنا سأذهب إلى درس «الشـــيخ الأسيوطي»، أتحبين أن تأتي معي لعل كلامه يريحك؟!

سألته : متي؟ تعجب من السؤال لكنه بلهفة قال :

- الساعة السابعة، المكان في «السـيدة زينب» قاعة تتبع مسجد أنصار السنة..

- حسنا سألقاكِ، قفز فرحًا وقال:

- لكن رجاءً ارتدي حجابًا، حتى لا يقتلونا، واصل مشيته الراقصة الفرحة،

- فرح أنت يا علاء بماذا؟ بهدايتي أم باقتناصك أول موعد غرامي مني و أين؟

ياللسخرية في محاضرة دينية؟!

(4)

يوسف الراوي

رائحة هواء يناير المعبأة بالذكريات تبعثني من جديد، رئتاي ممتلئتان بأتربة الصحراء و أطنان مزارع التبغ و خيوط نسجها عنكبوت الاكتئاب، لم أشعر بزيف العالم و وحدتي الصافية إلا الآن، حقيقة ثانية تجاور الموت تتجلى، كم نحارب من أجل لا شيء، من أجل قبض الريح.

ليل القاهرة و شفافية يناير و خطواتي على الأتربة، حقيقة لحظية تبدو كما لو كانت أبدية، البيت الشامخ بأسواره المضاءة بمصابيح صفراء راقصة، كم من بيت فقير قُطعت عنه الكهرباء الآن من أجل إنارة سور القصر !! خطواتي الثقيلة تحملني إلى باب الفيلا، البوابة السوداء الحديدية التي فقط ينقصها كلب ثلاثي الرؤوس لتليق ببوابة «هادس» الجهنمية.. أخرج علبة تبغي، حقيقة أخرى صادمة، لم يتبقَ سوى سيجارة واحدة لأكتم شهوة إشعالها و أعيد العلبة المتهكمة إلى جيب سترتي، سيأتي وقتك أيتها العزيزة، صديقة عند الحاجة لمن هو مثلي مقبل على انهيار عصبي.

ألمح اللوحة المذهبة على البوابة « فيلا الفردوس، عائلة الراوي» ، أبتسم بمرارة ساخرة: الفردوس !،

أدخل خمسا و سبعين خطوة إلى باب الفيلا الداخلي عبر الممر الحجري المُعبّد المار بوسط الحديقة، خمس و سبعون خطوة بالتمام و الكمال لم تنقص منذ أن وقفت أنا و أخي شريف نتبارى من منا خطواته أوسع، كانت خطواته أوسع و أسرع إلى لقاء الموت مني.

أدق الباب مرتين، الأولى بتردد، و الثانية لإثبات شـــجاعتي، فُتِح الباب على يد سكينة الخادمة العجوز،

آخر ســـلالة وصيفات عائلة الهانم، عجوز من الغابرين تكاد لا تبصر كف يدهـــا المعروقة تحتفظ بها الهانم أمي لتذكرها بزمن ولّى مصرة على مناداتها باسمها مسبوق بلقب دادة.

- من؟

تساءلت الملكة تي بصوت كصرير التوابيت:

- أنا يا دادة،

- أنت من؟

- أنا يوسف.

أشـــرقت تجاعيدها و مـــدت يدها تلمس قســـمات وجهي لتنزل على كتفي و تضمني و تســـتغرق في البكاء.

- حمدا لله على السلامة يا باشمهندس البيت نوّر بعد غيبة.

مسحت على راحتها، تحركت مكفكفة دمعها كقطار بخاري. .

- دقيقة، ســـأنادي الســـت هانم، هتفرح جدا. لا أظنها ستفرح، هكذا همهمـــت، البيت لم يتغـــير، الأثاث كما هـــو وارد باريس و بلجيكا وإيطاليا، المرآة الجدارية كما هي، أكثر غرض هشمته مرارًا بمثابرة نملة، والهانم ترســـل لتجلب نفس المرآة طبق الأصل من «بلاد برة». أشعلت سيجارتي الأخيرة، إنه وقت تلويث هذا البيت برائحتي المنسية، لأنفـــث أضغاني و خطايـــاي و جنوني إلى ســـقف الردهة، لأباركه بسرطاني الشـــره كما يبارك الكلب منطقة نفوذه ببوله..

البيت المحرقة، البيت الســـجن، البيت ســـكين رسم جروحي و ندباتي، البيت الذي أمقته كالشـــيطان، صوت كعب عالٍ يرن من خلفي، التفت لأجدها، الشـــعر المصبوغ بالأشـــقر الثلجي كما هو، العينان المحملتان

بالاتهـــام كما هما. الفســـتان الكامل الذي يليق بالشـــارع كما هو، و الكعب المســـتبد كما هو، كيف يتحمـــل الكعب الدقيق كومة الصلف فوقه؟!، شـــاهيناز هانم كما هي..

- جيّد أنك مازلت تذكر أن لك أهلاً يا أستاذ.
- لا يهم، يكفي أنني رجعت.
- أبوك على وصول، اصعد إلى غرفتك بدل ملابســـك، ملابســـك ستجدها كما هي، سأجهز العشـــاء، غرفتك كما هي لم يلمسها أحد منذ ســـفرك، بكل دبلوماسة سفير اســـتعماري، قالت الجملة،
- ضيف أنا، عابر سبيل، بلا جذور تشدني إلى العالم، نبتة صبار تتمدد على رمال محرقة.. أنفث الدخان بشراهة و غِلّ، أصعد السلم المرمري إلى الطابق العلوي فيلاحقني صوتها الرفيع..
- جو، اطفيء السيجارة، أنت تعلم كم أكره رائحتها..

أمشـــي أصم ولا أعبأ، أســـحب آخر نفس فتزغرد الجمرة الذهبية ثم ألقي بعقب السيجارة المشـــتعل في أقرب مزهرية تعود إلى عهد ملك ما من ملوك الفراغ الأســـطوري، ألوث الخزف الفاخر، من صنعته يد حرفي مســـتعبَد. غرفتي بلون بابها المميز وسط أبواب المنزل، الملصق الأرجواني مكتوب عليه عبارة ممنوع الدخول بحـــروف لاتينية، أفتح الباب و أدخل إلى عالمي المنسي، غرفتي الشبحية، يغمرني الحنين بعبقه الحزين، سجين يعاود زيارة زنزانته الفردية، اخلع سترتي و ألقيها بلا اكتراث على السرير، مكتبي العتيق الذي يحمل سطحه علامات حفرتها بطرف فرجار، خزانة ملابســـي، أفتحها و أمر بنظري على الأقمشة التي خضّبها عرق انتظار صاحبها، لوحاتي الزيتية ملقاة كما تركتها بإهمال متفرقة في أنحاء الغرفـــة، أجول بعيني باحثًا عن أقربها إلى القلب، فلذة كبدي، أفضل ما رسمت ريشـــاتي، كانت معلقة على الجـــدار الباهت، صورتها، صورتك نور. البروفيل النوراني و العين المترقبة، الفم الشهدي المزموم بابتسامة

أقــــرب إلى الجحود، الأنف النبيل والعينــــان الفيروزيتان تبثان حنوًا من فرط رقتهما تقطران رهبة، الجبهة الوضيئة المنحوتة من لؤلؤ القمر، إنها أنتِ، الكمال يا نور، أنظر إليها بحرقـــة صائم، هذا الوجه المنقذ المُضل. منَ انتشلني من الظلمات ليلقيني في أتون لهب، أردت جوارك الأبدي، نَوال حظوة القرب من جلال ثناياكِ. هل من الممكن أن أعشق إلى هذه الدرجة.

– لا أحد يحب مثلك يا يوسف!!

قلتهـــا من قبـــل يا نور، لكن أي حب !! أنا ما بـــي ليس بحب، إنه نار تحـــرق الأخضر و اليابس، إنه غناء درويش في حضرة التجلي الإلهي، إنه ألـــف موجة هادرة تحفر ألف صخرة، إنه نهاية الكون، انطفاء الشـــمس، توقف الأرض عن دورانها، إنه تسابيح ملايين الذرات؛ انه انتحار الحيتان بســـواحل الشـــمال الباردة، إنه!! إنه تعبّد يا نور تعبّد نوتات تنساب على أوتار كمانك.

نزلت عبرات غاصبة و تقرح جُرح لم يندمل، أمسك بإطار صورة تضمني مع أخي، نابضٌ هو بالحيوية، كانتَ قبل الحادث، هذه الابتسامة الراضية لم تكن تتنبأ بمصير صاحبها، بأنه ســـيقضي الليلة التالية تحت التراب.

أتذكر وسوســـتي الخائبة له، يجب أن تجرب معي بعضًا من السحر، المخـــدر، أخ أصغر مدمن يحاول جـــر أخيه الأكبر المثالـــي إلى دوامته الغارق بها، كانت ليلة!!، ضباب الانتشـــاء و الســـيارة المشتعلة و زحفي على الاسفلت و عين شقيق تنطفىء، غرفة المستشفى و صوت نشيج الأم الحديدية صاحبة العصمة، يلهجان باســـم الراحل، بعد أيام علما بكمية المخدر بدمي، سمعتهما من خلف ســـتر الغيبوبة، لمَ مات المفضل و بقى الخروف الأسود عار عائلة الراوي،

لِمَ يرحل الأنبياء و يبقى المارقون؟!

طرقات على باب الغرفة أنقذتني من أمطار الماضي الحمضية،

– العشاء جاهز يا باشمهندس..

أين التبغ عندما نحتاجه، أيـــن أنت أيها الموت المعلب المقدم للبالغين فقط؟!.

يوســـف الراوي المرء له حظ من اسمه، قرأت هذا في مكان ما لكني لا أتذكر أين!!

(يُوسُـــفُ أيها الصِّديق أعْرِضْ عَن هَـــذا)، دوت الآية التي تحمل الأمر الإلهـــي إلى النبي سميي، أن يُعِـــرض، لكني يا إلهي لقد اعرضت عن كل شئ عن الحلو و المر، عن الألم واللذة. حظي من اسمي، المعاناة و الترحال، الحـــزن و صديد التجربة المتقرح، أتشـــارك مع حـــظ النبي العبراني في المعاناة و التغريبة لكن دون مس علوي أو برهان أو نبوة موروثة من سبط المباركين.

على طاولة الطعام قوطية الطراز، جلست أمام القيصر، الراوي الكبير يتفحصني من تحت إطار عويناته الذهبية، نظرات تاجر محنك و مرابٍ قدير، عيناه تمســـحان خطـــوط وجهي و خلجاتـــي و أخاديد الغياب به كرادار، قســـماته المحايدة لا تبدي أي اشتياق أو لوعة فقد أو بوادر دمع يعقوبي على قميص يوسف.

هو كما هو!! فاصل الســـنين لم يبدل شيئًا فيه، بحر لا قرار له، صنم بلا مشاعر أو أحاسيس، وجه لاعب بوكر محترف لا يهتز..

- أهلاً وسهلاً، هل هي زيارة خاطفة أم عودة؟

قالها بنبرة ضابط في الجوازات، يختبر راكبًا مظهره يدعو إلى الريبة و الحذر.

- زيارة يا أبي.
- أو من الممكن أن تكون افتقدتنا.

قالها ساخرة قاسية و ابتسم ابتسامة ساخرة صفراء ثم اتبع:

- يبدو أن القيامة على الأبواب.

حوّل الراوي دفة الحديث إلى الهانم أمي، فكلانا أيقن أن جنوحًا زائدًا في مجريات الحديث سيدفعنا وسط التيار الهادر الذي سيقضي على أية شهية أو محاولة تواصل، تبادلا أطراف حديثٍ بارد عن أخبار نادي الروتاري و اجتماعات جمعيات رعاية الأيتام التي تظهرهم بمظهر الصلاح و الغيرية كنوع من غسيل الأموال و الذات، و أتت أخبار استحسان زوجة الوزير الفلاني للهدية الماسية التي قدمتها لها أمي في حفل عيد ميلادها الشهري، الشركات، أرض مرسي علم، القرية السياحية بالغردقة، رصيد كروت الائتمان وتسهيلات القروض التي لا تسدد، حفلات كوكتيل و آخر صيحات البوتكس التجميلية..

ارتعشت يدي من ضغط لهيب السعير الماثل أمامي، أتظنان أنكما ستملكان الدنيا من أطرافها ثم تكافئني بلعب الجولف في الجنة يوم القيامة!! ألقيت ملعقتي في صحن الحساء، بعنف كي تقطع حديثهما الباهت و قمت إلى غرفة الصالون الفيكتوري، فتشت بشراسة عن أي شئ يصلح للإشتعال، لمحت علبة السيجار الفاخر العاجية، انتزعت واحدًا و أشعلته بتشف غريب كأنه الراوي فى صورة تبغ مُصنع بأياد الفقراء المهمشين في أزقةٍ كوبا البائسة، يقتنيها أصحاب الياقات البيضاءِ و تُلقى أنصافها في القمامة و يزداد العالم تلوثًا و بؤسًا، النار دائمًا تأكل النار..

حاولت الاسترخاء على أقرب مقعد، لكن ارتعاشة أعصاب قدمي زادت حتى بدت كزلزال تحت جلدي، أتى الأمبراطور يتلمظ، جلس أمامي، تأملت فيه ؛ أبي هو، و ما أنا إلا نتاج حيوانٍ منوي كسول انتهز فرصة تكالب الحيوانات الأخرى ليقتحم البويضة ابنة الحسب و النسب، حيوان منوي انتهازي، كيف أتيت من صلب هذا الوحش؟

لنا نفس الملامح نفس السمت، و نفس العناد الثوري، كيف إذن يُصدم الأب في ابنه دائمًا؟!

لأنه مختلف أو عنيد أو عاق!! لو تمعن أي أب جيدًا في نتاجه سيجد أن الابن ما هو إلا انبعاثٍ آخر لصفاته الشخصية بكل ما فيها، ورث شكله

و ضحكته و طريقته في المشـــي حتى أمراضه النفســـية و مجموع عقده، الابن ما هو إلا تجلٍ لهوس أجيال متلاحقة..

أنـــا هو أنت يا أبي، ما يفرقنا هو ما يجمعنا، تنافر المتشـــابهات، أنت فقط تكره صورتـــك فيَّ، فما أنا إلا منحنى بيانـــي يطابق منحناك في الحياة، نختلــف في قرارات، مجرد قرارات اتُخِذت هربًا من الرعب الكامن في الاختيار الصحيح.

- أخبرني، ماذا تنتوي أن تفعل، أنت تجاوزت الخامسة و الثلاثين بشهور و لم تقف على أرض صلبة بعد.

العقليـــة التي لا تتغير مهما طال الزمـــن و أصابتها الخطوب، تلك الجلســـة احفظها عن ظهـــر قلب، أول مرة كانت بعـــد نتيجة الثانوية العامة و سأل نفس الســـؤال و قرر وانصعت لقراره صاغرًا، الهندسة هي الاختيـــار، هي طريقـــك الذي ارتضيته لك يا يوســـف، أراد أن يعوض الشـــهادة التي حُرم منها بأن يصبح عنده ولدان مهندسان، نحن امتداد، ليس لنا إرادة أو قرار، جلس نفس الجلســـة عندما شارفت على الخامسة والعشرين ليأمرني بمباشـــرة عملي بإحدى شركاته.

أعاد الســـؤال ليخرجني من لجة الماضي، نظـــرت إليه بعين ضبابية و قلت:

- لا أعلم حقًّا، افكر في أكثر من شئ.
- حسنا، نحن مازلنا نملك الفرصة، أول شئ نتعلم مما حدث و نطوي صفحته، ثانيًا غدًا تذهب إلى المؤسســـة تتســـلَّم العمل، الله يرحمه أخيك إذا كان مد في عمره لكان الآن جعل من المؤسســـة إمبراطورية.

أمتـــصُ أصبع القطران بنهم عســـى أن تتوقف رئتاي، لا يوجد تطور تحت سقف هذا البيت، نفس المقاعد و نفس اللوم المستتر، نفس الأمنية، نفس الابن الصالح الميت و بقاء الابن المجنون، نفس الطحالب المتشابكة في النفوس.

- رحمه الله، شريف كان أفضل مني..

هز رأســـه، لا أعلم تأكيدًا على رحمـــة الله أم على أن الراحل كان الأفضل؟!

يا ليت الموت وهبني قبلة الرحمة تلك الليلة.

- أبي، عندي سؤال مكتوم داخلي، لكن أولًا أريد أن أتفق معك في فتح صفحة جديدة، سؤالي هو هل تمنيت موتي بدلًا من شريف؟

- أنتما الاثنان أولادي، تلك إجابتي، شـــريف توفي للأســـف و أنت من كُتـــب له عُمر، المهم في الموضوع أنت من تبقى من آل الراوي بمعنى أن كل هذا الخير الذي حاربت من أجله و كافحت عمري ســـيكون من نصيبك يومًا من الأيام، يا يوســـف أنا حفرت في الصخر لأصنع ما تراه الآن، قدمت تنازلات و قبّلت أقدامًا ودهســـت أناسًا من أجله، فكّر جيدا هل أنت تملك القدرة على تحمل المســـئولية أم لا؟

تحـــدث كأنه يبث معنى خفيًّا حقيقيًّا وراء الكلمات العقلانية، لترث أيها الفاني مُلكي، و أحقادي وكفي الملطخة بدماء العابرين، يا لها من تركـــة يا أبي، الراوي لا يعرف المزاح يقدم لي صك عبوديتي لأوقع عليه بإرادتي الحرة بعد أن كسرت ربقته منذ أعوام خلت.

- أنت قد كبرت يا يوسف و أتمنى أن توقن أنك قد كبرت، في الماضي كنت أترك لك مســـاحة للدلع الصبياني باعتبارك آخر العنقود، لكن الآن الزمن غير الزمن يجب أن تنضج و تُلقي كل شـــيء خلف ظهرك، و لتبدأ من جديد.

يا له مـــن عرض دمث يا أبي، البداية الطازجة، ليت البشـــر يملكون رفاهية البدايات، لكن أين المحاة الســـحرية مـــع عرضك، كي أمحو شـــريف، أمحو نور، أمحو أشـــهر المصحة، أمحو يوسف من داخلي.

- شـــريف مات بســـببي، أنا من قتلته، ليلتها بالمخدر و الحزن، أنا من دفعته إلى الطريق. صرخت بها لتنفجر ينابيع الدمع دمًا من مقلتي،

وقف الراوي و اقترب مني محتضنًا رأسي بغرابة، سابقة لم تحدث من قبل.

- يوسف، شريف مات خلاص، اترك الجرح مغلقًا.
- هذا ليس مجرد جرح، إنه سكين نائم في قلبي.

اعتصر الراوي كتفيَّ بقوة، و زاد تهدج صوته، كقبو بابه يفتح:

- أنت قلت جزءًا من الحقيقة، شـــريف قُتِل، لكن المقصود كان أنت يا يوسف، هناك حقائق أنا أعلمها و أخفيتها عنكم..

ألف ســـوطٍ ناري يلهب ظهري، لعنات تمطر شـــهبًا على رأسي، قُتِل وكنت أنا المقصود!!

الحقيقة إبرة في كومةٍ من الزيف.

(5)

نور الهدى فريد عبد العظيم

نظر عاصم نظرة باردة على جسـد نور المسجي المبعثر على الأريكة و بقايا بلل الاستحمام و الدموع أحال لونها إلى لون الحزن القاتم.

نـزع ربطة عنقه الحريرية و ألقى سـترته على المقعـد و جلس، ما أعجبها ليلة، أشـعل سـيجارته واسـترخى ليغوص في المقعد.

— لمَ تصعبـين الأمر يا نـور!! لديك ما تتقاتل النسـوة عليه، الكفر بالنعمة يذهبها يا نور، ماذا ينقصك؟! - لا شـئ و أنا المطلوب مني أديته على أكمل وجه، أفخم ملابس و جواهر أغدقت عليك، أروع و أغلى الأماكن ارتدناها معًا، لم تحبه يومًا حتى على سـبيل الادعاء الكاذب رأى في عينيها دائمًا نظره سـاهمة إلى المجهول، لم يسـتحوذ على كيانها كأي رجل مع امرأته..

كان هناك دائمًا مئات الأشـياء المفقودة؛ الجنس الميكانيكي بينهما لم يكسـر الحاجز كانت تأتي إلى الفراش كأي موظف حكومي لتنهي واجبًا يجب أن يؤدي بلا شـعور أو حتـى تأوهات تمثيلية مفتعلة لتحلل البضاعة، انقادت إلى عالمه بعد مقاومتها الشرسـة، عندك كل الحق يا نور أنتِ من قرر الاقتران بي.

صـدى أيامهما الأولى لا زالت تطارده كشـبح طفل قتل في مذبحة يطارد قاتله، في البدء كانت ابتسـامات المجاملة الممسوخة، ليلة الزفاف لم تهمـس اسمه مـن اللذة في أذنه أو حتى تصرخ ألمًـا، صبيحة الزفاف وجدها تبكي في الحمام وحيدة، مع الوقت أصبحت إنسـانًا آليًا مبرمجًا، أين اختفى كل هذا اللحم والدم و انفجار الأحاسيس الذي جذبه إليها

أين حبات العرق الشـــهواني المنســـاب على عنقها الشـــفاف و هي تعزف كمانها الشيطاني، الظبية بعيدة المنال التي حارب للفوز بها أين تبخرت؟

لم يأمن يومًا ضعفها و سكينتها المريبة و صدّها فيما بعد زاده احتقارًا لذاته و تأصّل داخله شعورًا بالدونية، كبرياؤه كان ينفجر في وجهها:

– المرأة التي لاتسمع ما آمرها ألقها إلى كلاب السكك !!

هـــذا ما كان و لا عودة إلى الوراء، ما يهم الآن هو رضاء النجل و نيل ثقته مرة أخرى ليسمح له بالعودة إلى مصر مكللاً بأكاليل النصر.

كانت خطيئته في عرف النجل فاضحة، لكن ما كان باليد حيلة بعد موت يوســـف جبر كبريائه لم يبتلع أن يتنـــازل عن نصف ثروته للنجل بسهولة، أخبره الســـفير أمس أن الأب هو من تدخل لدى ابنه و هدأ من روعـــه، بعد أن كان ينتوي البطش به تمامًا لكن بعد الوســـاطة ارتضى بأهون الحلول و أيســـرها، أن ينفيه مع بعـــضٍ من أمواله مع وضع بقية الأموال تحت الحراسة..

قنع عاصم بالنفي صاغرًا و بكـــون الإعلام بأنواعه المقروء و المرئي و المسموع أعاد تدوير نفايات العقل الجمعي الملوث وروجها للشعب من جديد..

«هروب ابن يوسف جبر بعد اســـتيلائه على أموال القروض المليارية»، «عاصم جبر آخر الرجال الفاسدين» و هلم جرّا، كلٌ استل سيفه الناري ليطارده به إلى خارج المحروسة، لكن مع الوقت عقله البراجماتي أيقن أنه ولابد عائد، فضغائن المال لا يحلها إلا المال !!!

فتحت نور عينيها الفيروزيتين كلجة بحر هدأ بعد إعصار، مســـحت جفنيهـــا المتثاقلين ثم قامت لا تعير عاصـــم اهتمامًا كأنه مجرد فراغ، جرجرت ســـاقيها إلى المطبخ، أشعلت الموقد، النسكافية هذا موعده، ليس كمشروب إنما كاحتياج مُلّح، صبت الماء الساخن في قدحها ثم خرجت إلى الردهة لتخرج ســـيجارة من علبة عاصم الذهبية و تتركها مشرعة على الطاولة كقلب خروف ذبيح.

– ما شاء الله، أمس نبيذ و اليوم تدخنين.

قالها عاصم متهكمًا. أشعلت نور اللفافة و قالت :

– للأسف لا تحاول أن تركز معي فأنت لا تعلم عني شيئًا.

احتقن وجه عاصم و آثار السكر أذكت جذوة فوار دمه فانتصب كإله إغريقي للحرب.

– اللعنة عليكِ يا امرأة من تظنين نفسك.

هجم عليها و هي كلوح ثلجي لا تهتز، ضم قبضته هم أن يلكمها لكن إرادته خارت ليضمها بعنف محاولاً تقبيلها بسعارٍ محموم مصاحب بنشيجه المقهور، دفعته بقوة فطار قدح النسكافيه ليتحطم على الأرض الرخامية و يسقط عاصم خائر القوي على مقعده يهتز غضبًا..

– أنت مقرف تثير اشمئزازي، صرخت نور، اندفعت تعدو إلى غرفتها مغلقة للباب، بينما تلاحقت أنفاس عاصم ثقيلة لتهدأ بعد برهة، ألف لعنة تنضح بها عروقه تتبع خطاها.

ظلت نور تبكي و تبكي أياما، الدموع مستمرة، متي ستزول؟!

كل ما تعلمته في حياتها قواعد منطقية، ما كُتب على ورق، ورق المخطوطات الموسيقية من علامات مرمزة على سلم خماسي تحوله يدها عن طريق قوس و أوتار إلى نغمات صافية، بساطة متناهية لخلق صوتٍ يحاكي حفيف أجنحة الملائكة نابع من قلب يسمو بالروح فوق البدن الفانى فتتراقص الأرواح ثملة، لكنها لم تتعلم ألعاب الحواة التي يستلزمها الصراع الحياتي اليومي للبقاء، الفن و الجمال و الآفاق الرحبة، الحب، هذا ما علمها إياه المايسترو جميل، الذي ظنت يوما أن قسوته المزعومة هي نهاية العالم، كم كنت رقيقًا يا مايسترو وكم يمتلئ العالم بأفاعٍ سامة!!، يا ليته استبدل بما علمني إياه موسيقى مزامير الحواة على الأقل كنت سأتقن التعايش معهم..

لمحت نور منديلاً ورقيًا يحمل شعار المطعم التجاري الشبيه بالأعمدة البابلية، التقطته بأطراف أناملها، رقم العازف البدين جان كما هو.

- آلو.

أجابها صوته الأجش بفرنسيته الباريسية الأصيلة:

- آلو أنا نور السيدة التي عزفت أمس بالمطعم. . أتتذكرني.

قالت نور بإنجليزية بصوت كترقب السارق.

- نعم بالطبع أتذكرك سـيدتي، مفاجأة عظيمة لها قلبي يسعد و إن لاحظت في صوتك شـئ من الحزن، هل أنتِ بخير سيدتي ؟

- نعم، فقط أردت أن نتقابل، إن كان وقتك يسمح يا سيد جودار.

- جان فقط سيدتي بلا تكلف، حددي أنتِ الزمان و المكان.

- اليوم العاشرة صباحا، هناك مقهى اسمه «سافو».

- نعم نعم أعرفه، إذن إلى الملتقى يا فراشة. .

فراشـة! تعجبت نور من آخر ما قاله جان قبل أن تنهي المكالمة، الرجل لا نية سـيئة له، لكن لماذا اختار هذا اللقب دونـًـا عن ألقاب العالم، ستسـأله، هي كانت مسـتعدة أن تذهب إلى نهاية العالم، إلى الاتصال بأحـد لا يجمعها معه تاريخ شـخصي، ليس المهـم أن يكون من دمها و لحمها أو جنسـيتها، تتوق فقط إلى شـخص من عالم آخر محايد يبعد آلاف السـنوات الضوئية عن عالمها، حديث بلا رواسب قديمة، حديث عن الموسيقى و الحياة.

انتزعها من أفكارها صوت الباب الخارجي يغلق، لقد رحل الشيطان.

نزل عاصم السـلم ركضًا، كان قد غرق في دوامـة فكرية، أيقتلها و يسـتريح، يلقي بها من الشـرفة ويكتب عنها خطاب انتحار، ألا تعلم مـن يكون عاصم جبر !! بل الأنكـى أنها تعلم جيدًا من هو! التحدي في نظراتها يشـعل أتونه، نظرات إلى مجذوم أجرب عفن، أخرجه من أفكاره

صوت هاتفه ليجيبه من الطرف الآخـــر عبدالحكيم البرعي، و ما أدراك من هو؟

إنـــه حامل أختام النجل، الرجل الواقف وراءه و أبوه الروحي، أســـتاذ جامعي بكلية الاقتصاد و العلوم السياســـية، تعرف إلى النجل بلندن أيام عمله كاقتصادي بأكبر بنوك العالم قبل أن يعود إلى مصر، وســـوس له بأن كرسي الحكم كاد أن يشغر، الرجل الكبير قد تقدم به العمر، و الأخ الأكبر المال و الأعمال شغلاه تمامًا كما أنه بلا طموح سياسي، فقد آن الاوان أن يعود ليقدم نفسه كوريث، لكن بالطبع العرش يتطلب ترتيبات ودعاية و تقدمة دسمة إلى أصحاب القرار، لا تلتفت إلى الشعب، فالشعب يأكل ما نلقي له به..

عاد النجل إلى مصر و قرب البرعـــي منه ناصحًا أمينًا و أعطاه وزارة كعربـــون مودة، كل حاكم يأتي برجاله، الحاشـــية أهم ما في النظام، مبـــاديء وضعها البرعي أمام عينيه يوميًا و علم أن يومه آتٍ لا ريب فيه.

– لقاؤنا بعد ساعة في الفندق، لا تتأخر يا عاصم.

قفز عاصم من كرســـيه و التقط ســـترته و أغلـــق الباب بعنف و لم يتحمل انتظار المصعد ليســـبق الوقت على ســـلم البناية المصقول..

إذن رســـالته وصلت إلى الباب العالي، و لم يستغرقوا وقتًا للرد، أرسلوا القواد الأعظم بنفسه ليشرف على الصفقة، يا ترى ماذا سيطلب؟ أكيد أموال و الكثير منها، عقاب و كفّارة،

لكـــن عاصم يعرف جيدًا أن مصر كنز بقـــرة حلوب خصيصًا لأبناء طبقته المخملية، ألف يأتي بمائة ألف، و المائة ألف تأتي بمليون، و المليون يأتي بمليار..

عاصم ابن طبقة حالبي البقرة المقدســـة حتحور، الآلهة التي لم يجف ضرعها منذ آلاف السنين، و المثير للسخرية تلك الأكذوبة الرائجة « أن مصر مليئة بالخيرات لكن الشعب يستنفدها»،

هذا ما روّج له الكهنة و ابتلعه الشـــعب، نعم!! مصر مليئة بالخيرات فقط لأن شـــعبها يســـهل امتصاص دمه، منذ قديـــم الزمان والحاكم يمتص ثديي البلد و هي مســـتمرة في إعطاء الخير، ضرائب و ســـرقة و اختـــلاس و أراض تباع كأنها إرث ورثـــه عن أبيه وأجداده..

لكن النظام الحالي مختلف عن الأنظمة السابقة المتعاقبة التي كانت تنهب، وعلى الأقل لم تتخلص من فضيلة الخجل فتلقي بفتات إلى شعبها المســـكين يتقاتل عليها، لكن النظام المبارك نافد الصبر لا ينتظر، تخلى عن كل فضيلة بما فيها الخجل، فسرق حتى فتات الفتات و ترك البطون تأكلها الديدان.

دخل عاصم بهو الفندق و جلس ينتظر قدره معدلاً من وضع شـــعره و ربطة عنقه.

تقدم منه بصلعته النحاسية و شاربه المشذب بعناية و عويناته الذهبية يرتدي حلة رمادية، رسول الموت قادم.

تمالك عاصم أعصابه و قفز واقفًا يرحب بالقادم المهيب عبدالحكيم البرعي فمد الأخير يده بسلام والٍ عثماني يوزع البركات و العطايا.

- كيف حالك يا عاصم، عجبتك باريس.
- ماشية الأمور يا باشا. لكن لا أنكر اشتياقي إلى مصر.
- الله يرحمه أبوك، كان رجلاً من ذهب، كان يصدع لما يؤمر.

كلمات البرعي بتلميحاتها نفذت كســـهم نـــاري إلى نواة أعصاب عاصـــم جبر، كان أبي عاقلاً و مطيعًـــا إذن لأكن مثله و لأقدم قرابين الطاعـــة إلى الكاهن حامل الدكتوراة من جامعة أوكســـفورد.

- و الله يا جناب الباشا، أنا من يدك هذه إلى يدك الأخرى، أنا ابن أبي، يوســـف جبر، ولدت و كبرت وسطكم، و فضل سعادتك على العائلة واضح وضوح الشمس لا ينكره عاقل.

تطلع البرعي بعين ثعبانيـــة إلى عاصم، ثلاثة أعوام وضعه في ركن الحلبة، المال لم يكن هو المعضلة الشـــائكة التي هزت عرش جبر لكن الكِبر و الغرور الشـــيطاني، عاصم يملك أنفًا كان يجب أن تجدع.

— عاصـــم، أنا لن أتحدث فيما حدث، أنت بمنزلة ابني لكن لن تنال وعد شـــرف مني بعودة الأمور إلى نصابها والمياه إلى مجاريها إلا أن تؤكد لي أن الدرس قد وصل و استوعبته تمامًا..

— تعلمت يا باشا، تعلمت جيدا. .

— أنت أخذتك العزة بالإثم، ليس جميع الناس سواسية يا عاصم، تعلم أين تنتهي حدودك!!، ليـــس كل الناس ابن كامل الراوي، يُدبَر له حادث و تحوز على امرأته، صحيح بالمناسبة زوجتك كيف حالها؟.. أمازالت تهوى الموسيقى و الكلام الفارغ؟

بدا الاحتقان علـــى محيا عاصم، وصلته الرســـالة بعلمهم بنواياه!! حتى بتاريخه، بصندوقه الأســـود الغـــارق، كل خيوطه بأيديهم..

— لتحمد ربك أولًا و أنا بعده أننا سمحنا لك بالســـفر، الأموال التي خرجـــت بها من مصر نحن من سمحنا لك بها و ليس ذكاءً منك يا عاصم، حتـــى زوجتك، أخيرًا أتمنى أن تؤكـــد لي أنك عرفت قيمتك وأنك لســـت أكبر ممن صنعك و صنع أباك من قبل.

— و المطلوب يا باشا؟

— الورقة التي أمامك عقد بيع لمصنع العاشـــر من رمضان توقع عليها و الورقة الثانية هي عقد بيع لقصرك بالتجمع، ستجد اسم الشاري عبد الحكيم البرعي.

— لكن يا باشـــا، بهذا الشـــكل حتى لو عدت إلى مصر سأكون خالي الوفاض..

- إذن يبدو أنك لم تســـتوعب الدرس بعد، عقب ســـيجارة ينهي على المصنع و القصر و حتـــى باريس لن تراها، عاصم كما صنعنا أباك أول مرة من العدم ســـنصنعك أنت الآخر، فقط!!

وقع على عربون الولاء، أنت في مصـــر يا حبيبي، النجاح غير مرتبط بما تملك أو حتى بمجهودك الشـــخصي، أنت تنجح لأننا سمحنا لك بالنجاح، أنا مدير بنك التســـهيلات العليا، رضائي هو المفتاح.

ليس في الامكان أبدع مما كان،

هم يملكونـــه، يملكون جميع الخيوط و عليه أن يكون دمية، و ليذهب كبرياؤه إلى المرحاض،

تيبست يد عاصم بعدما وقع العقود و ضميره يقول:

- أنا عائد، و بقوة!!

(6)

نور الهدى فريد عبد العظيم

انتقت نور مقعدًا و طاولة دائرية صغيرة على ممشى الطريق، الصقيع القارس جعل رواد مقهى «سافو» يتكدسون بالداخل، لكنها جلست وحيدة تضم معطفها الثقيل على جسدها مغمضة عينيها مستسلمة إلى القشعريرة الثلجية الزاحفة التي تداعب عمودها الفقاري، تبسمت، إنها حية، هذا هو شعورها الجديد، وضعت نفسها في يد الطبيعة دون خوف، فالطبيعة تفعل ما جبلت عليه، الطبيعة تثري القلب تبعث النبض؛ لكن البشر لعناء مجرد معاول هدم و فناء. الشارع في صبيحة الآحاد شبه فارغ مما أتاح لها جرعة من الانتشاء الهادىء، اللهم إلا سربًا من الحمام الرمادي البري يستمتع بدفء الشمس في الساحة المقابلة بكل سكينة و سلام لا يجفل من بعض البشر الذين يشاركونه في جمال الساحة و بصيص أشعة الشمس الضعيفة من خلف الغيوم، السلام و التعايش كما يجب أن يكون.

خطر ببالها تساؤل: هل هذا بفعل الاستئناس أم بفعل التعود؟ الحمام البري لا يخشى شيئًا بالفعل تحت سماء باريس، يأكل و يمرح و يشارك السائحين الصور التذكارية بكل رحابة صدر تعّلم أن له حقوقًا تحميها الدولة و إن لم يتضمنها الدستور، حرية الحركة و الأمن و الحياة.

قطع خيط تأملاتها الرجل الخمسيني المترهل ذو الوجه الوسيم الطفولي، جان باتيست جودار الموسيقي بّر بموعده تمامًا، لم يتأخر أو يتقدم عنه ثانية، حياها بأدب و سحب مقعدًا مجاورًا لها و جلس باهتزازات ولهاث كثيف.

— يبدو أني قطعت حبل أفكارك، فيما كنت تفكرين يا فراشة؟

ابتسمت نور بإشراق الصغار مشبكة أصابعها كأقواسٍ متلاحمة مما زاد جمالها، ثم أشارت إلى الحمائم.

- أفكر في طبيعة الحمام البري، لمَ لا يخاف أو يجفل من البشـــر كأي حيوان أو طائر بري آخر؟!

أشـــعل جان غليونه و قطب عن حاجبيه بعمق كمن يريد أن يصيب كبد الحقيقة أو كســـاحر يريد أن يحرك الأشياء عن بعد،

- تخيلي لم يخطر هذا الســـؤال على بالي من قبل رغم أنني أرى نفس المشـــهد يوميًا، أظنه نوعًا من التعود، اتفاقية غير معلنة، تعودنا أن نمر بـــه و نتجاهله و تعود هو أن لا يعبأ بنا.

- محتمل، لكن استخلصت فكرة أعجب مما قلت يا جان أظن أنه المناخ العام الحامي للحريـــة والخصوصية، سمة الهواء هنا هو ما انعكس على تصرف الطائر، أتخيل أن لو فرضنا جدلا وجود تأريخ ما لتلك الطيور الجميلة، بالتأكيد أســـرابه الأولى كانت تهرب و تتوارى من قنص البشر، لكن مع التطور في المجتمع ذاته و إيمان الناس بمواثيق الحريـــة كفوا عن اصطياده فكف هو عن الخوف، أجيالاً بعد أجيال انتقلت لها تلك المعرفة الغريزية حتى الآن.

ضحك جـــان فارتجت الطاولة و كادت الأكواب أن تســـقط حتى تداركها هو بخفة، وتابع و هو يجفف التعرق الزائد من كفيه كمريض قديم للغدة الدرقية :

- أظن ما تلمحـــين له حدث بعد الثورة، لتشـــارك أحفاد الحمام مع الفرنســـيين خبز الحرية الشهي.

انفرجت أســـارير نور بأريحية، تنامى داخلها الشعور الغائب بأنها هي، الطفلة الملائكية التي كانت تلهو بين جنبات المسرح و تسير خلف أستاذها ملتصقة به كقطة صغيرة تحتمي بصاحبها.

- و أنا صغيرة كنت أتدرب على الكمان مع المايسترو جميل معلمي، كنت دائما أجد الونس بزوج من الحمام البري اتخذا من النافذة عشًا لهما، دائمًا كانا مضطربين مستنفرين أجنحتهما لأية حركة فجائية.

رشـــف جان قهوته بحب و مال علـــى الطاولة مرتكزا بمعصميه طلبا لراحة أكثر ثم قال:

- حسنا، انطلاقًا من هذه النقطة أحب أن أسألك، ما هي قصتك يا محبة الطيور؟

تنهدت نور بعمق، و انطلقت تحكي كأنها تخاطب نفســـها، طفولتها و المايســـترو و أبوها الذي استسلم لطموحها بكل طيب خاطر، مرت على يوســـف مرورًا خافتًا حتـــى لقائها بجان، كانت مع كل جملة تشـــعر بانعتاق عنيف، عقد تنحل من أنشـــوطة الماضي، لمســـت ذاتها الضائعة وقد عـــادت لتنبثق كنبتة غضة بين الصخور، جان ظل متابعًا لحديثها بصمت جليل، رســـم تعابير المستمع المحايد على ملامحه، أرادها أن تبوح دون تدخل منـــه، لكن عند نمو القصة بكى و اهتز قلبه لها كما اهتز و أُسِر من قبل بموسيقاها.

- أتسمحين لي أن أقص عليك قصة صغيرة؟

- بالطبع، هذا أبســـط حقوقك بعدما تحملـــت ثرثرتي المنهمرة من فمي.

أعاد جان إشعال غليونه و طلب من النادل، كأسًا من الكونياك حتى تحلق روحه في اللحظة الآنية، أراد أن يطلق عنان أفكاره من عقالها، هذه المرأة تستحق، تستحق الخيال..

- حسنا بما أنه دوري في الثرثرة لأجعلها ممتعة كثرثرتك يا فراشة، « يحكـــى أنه، كانـــت هناك بلدة صحراوية جافـــة ملتقى للرياح و مستوطنة للفقر المدقع، كان يعيش فيها فتى مراهق تمنى أن يصبح ذا شأن وســـط العوام و الخواص، فعل كل ما أمكنه ليلفت الأنظار

إليه، حتى وصل الحال بأهــل بلدته أن نعتوه بالخبل، يومًا ما و هو يعمل في حانوت للأعشــاب الطبية مر به شيخ يرتدي مسوح الرهبان الصوفية الرثة، طلب منه أعشــابًا مجلوبة من بلاد المشرق الساحرة، أنواع يجهلها الفتى، مما جعله يتعامل باستعلاء مع الراهب، قبل أن يذهب الراهب قال لــه : أتريد أن تكون مهمًا في هذه البلدة؟ تعجب الفتى من إشارة الراهب إلى مكنون أمنياته، قال له الراهب مستكملا: انه لو أراد فعليــه أن يلاقيه عند النهر بعد يومين من الآن، كبرياء الفتى الأجوف وســوس له بزجر الشــيخ و وصفه بالمخرف، تناسى الفتى الموضوع برمته و بعد انقضاء المهلة وجد الشــيخ أمامه يعيد عليه نفس العرض السابق ثم تركه و ذهب..

قضى الفتى ليلته متسائلاً، ماذا يمكن أن يلقنه هذا الرجل الهَرِم، لو كان يملك سحرًا أو علمًا كان الأجدر به أن يستغله و يغير حياته، لصار أقوى أو أوســم أو أغنى، لا راهبًا بائسًا جوالاً، بعد انقضاء المهلة الثانية عاد الراهب إليه بنفس الابتســامة و نفس العرض، قرر الفتى أن يذهب، ماذا يمكنه أن يخسر ليذهب و يرى لعله يجد مزحة يلوكها وسط أقرانه، ذهب في الموعد إلى ضفة النهر الكبير، كان الراهب جالسًــا على صخرة وحيدة صماء، اقترب منه الفتى و ســأله عما سيهبه إياه، أشار له الراهب بأن يجلس علــى الأرض وينتظر، جلس الفتــى منصاعا منتظرا بنفاد صبر زاد مع انكســار الســاعات المتتابعة، غضب الفتى من إهمال الرجل و جن جنونه ثم هم بالذهاب بلا رجعة، أشــار الراهب إلى النهر ثم قال:

- انظــر إلى النهر، فالحقيقة التي تبحث عنهــا تنتظرك عند الضفة الأخــرى أمامك خيــاران إمّا بالذهاب أو أن تجلــس مفكرًا كيف ستعبر النهر؟

استشاط الفتى غضبا و تفوه بسباب مقذع، تبسم الراهب و أتبع:

- سيعلمك شــريطة أن يلقي خلفه أفكارك و ماضيك و توقعاتك و إحساسك المتضخم بذاتك.

وجم الفتـــى صامتًا، و بعد ردح من الزمن قفـــز الفتى واقفًا يرقص جزلاً احتفالا بفكرة طرأت على باله، وشـــرع في تنفيذها، صنع طوفًا من جذوع آلاف الأشـــجار و دفع بها إلى الماء فجنح به التيار و كاد أن يغرق، انتشله الراهب من وسط الأمواج و أعاده، خُيِّل للفتى أن الشيخ سار على وجه الماء، قال له الشيخ:

– غرقت في اندفاعك و نزقـــك و كبريائك و أن عليك أن تعمل و يتدمِي يديك لأجل خـــلاص روحك فتصل إلى مبتغاك.

اســـتمتعت نور بالقصة التي ذكرتها بحكايات ألف ليلة وليلة، حتى انعتقت من داخلها طفلة تلهو مع الحمام في الســـاحة، طفلة تلعب فوق السلم الموسيقى و ترتقي مفاتيح النوتة.

– يا لها من قصة مشوقة، لكن ما المقصد من ورائها؟

– لا شئ، القصص خلقت لتروى يا فراشة، أما الخلاصة الأخلاقية و ما أشـــبه تعتمد على المتلقي، أنا كل ما قصدته، أن بعد كل ما مررت به، يجب أن يزيد قوتك لا أن يضعفك أو يصنع مسخًا من روحك الأصلية.

– أنت حكيم يا جان أنا بالفعل ممتنة لوجودك، لم أتخيل أنه من الممكن أن أتحدث عن خصوصياتي مع أحد، و الأدهي أنه لقاؤنا الثاني، من الممكن أن دافعي كان البوح إلى شخص لا تربطني به علاقة أو تاريخ مشترك، شخص فقط يستمع دون آراء مسبقة عني، الطبيب النفسي لـــه نفس الوظيفة لكنه مربك و عملي ويفتقد إلى المغامرة، ســـؤال يشغلني بالمناسبة، لماذا تناديني بفراشة؟

– لأنك فراشـــة، ليلـــة عزفك في المطعم بدوتِ كفراشـــة تخرج من الشـــرنقة المكبلـــة، المهم ما رأيـــك أن تنضمي لي غـــدا مع بعض الأصدقاء، ســـنعزف في إحدى دور العجائز غرب باريس، مكان بديع ريفي، مجـــرد أربعين دقيقة خـــارج جنون العاصمة.

قبلـــت عرضه الكريـــم مرحبة بســـعادة، ثم وضع جـــان ورقة مالية بالحساب و هي لم تمانع، تمشيا جنبًا إلى جنب حتى الجسر العظيم عبرا نهر الســـين، انتشر العشاق في الممشـــى و بعض ممارسي رياضة الهرولة الصباحية، و بعض الحائرين مثلها، طلب منها جان أن تحدثه عن حبها الضائع أكثر، يوسف!!

قالت بحرقة مغالبة الدمع الراقد:

– حكايتي، حكايتي تراجيديا اسخيلوسية صرفة، من أين أبدأ يا جان ؟!

الموســـيقى، هي كانت البداية و ســـأقص عليك كيف هجرتني؟!! الموســـيقى كانت قدرًا، زواج مُعد مسبقًا، مخطوطة علوية لحياتي، رعاية حنون من أبي الروحي المايسترو جميل و وصولاً إلى الفوز بلقب أفضل عازفة دون العشرين، كنت كعصفورٍ أدمن التغريد، اعتاد الطيران و طموحي أكبر من الكون، حتى ظهر يوسف في حياتي، كيف أصفه لك؟!، يوسف المعذب الهائم، يحمل روح شاعر مغمور و نظرات كوب منكسر، كان يوم حفلي للشباب، بعد انتهائه أتى إليَّ كفراشة تراقص النور، أردت أن أذهب مسرعة لولا نظرة الطفل المترسبة في عينيه استوقفتني، تحدثنا كثيرًا، بل استغرقنا في بعضنا البعض، حتى تملك شيئًا في داخلي، ستعرف هذا الشعور جيدا يا جان إن كنت من المؤمنين بوجود الله، هذا الشعور الذي يعلق بالروح كرائحة بخور في مســـجد أو كنيســـة أو معبد بعد صلاة تضرع فزعة، السكينة الفضولية، أهازيج الأعياد الشرقية.

لفظت الوصف و استندت على سور الجسر الحديدي تنظر إلى صفحة ماء النهر، بكت، بكت على ما كان، أتت العبرات من يوم سحيق، تذكرت أنها بعد تألقها كنابغة شـــابة، نالت الاستحســـان و بعضًا من الشهرة وسط المجتمع الثقافي المهتم بالموســـيقى الكلاسيكية، كُرمت في محافل عالمية دون أية إشارة من جريدة محلية لعبقريتها المتقدة، في مصر لا أحد يلتفت إلى الفن الأصيل، مجتمع لا يفقه نوع موسيقاها، باحت بما تشعره من إنكار مرارًا لمعلمها الذي ظل يقلل من هذا الشـــعور بكلمات قليلة من

نوعية أن الموسيقي الحق كرجل الدين له رسالة سامية؛ فالفن هو سمو وارتقاء, و إذا هبط إلى أذواق الشارع و الغوغاء تلوّث.

هذا المبدأ ما جعلها المايسترو منكفئًا على عمله بالأوبرا و بيته، لا يلقي بالا لشهرة مبتذلة أو تقدير مرجو، مما جعله يضغط عليها أكثر فأكثر، أصبح النظام الصارم قوقعة يخبئها بداخلها بعيدًا عن العالم يمنع عنها أي احتكاك، مما زاد انطوائيتها و انعزالها عن الحياة، أبوها نفسه ألقى بالمسئولية كاملة على عاتق المايسترو، كان يرضيه نبوغها و التزامها.

تملكتها أمنية سرية أن تكون مثل هؤلاء المغنين و الممثلين معروفة يشار لها بالبنان، كانت بالنسبة للشارع مخفية، تمنت أن تنكشف و تنفتح على الآخرين، تشاركهم موهبتها و موسيقاها، لعل سقف العالم يتحرك و يسمو العوام بسحر الأنغام. بعيدًا عن قواعد نظام المايسترو الحديدية، اقتنصت نور تفصيلة واحدة خارج عالم جميل الفقي، صديقتها داليا حجازي، بون شاسع بينهما، داليا هي الضد لها، منفتحة على البشر و الزحام، مغروزة وسط الناس، قوية، تشاكس كل من تقابل، عنيدة لها قلب قرصان، تعرفا وهي على أعتاب العشرين، يومها داليا كانت مجرد صحفية تحت التمرين، تركض طيلة النهار لإثبات ذاتها و شق طريقها، و هي الوحيدة التي اهتمت بإجراء تحقيق و حديث صحفي مع نور بعد تصدرها مشهد الموسيقى في أكثر من مدينة، منذ الوهلة الأولى انبهرت داليا بنور، ذابت في كل كلمة تجري على شفتيها، و كانت عقب أي لقاء تسأل نفسها:

- من أي معدن صاغت الآلهة تلك الفتاة؟ هذا مزيج غير أرضي بالمرة، الجمال الآخاذ و العقل المتعالي و الموهبة الجبارة.

بعد محاولات شتى من داليا انجرفت نور إلى عالمها، كانت كطفل يشاهد البحر لأول مرة، صديقتها تعرف عالمًا قابعًا خلف أسوار المسرح الكبير، مطاعم الوجبات السريعة و مقاهي وسط البلد المتكدسة بالمثقفين و معاركهم التي تبدأ بالمصطلحات لتصل حتى التلاكم أحيانًا، كانت تجلس تشاهد صديقتها تجادل و تشتعل كمصباح جذوته لا تنطفىء،

و إن كانت داليا تشـــعر أحيانًا بفتور اهتمـــام رفقائها بها في وجود نور، فهي هذا السحر المكون من دم و لحم، تجلس مستمعة و مع هذا فهالتها تخطف الأبصار دائمًا و أبدًا.

ذهبت مع صديقتهـــا الوحيدة إلى حفل يقيمه مركز ثقافي يحتضن المواهب الشابة المجهولة يسمى «ساقية الصاوي»، انبهرت نور بالمكان مذ أن وطئت مدخله، الفكرة نفســـها عندما قصتها عليها داليا كانت مختلفة وعظيمة، مكب للقمامـــة و مرتعًا للمدمنين كان وصمة عار على جبين حـــي الزمالك الراقـــي، بعثه و حوله مثقف جـــاد إلى أهم منارات البث الحضاري والثقافي في مصر. رأت معارض للرســـم و الشـــعر و التمثيل والنحت، شباب ينتشر في جنبات المكان يُعلن عن مواهب مقهورة، متنفس بعيد عـــن قبضة الدولة ومصادري أحلام جيل متميز.

عرضت داليـــا فكرتها اللحظية على مدير المكان أمامها، أن تحيي نور حفلاً أســـبوعيًا موسيقيًا أمام الجمهور الغض، لم تتحمس نور للفكرة في البداية، لكن داليا بمثابرة عنيدة أقنعتها بضرورة النزول بموســـيقاها إلى الأرض، بعيدًا عن أبراج الأوبرا العاجية، المفارقة حينما أتى يوم الحفل، و قامـــت نور بما تتقن، لكن رد الفعل الفاتر على الحضور القليل أحبطها، صديقتها ظلـــت تمنيها بالصبر و صعوبة البدايات، فاســـتحدثت فكرة جديدة ألا و هي أن تشـــارك نور إحدى فرق الشباب التي تعزف موسيقى «الاندرجراوند» من «روك وميتال»، نوع من مزج الموســـيقى المختلفة.

حفلتهم الأولى لاقت استحســـانًا و الثانية شـــاهدت تكدسًـــا، أحبها الشـــباب و أحبوا نغماتها العجائبية ووقعهـــا في النفس، عرفت نور طعم الســـعادة المجردة لأول مرة، شعرت أنها ســـعيدة بمردود المقابل الروحي واحتفاء الشـــباب بها والذي كان لا يســـاويه عروضها في أوبرا فيينا.

عندما وصلت الأخبار إلى مسامع المايسترو جميل، غضب غضبة شنعاء، وصب حنقه على رأســـها، قد رأى أنها تبدد طاقتها بلا طائل و حاصرها أكثر داخل ساعات أطول للتدريب، لكنها لم تتوقف عن نشاطها الخارجي.

في مقتبل الأيام أتى يوم مميز، أحد الأيام الذي نؤرخ به رحلتنا، وقفت لتؤدي العرض، كان لحنًا غجريًا من أعماق قلب عاشـــق استحوذ عليه الشيطان، رأته بين الجمهور الصاخب، مرهف الوجه يرتدي السواد، كان ثابت الجنان و إن شعت عيناه بنبض مشع للموسيقى، دنا من حافة المسرح كأنه يطوف في الأثير، نظرته نظرة حاج يرى الحجر الأســـود و يتمنى لمسه وســـط الزحام، يرنو إليها كمجذوب عند أقدام أحد الأولياء، زادها حضـــوره القريب فورة، كي يتعالى صوت الوتـــر بحدة و تهوي القفلات كملاك ساقط من السماء.

لمـــا أنهت عرضها ضمتها داليا بحرارة الفرحة و الامتنان، و أثنت ثناءً عميقًا على أدائهـــا، بحثت بفضولية عنه، كان منتظرًا عند الباب يضع يده في جيب بنطاله، تبســـمت له بصدق، عرفها بنفسه و عرفته بنفسها، و زاد الصمـــت المريح بينهما، كصديقي طفولـــة، تنحنحت داليا بخبث تدعوها للذهاب. ودعته لكنه أوقفها بســـؤال عن اسم المقطوعة، قدمت خطوة و أخرت أخرى، لم تتفهم ســـر الانجـــذاب العجيب الذي أصابها كأنها مقيدة إليه بسلاسل من صلب.

تفهمـــت داليا نظرة نور اللامعة لتتركها متحججة بشـــئ ما، طفل صامت هو يتشـــرب العبق الفواح الســـاري حولها، دعته إلى مقعد يطل على النهر، تحدثا عن كل شـــئ بكل عشـــوائية و فطرة، أخبرته أن هذه المقطوعـــة نادرة و غريبة، عثرت على مخطوطة باللحن في متجر أنتيكات بمصر الجديدة، يومها كانت تبحث عن شـــئ أصيل من التحف تهديها إلى معلمهـــا يوم ميلاده الذي لا يحب أن يتذكره، أوصتها داليا بأن تزور هذا المتجر، وجدت صندوقًا خشـــبيًا عتيق المظهر و الرائحة داخله أوراق و نوتات موسيقية استحال لونها إلى الاصفرار، اطلعت عليها فلم تملك نفســـها من الدهشـــة من طنين اللحن على الســـطور المغبشة، أخبرها صاحب المعرض أنها آخر مقتنيات أمير من الســـلالة العلوية، و زهد فيها المشترون. ابتاعتها دون أدنى تفكير و انطلقت إلى شقة المايسترو، اندهش

هـــو من تعجلها إخـــراج الكمان و بدءها العزف، لأول مرة تشـــاهد دمع ينساب على وجنتي المايسترو و أشاد بعزفها و قال إنه لحن جدير بالمجانين و أنه بالتأكيد من تأليف الشـــيطان نفسه أو من باع روحه له، الشجن و الانفعال و الانكســـار و الصراخ، تلك مقطوعة من عالم آخر وراء عالمنا المحسوس..

تســـرب يوســـف إلى دنياها بهدوء كعطر، أحبت صحبته و أفكاره و تعليقاته الشـــاذة عن كل أمور الحياة، و لما عرفت أنه نجل الراوي، قالت له متعجبة:

– لا يبدو أنك ابن ناس يا جو، أشعر دائمًا أنك صعلوك..

أجابها أن مفهوم ابن ناس في الأصل نوع من السباب، ابتدعه المصريون إبان حكم المماليك ليعرضوا ويســـخروا من أصول المماليك الغامضة، اســـتدرج إلى إطلاق اللقب على أي طفل سفاح غير معروف الأب، عشقت ثقافته و ســـخريته اللاذعة، و تعلقـــت بلوحاته، خصوصا عندما أهداها لوحة لها، وجهها في عيني يوسف..

– أنت فنان يا ابني، كيف أصبحت مهندسًا!!

و استمر بهما الحال يتصاعد نبض القلب و التوق و التعلق كرشيندو، حتى تمكن منهما العشق..

حتـــى أتى يـــوم جديد، يحمل بـــين طياته حقيقـــة مختبئة كامنة كأفعى بين الأحراش، بعد إحدى حفلاتها، رأته بالجرم المشهود، يتعاطى الكوكاين في ســـيارته، لتقف غائبة عن العالم و ما شفتها دموع ندمه و انكســـاره، و وعده لها بأن يتوقف و يذهب إلى أفضل مصحة. لكن الحياة دائمًا ما تأتي بالخطوب كعرض سيرك مكتمل، لا مناص من مشاهدته..

(7)

داليا جلال حجازي

اشـــتد الزحام في الحي الذي لا ينام، السيدة زينب ؛ و كان مما يزيد الزحام المروري و البشـــري ما تلفظه بوابة خـــروج محطة مترو الأنفاق كل عشر دقائق، وقف علاء السمري بوجهه الأبيض المشرب بحمرة أمام مدخل المحطة و مرت عليه دقائق الانتظار كأبدٍ كامل ممتلئًا بالشك و الـــتردد و انهيار قلاع الثقة في النفس، أين أنتِ يا داليا؟

علاء بطبعـــه الخجول و تربيته الدينية المنعزلـــة لم يتصور يومًا أنه ســـيخوض موقف المراهقين في الانتظار ولكن ما بيده إلا أن يقع في حب تلك الفتاة المتمردة غجرية الشـــعر و النظرات، ما كان يتصور يومًا أنه سيســـقط في غرام امرأة بعيدة تمامًا عن معتقداته الراسخة بل و الأنكى أنها لن تتغير أو تخضع، فرس جامحة هي لا مقود لها يستحيل ترويضها، محاولاته في جس النبض باءت بالفشـــل و تحطمت على سنان رماحها.

علاء الفتى الخجول المنطوي، لم تسنح له فترة مراهقته التي قضاها في الريـــاض مع أبيـــه أن يبحر وراء عالم الجنـــس الآخر، كل ما تعلمه الحرام و الحلال، لا منطقة وســـط، دفن رأسه في نصوص التراث و السنة و قاوم هرموناته البكر المشتعلة بالوضوء و الصوم و حفظ القرآن. حتى الكتـــب كان أبوه يملي عليه ماذا يقرأ، ماذا يســـمع، من يصادق أو يرى، التلفاز كان ممنوعًا إلا في حضور الأبوين!!

و كانـــت أموره رائقـــة، يرى الخط الذي رسمه لـــه أبوه هو الحق و الحق يجب أن يتبع، هكذا كان يخاطب نفسه، أبوه كان يمتلك مكتبة كبيرة، مُنِعت عليه إلا بإشـــراف، تلصص علـــى عناوين المجلدات أكثر

مـــن مرة، «البداية و النهاية» لابن كثير، «مســـند الإمام أحمد»، «رياض الصالحين»، «تفسير القرطبي»، «رفع الغمة في إغاثة الأمة»، كتب السنن و أدبيات الإخوان المســـلمين، لم يجد إلا المتعارف عليه تحت سقف المنزل.

إن أراد الاســـتزادة، كان أبوه يحضر له كتبًا في أي مجال لكنه يجد بها صفحات ممزقة أو مفقودة، ظهيرة ما عاد من المدرســـة بعد شـــعور بتوعك مفاجئ انتابـــه، كانت أمه واقفة بالمطبخ تؤدي فروض الطبخ، انســـال إلى مكتبة أبيه كل مـــا أراده أن يحظى بنظرة بلا رقيب، قلب في الكتـــب التي يميزها كظهر يده، حتى لاح له في ركن خفي ثلاثة كتب من القطع الصغير، تراكـــم عليها غبار التجاهل و الانكار.

سحبهم و انتبذ مكان خفيًّا، كانت عناوين الكتب عجيبة على وعيه، «طوق الحمامة» لابن حزم الأندلسي، «ديوان الغزليات» للحافظ الشيرازي و أخيرا رواية «الشحاذ» لنجيب محفوظ.

كيف هذا؟ رواية لمحفوظ في مكتبة أبيه، قلب في الصفحات بســـرعة محمومة، وقعـــت عينه على فقرات متناثـــرة «أول مراتب الوفاء أن يفي الإنسان لمن يفي له، و هذا فرض لازم و حق واجب على المحب والمحبوب».

فقـــرة من كتاب ابـــن حزم، كيف يكتب قاض و عالم شـــريعة هذا الكلام في الحب؟ تســـاءل علاء، نهل أكثر فأكثر، اســـتوقفته جملة في ديوان الشعر العجيب لهذا الشيرازي، ما كل هذه الأبيات المعربدة فسقًا بين الخمر و المجون.

مرت المحاولة الأولى بسلام لكن كلمات الشاعر المعربد ما مرت بسلام عليه، في يوم آخر تســـلل و أخذ الديوان و انتـــزع منه أربع صفحات قبل أن يـــرده مكانه، فما حوت من أبيات شـــعر إلا وحفظها عن ظهر قلب، لم يســـتوعبها أو يفك منها الطلاسم لكنها كانت تعزيته و حروف السحر الذي أطاح بعالمه.

علـــم علاء أن أباه قبل التزامه الديني كان مهتمًا بالأدب و الشـــعر،

وقع على المعلومـــة من حديث أحد أصدقاء الأب المقربين، و توقع أن أباه قد حرق مخزونه من الكتب قبل أن يستبدلها كتب الدين و السيرة، لكن فيما يبدو أن نفســه لم تطاوعه على الخلاص من الكتب الثلاثة.

تعرقــت يد علاء من أمــواج الذكريات الممضــة، حك علاء لحيته الشــهباء الكثيفة كما يفعل كلما زاد إيقــاع توتره، بعد لحظات وجد داليا تخرج من باب عربة المترو الأشــبه بعلبة ســردين، اندفعت مع سيل الركاب، أطلقت سبة فاحشــة على الزحام و تدافع الصاعدين من باب الخروج لا الدخول..

شــعر علاء بهزة تجتــاح كيانه، ارتعش و تمالك أنفاســه بصعوبة كمن يختبر ســكرة الموت، عندما مــدت كفها تصافحه.

- كيف حالك يا شيخ علاء؟

استشــعر لأول مرة اختفاء السخرية في ندائها له، عيناها المكسورتان كالفخار القديم و صوتها المتهدج أثبتا أن هنالك روحًا تنصهر في نهر من المعاناة الصماء.

- كما ترى، التزمت بالزي الرسمي.

قالت داليا و هي تشــير إلى عباءتها الســوداء و غطاء الرأس الأسود، قالتها مغمورة في سائل من تقرحات القهر و قلة الحيلة، ابتسم لها علاء ابتسامته الطيبة الخجولة وهو مطرق إلى موطئ قدميه كمن يبحث عن ثقة تاهت مع ظلال خطوات البشر في الميدان الهائج.

- أليــس مظهرك الآن أفضل و أرقى، حتى أكاد أقســم أن النور يكلل رأسك يا داليا.

- رغم عدم اقتناعي بما تقول لكن أمر الله، مادام التنكر سيمنع الناس عن افتراسي.

اســتقلا معًا إحدى ســيارات الأجرة المرتصة في طابور عشوائي، علب

صفيح أخرى تشـــبه معلبات فلول جيش هرب من الصحراء إبان الحرب العالمية الثانية، جلســـا في المقعد الخلفي، نظر إليهم السائق شذرًا مرددًا الجملة التي يكررها كل مرة.

– أربعة، المقعد أربعة.

تعليماته في العدد الـــذي يتفوق على العدد الطبيعي بواحد صحيح، راكب سمين يصعد، يحشر نفسه جوارهما ليكتمل الحشر إلى أربعة، عدد المربع الكامل.

وجد علاء نفسه ينغرس في لحم رفيقته رغمًا عنه، فتنحنح استشعارًا لحرج، لم تعطي داليا بالاً لشئ، أطلقت نظرها إلى خارج السيارة.

تحرك السائق بالسيارة و هو يصرخ على تابعه الصغير يأمره بإحضار ثقاب يشعل به لفافة التبغ المعوجّة المريضة التي تتدلى من شفته الداكنة وسط فواصل من السباب الوحشي للتابع و الزحام و الشرطة و الحشيش الذي شح في الأسواق.

أطلقت داليا روحها خارج الســـيارة، مســـتغرقة في المشاهد و الروائح النفـــاذة والأصوات الممتزجة، تتابع أمواج البشـــر الـــتي تموج بعضها في بعض بلا حاكم أو نظام، الباعة المفترشون الأرصفة بتدرج عشوائي حتى منتصف الشارع الرئيســـي، العربات تتقلص لتتفادي السابلة و الباعة و الحيوانات الضالة، أطفال متسخون يرتدون أثمالا ممزقة لا ينفعها رتق، يتحلقون في دائرة قرب الســـبيل الأثري لتبادل شم الغراء كي ينتشوا.

رجل يفترش الأرض يطلب صدقة المارة متذللا بساقه المفقودة أو التي يتظاهر أنها مفقودة، الشـــحاذون أهل حيل كالسحرة و الجان و ضباط أمن الدولة.

معركة في الخلفية تقطع الطريق بين مجموعة من الشباب، تبينت من قمصانهم الرياضية أنهما مجموعتان متناحرتان على نتيجة مباراة تمت.

رائحة محلات الشـــواء تعانق العطارين وأعشـــابهم العجائبية نفاذة

الرائحة،وسط هالة من أدخنة الأراجيل الصاعدة من مقاعد المقاهي العامرة.

تهيج علاء كلما مال بجسده أكثر فأكثر على داليا مع كل اهتزاز يصيب السيارة العجوز، اشتعل الدم في عروقه عندما لمس مرفقه ثدي داليا فلهج لسانه بدعاء الاستغفار.

و لما استشعر ليونة فخذها، غلت روحه في جحيم الرغبة و الحرمان، فزاد من الاستغفار و التعرق، ثم أغمض عينيه، ضاغطا على أسنانه، كان ينسحق، يستغيث برحمة الخالق، كيف استيقظ الحنين و الحنان و الشجو و الانكسار من لمسة؟ كيف تجلى صراع الأزل في امرأة يشتهيها حد الوجع؟ كيف أراد أن يمحو تاريخه بل أن يبدل جلده الأمهق بجلد شخص آخر من أجلها؟

شخص أشجع، شخص يحتويها ويستحوذ على قلاعها، شخص يلجها فتطلبه فيتمنع، شخص ترغبه، بل تكون له جارية بلا إرادة، تقدس كل نقطة عرق تخرج من مسامه.

– أستغفر الله العظيم وأتوب إليه، أستغفر الله العظيم وأتوب إليه.

لهج بها لسانه مسموعة كفريق يتعلق بقشة، محاولا باستماتة أن يباعد بين جسده وجسدها كأنه يتجنب مرضًا فتاك، ابتسمت داليا ابتسامة متهكمة، فهي تعلم علم اليقين ما يموج في صدر صديقها، مسكين هو حكم عليه بعشق امرأة لن ينالها يوما، ليأخذ حظه كبني جلدته من عبثية العالم.

نزلا معًا من السيارة و اتخذا طريقهما وسط البشر في شارع عتيق من شوارع الحي الذي لا يعرف إلا الصحو، الحي الذي هو انعكاس مصغر لمصر الكبرى في كل شئ، الباعة و دراويش المسجد مريدي أم العواجز سيدة المعجزات، لمعة الأضواء في العيون القادمة من لمبات الإنارة الملونة حول محيط المسجد، و الخيام المنصوبة مكتظة بالقرويين ، و كل ضامر أتى من كل فج عميق لحضور المولد الذي اقترب موعده، البيوت العتيقة

بروائح الزمن المنسربة من بين قراميد جدرانها الملتوية، كأنها تحذر من انهيار العالم لو تحركت أساستها قدر أنملة، المطاعم الشعبية و الحوانيت و صوت رجل من أقصى الشارع يحذر الناس من خطر النشالين، الطيبون و الطيبات يتبادلون التحيات و التهاني والتبريكات و الشكوى من جفاف الرزق مع توفر بذرة الحمد لله في القلوب الصابرة.

دلفـــا إلى القاعة المزدحمة بحضور كبـــير، انفصلا كل إلى مكانين مخصصين للرجال والنساء، جلست داليا مقاومة شعور بالغربة و الضياع، سترتهم داخلها و هي تتطلع في وجوه جارتها من النسوة، بعد قليل دخل الشـــيخ بلحيته البيضـــاء الطويلة و جلبابه الأبيـــض، تيقنت داليا أنها بالتأكيد لم تشـــاهد درجات اللون الأبيض بهذه الكثافة الماثلة أمامها.

جلس الشيخ محاطا بشباب ملتحٍ، يبدو عليهم إمرة الأمن و الحماية لشيخهم.

اندفع الشـــيخ في خطابه المزركش بصوته المتهدج مستجلبا تعاطف الجمهور، كلام محفوظ عن الأمجاد الغابرة و فضيلة الحجاب و أشـــياء وأشـــياء، تسمعها يوميًّا في المواصلات العامة و مايكروفون المسجد المقابل لمنزلهـــا، و في كلمات أصدقاء أو أفراد من العائلة.

يـــا ليت العالم يتم إصلاحه، يا ليت مثاليـــة المثاليين تعكس ما عليه العالم حقًّا، وأن الخير في البشـــر حتى يوم الدين.

داليـــا في قلبها تؤمن بأن البشـــر أوغاد بالفطـــرة، لا خير فيهم أبدًا والعالم ما هو إلا مســـلخ للخراف الضعيفة التي لن يسعفها الرب و يمنع عنها مصيرها الأحمق الدامي.

قـــرأت عبارة في كتاب ما تقول «المثاليون هم من أحرقوا العالم»، الآن تيقن من الشـــيخ الجالس أمامها، أن المثالية محرقة و مهلكة و مســـؤولة عن جحيمنا الأرضي هذا.

تذكرت وجه يوســـف، المثالي الذي اقتربت منه حد الاحتراق، كيف صنع به رؤيته الطفولية للعالم و عائلته؟

كاد أن يمـــوت، و المثالية الأخرى التي صادقتهـــا طويلاً، نور الهدي، اللعنة على فراشـــة خرجت من الشـــرنقة كي تتحول إلى شعلة من نار لتشـــعل عالم الأقربين، أحبتها فعلاً وشملتها برعايتها كأخت من نفس الدم، فما كان من المثالية إلا أن أضاعت المثالي الآخر و حرمته و حرمتها هي من أن تذوق طعم الحب و الســـلام مرة.

اللعنـــة عليك يا نـــور، اللعنة على كل شـــئ ربطني بك، اختلطت الأفـــكار في رأس داليـــا إعصاراً، أخرجها صوت الشـــيخ الجهوري يقول :

— اصدع لما تؤمر و أعرض عن المشركين، إخواني وأخواتي، لن ينصلح حال البلاد و العباد إلا بالاســـتغفار واتباع سنة الهادي نبينا محمد اللهم صل وسلم وبارك عليه.

انفجرت دموعها، صور متابعات، يوســـف الذي مال قلبها له، نور التي فارقت الجميع بحثًا عن طموح أكبر لتعيش مع وغد، وجه ماهر الشربيني المكســـو بإمارات النفاق و التدليس، الكل يتاجر في هذه البلد، يتاجر بكل شئ و لأي شئ و من أجل أي شئ.

ساســـة و إعلاميون و شـــيوخ و مثقفون و عوام، أين الطوفان من كل هذا يا إلهي؟!

قامت داليا من مجلســـها مندفعة إلى بـــاب الخروج، انطلق علاء على آثارها مما وضع برهة من الصمت غشـــيت القاعة، حتى هز الشيخ رأسه متعجباً ثم أكمل حديثه.

هرولت داليا في الشـــارع بلا هدف، تضـــم ذراعيها إلى صدرها و تبكي بحرقة، ماذا ســـتفعلين يا داليا.

ما هو الخير و الشـــر؟ أتى إلى سمعها صوت منشد، يشق الحجب التي تعميها.

«ماحيلتي و العجز غاية قوتي، فخلصني «

استندت إلى حائط إحدي المنازل القديمة، حتى لحق بها علاء.

- ما بك، خيراً يا داليا؟

- و ما همك إن كان خيرًا أم شرًّا يا علاء؟

بلـــع علاء ريقه بصعوبة، مد كفه محاولا أن يمســـح دمعها المنهمر، محاولاً أن يطمئنها وســـط صراع لا يعرف عنه شيئًا.

- همي أني أحبك، و لم أحب أحدًا مثلما أحبك.

قالهـــا بصوت مرتعش مقاوماً إغمـــاءة كادت أن تتحقق، نظرت إليه داليا نظرة فارغة بلا معني أو إشارة، ثم أشارت إلى مسجد السيدة بأضوائه الخضراء.

- أريد أن أزور السيدة.

لم تنتظر منه إجابة، قامت ثم اتجهت إلى المسجد، خلعت نعليها، ثم دلفت إلى الضريح الكبير، المحاط بالبسطاء المأزومين، أراحت رأسها على خشب الصوان المحاط بالضريح الأربيسكي المعطر، غابت في الموجودات كالنائم.

بعد دقائق فتحت عينيها، و هي تخاطب نفسها و الضريح الصامت.

«أدركت في هذه اللحظة أن هذا الصراع بين الواجب و الألم و الشكوى المكتومة حد الصراخ ما هي إلا احتمالات لمخاض قبل ولادة شئ ما، نحن في ولادة متكررة نعيش حيوات في حياة واحدة و القادم مهما كان يُلزمني بأن أملك إرادة، إرادة حرة لأتخذ القرار الأصوب مهما كانت التبعات».

الاختناق هو المهيمن، لا مفر منه أو ملجأ، أو دعوة تُســـتجاب، سحبت تذكرة المترو الصفراء وأسلمت نفسها للحركة الشبيهة بحركة النمل في اتجاه البوابات. ألا تكف هذه المدينة عن استيلاد الزحام أثناء النهار و أطراف الليل، وضعت تذكرتها في البوابة الممغنطة، نظرت شذرًا للرجل الذي يلتصق بمؤخرتها و لا يبالي، اختناق و غرق.

سمكة هي انتزعت من حوض أسماك الزينة ثم ألقيت في اليم وسط المجهول، وُلِدت و نشأت وحيدة تحت عين جدتها العجوز، الوالدان بعيدان بالإمارات، كل ما نالته منهما مصروفات الشهر و عطلة صيفية وملابس ملونة، عصفور بين الجوارح، بلا سند أو معين.

استندت على سلة المهملات، ساعة، فوتت أكثر من قطار، مرتابة في كل من حولها، ارتدت ثوبًا فضفاضًا و حجابًا داكنًا تحته نظارات شمسية تخفي نصف وجهها. لم تتخذ نفس مسارها اليومي المعتاد، أهملت سيارات التاكسي و لاذت بزحام الإنفاق، تختفي بين قطعان النمل الأبيض و حفاري الأعماق.

عند قدوم قطار تحركت لتدلف قبيل إغلاق الأبواب الكهربائية، شقت طريقها بين الكتل البشرية حتى وصلت إلى الباب المغلق، المقابل و أسندت ظهرها. كان يومًا عجيبًا منذ الصباح، النخاس كشف عن نفسه، ليلة أمس عقب عودتها من السيدة زينب، مبلبلة منكودة، تتنفس داخل بالون، هم أسود يشاركها المرقد و المأكل و حتى لحظات البكاء في دورة المياه.

جثوم له ملامح ماهر الشربيني الحربائية، هجرت فراشها، تريد صخبًا، الصمت يؤجج الجحيم في روحها، كي تسيل الشياطين صديدًا منسابًا مغرقًا. فتحت التلفاز، انتقلت بين القنوات، حتى توقفت عند وجه الحرباء يطل بكامل لزوجته عليها، ماهر الشربيني في برنامجه الفضائي» ساعة مع الشربيني «، عنوان يليق بإعلان لماخور، استسلمت لأفاعيل القدر و تابعته يرغي و يزبد و يرسم حلقات في الهواء بيده، كمحامٍ يدافع عن قضية عادلة.

– لا، بل ألف لا يا حكومة، الانتخابات مهزلة، العوار بيّن ساطع في اجراءاتها، أسألك يا حكومة، إلى متى سيتم استغفالنا؟!!

من موقعي هذا أناشد الرئيس الأب «محمد حسني مبارك» أن ينظر إلى نتائج الدوائر خصوصًا دائرتي بالمنوفية، لن يرضى

بالظلم أبدًا لمرشح شريف، الأمل الوحيد فيك يا سيادة الرئيس،

انفجرت داليا ضاحكة بهيستريا، حركت ساقيها في الهواء و تقلبت على الأريكة، ثم أتت الدموع لواحق، كيف ينام هذا الملعون الليل ملىء الجفون؟!

كيف يتناول طعامه بشهية طيبة وسط زوجته و أطفاله ثم يتجشأ بضمير مستريح، كيف يذهب إلى رحلات الحج والعمرة السنوية و يضع صورته في صدارة الجريدة بملابس الإحرام مجسدًا أسمى مشاعر التوبة و الطاعة و التعبد، هل يُخاتَل الله ويخدعه هذا! كيف و كيف و كيف؟!

ستظل منبهرة دائما بسماكة جلد هؤلاء، على رأسهم رب عملها، في البدء استقصت وراء إشارات زملائها و بعض أرباب المهنة المشهود لهم بالنزاهة، دائما كان التعقيب.

– ماذا؟ أتعملين مع الشربيني، أنتِ بطلة يا داليا.

تتبعت خيط تاريخه، الشاب القروي الذي تخرج في كلية التجارة أو هكذا يقولون و إن شككت بعض الروايات في صحة شهادته العليا من الأساس، إحدى القصص تشير لتعاونه مع الأمن كمرشد عن نشاطات الطلاب الماركسيين في الجامعة، تحركاتهم و أسماؤهم، جاسوس من أخس أنواع جواسيس طرًا، علاقاته بالأمن دبرت له دخلاً شهريًا جيدًا و عمل بإحدى الصحف القومية الكبرى، لا كمتدرب بل كصحفي بعقد دائم و حماية و توصيات مرور إلى كل مكان مستعص. بعد أعوام قصار، تم إزاحة مدير قسم الحوادث ووُضِع الشربيني مكانه رغم غضب الصحفيين الأقدم و الأقدر و الأكثر تمرسًا في القسم، لكن انتصر الشربيني كمن يملك عصا موسى..

بعد أعوام أقصر أصبح أحد الصحفيين المرافقين للرئيس دائمًا في أية زيارة خارجية، لينتشر صيته وتُغرق أخباره و صوره كل وسائل الإعلام، أجاد لعبة إعادة تدوير النفايات في العقل الجمعي المضطرب، يفجر

قضايا عند الطلب و يمدح أشـــخاصًا و سياســـات تطوعًا بكل قوة المنافق المتفاني. حتى تم تصعيده في العشـــر ســـنوات الأخيرة بمنحه مقعد في مجلس الشـــعب، كي يزداد نفوذه و تتداخل أصابعه في كل شق وجُحر.

تذكرت ابتسامته الصفراء المتشفية لها ورائحة عطره المخنث عندما وضعت كشـــف بأسماء بعـــض أصدقائها على مكتبـــه، أسماء انتقتها لبعض الرفقاء هي و «أحمد عزت»، بمعرفتهم، و اختيارهم بإكمال لعبة الإلهاء مـــع داليا رغم أنها لم تتوقع أي خير، الموضوع لن يكون مراقبة أو اعتقال، لكن ما شـــغلهم إخفاء انتفاضتهم بقدر الإمكان.

أحمد عزت، نفسه أخبرها بهذا، و ضمن لها موافقة الرقفاء الضمنية:

- ســـوف يختفون عن الأعين لفترة مما سيجنبهم الضرر، فقط إثبات ولاء منها و كسب وقت مع الشربيني، حتى يحدث أمرًا، تغييرًا جذريًا يطيح بكل من يخشـــون، و حتى هذا اليوم ســـيفعلون كل ما يقدم ذريعة للأمن كي يطاردهم، ســـيكتبون و يكتبون و يصرخون في وجه القمـــع، أفاضت عن إعادة هيكلة العالم و إعادة ترتيبه، قال لها بحدة :
- التغيـــير لا ينفع يا داليا، ما نحتاجه هو الهدم!!، معاول الثورة يجب أن تنســـف الجدار القديم ثم تعيد بناءه، نســـتغل كل الممكن حتى تقديـــم تنازلات أو ضحايا، يجب أن نبني مجتمع المســـاواة و العدالة على أنقاض هذه الأرض الخراب،

تشوش أفكارها أعجزها عن الرد، و إحساسها القوي بأنها مستغلة بين فريقين كمخلب قط أفزعها، وما تبقى من تلك الأمســـية غير صراع و صورة ليون تورتوسكي المعلقة على الحائط المتشقق بفعل الرطوبة.

رن هاتفها المحمول لينتشـــلها من أفكارها، كان اسم علاء السمري يضـــوي على الشاشـــة بمثابرة، وضعـــت الهاتف في الوضـــع الصامت و تجاهلت الأمر برمته تمامًا، عاودت الشاشـــة الإنـــارة مرارًا و تكرارًا حتى استسلمت و ردت.

- داليا اسمعيني بتركيز، حاولي أن تحذري، أمن الدولة يتحرك في جميع الاتجاهات بشراسة غير معهودة، ألقى القبض على قيادات إخوانية و يسارية اليوم و مدونين بلا انتماء، أنا أخشى الاقتراب من شارعي أو حتى الحي نفسه، سأجد مكانًا أتوارى فيه بعيدًا عن الأنظار، بالتأكيد الهواتف مراقبة لكن كان يجب أن أُعْلِمك حتى تأخذي حذرك.

يوم انتهى و ها هي في قطار الإنفاق بين القطيع، لاحت محطة «السادات» تمالكت نفسها و تقدمت إلى الخارج، اتخذت طريقها بين الموتى الأحياء السائرون في شارع طلعت حرب، وقت الظهيرة، دلفت مسرعة إلى مدخل البناية العتيقة، و صعدت السلم قفزًا، دقت جرس باب شقة في الطابق الثالث، انفرج الباب عن وجه أحمد عزت الأسمر.

- ما بك؟ مظهرك عجيب يا داليا؟!!

دخلت إلى الردهة، المكتظة بشبابٍ من الجنسين بمختلف الأعمار، منهم من تعرفه و منهم الغريب عن دائرتها تمامًا، منكبون على أجهزة الكمبيوتر في مجموعات و بعضهم في غرفة أخرى يكتبون لافتات بصبغ أحمر قانٍ، يعملون كشغالات النحل بلا كلل أو ملل.

انتحت بأحمد جانبا محاولةً أن تشرح له ما حدث و مكالمة علاء المريبة لكنه قاطعها بحماس:

- العمل كما ترين على قدم و ساق، منذ الفجر لم يغمض لأحدنا جفن، و حماس الشباب كافٍ لأحداث معجزة يا داليا.

تخلصت من حجابها كمن يفك أغلالا وطوحته على امتداد يدها، انتزعت السيجارة من علبتها وأشعلتها و اتجهت للمطبخ..

- لو لم أشرب قهوة الآن سأنفجر، تعال.

بدأت تعد قهوتها و أحمد ينظر لها مستريبًا، أشعلت سيجارة أخرى من بقايا الأولى وقالت:

- أحمد! علاء السمري اتصل بي فجرًا، هناك حملة اعتقالات كبرى في أنحاء البلد، أنا مرعوبة لا أتمالك نفسـي و فكرت كثيرًا فيما حدث، ماهر استغلني و أنت أردت لعبة موازية!

اللعنه يا أحمد، أشعر أني متورطة أشعر أنهم يراقبون حتى أنفاسي، وكأنني عارية بلا ستر.

- لا تقلقي قلت لك نحن نكسب وقت، و أظن أن ولاءك شبه محسوم عند الشربيني و رؤسائه، يا داليا نحن فقط نريد وقت حتى اللحظة المنتظرة.

- أية لحظة؟

أتظن إن دعوات موقع التواصل الاجتماعي من الممكن أن تصنع ثورة بلشفية جديدة، لا أظن يا أحمد..

- بالطبع لا أعني هذا، إنما ستكون هي بداية الغيث، سنلفت الانتباه العالمي لقضيتنا، لكن ما هذا الإحباط الذي في صوتك، أنتِ غريبة تمامًا.

- اكتشفت أنني أخاف يا أحمد، اكتشفت أنني أخشاهم و أخشى الأذى، أنني أضعف من كل تصوراتي.

الاختناق، الاختناق يعلن عن ابتسامة ساخرة، ارتعشت يدها فسقط قدح القهوة، تعالت أصوات عنيفة من طرق و صراخ من الردهة الخارجية و أصوات وقع أحذية عسكرية، اندفعت هي و أحمد، إلى الخارج ليستعلما الأمر، ذابت صرختها وسط الصراخ مع أول صفعة أطاحت بها على الأرض، بين الإغماء و الوعي رأت الباب المهشم و الجنود المنتشرين يكيلون الضربات لزملائها و شرطيين بزي مدني يصادرون اللافتات و أجهزة الكمبيوتر، رأت أحمد يحاول الزود عنها لكن أطاحت به قبضات العسس ليهوي رأسه على الأرض جوارها متفجرًا بالدماء،

الاختناق اتسع أكثر فملك محيطها حتى ابتلعها ثقب أسود كشعاع من نور.

(8)

نور الهدى فريد عبد العظيم

عانق اللون الأخضر زرقة السماء على امتداد البصر، حقول ممتدة حتى منبع الآفاق، مزارع كروم تؤطر المشهد بشتى ألوان الكون، تهادت السيارة الفان العتيقة بحمولتها، سبعة موسيقيين، جلست نور في المقعد المجاورللسائق، مطلقة العنان لروحها لتطير فوق الحقول المترامية. جان استغرق في حديث مع الجميع، بصخب يتخلله حركات الأيدي كعادة ابناء البحر المتوسط، حتى انتبه لسكونها الودع تطلعًا إلى البعيد.

- ما بك يا فراشة؟

التفت إليه مبتسمة، واضعة يدها على رأسها بدلال و براءة.

- لاشئ يا جان مستمتعة فقط بالمشهد، الريف هنا قطعة من الجنة.

أكد على كلامها ثم أشار إلى بيت ريفي من طابقين أبيض اللون على جانب الطريق و قال:

- هذا هو المكان، بيت المواطنين الكبار، قد اكتشف أحد العباقرة أن كلمة مأوى عجائز لا تليق فقرر أن يشير إلى نفس المعنى بمواطنين كبار، و أصبحت كلمة العجائز لها وقع التجديف في فرنسا، أنا لا أهتم، المعنى عندي واحد، لكن الحضارة الغربية مغرمة بالتلاعب اللغوي، كأن هذا سيغير من حقيقة أن هؤلاء المجموعة من كبار السن مهجورين بلا بيت أو عائلة تفتقدهم، لكن التقدير حتى لو مكذوب مطلوب يا فراشة، نحن الآن نشعرهم أن التقدم في السن ما هو إلا ترقية في وظيفة لا تكهين كما في الآلات و السيارات.

تعجبت نور من هذا الرجل، يأسـرها دائما بتحليل الأمور، فيلسوف هو أم حانق!!

لا تنكر شعورها أنه مثالي جدًّا لكن له أمراضه كباقي البشر، بساطته تحيرها، يوسف كان هكذا مثالي بلا شك، لكن شياطينه انتصرت، قالت لجان معقبة:

- أراك دائما ساخرًا لكن أرجح أن داخلك طفلا بريئا يرى العالم مكانًا أفضل.

- كل ساخرٍ متشائم يحمل داخله إنسانا مثاليا فقد الأمل يا فراشة..

- توقفت السيارة في الباحة الأمامية من البيت، نظيفة مزينة بأحواض زهور مختلف أنواعها، هبطت نور من السـيارة على الأرض المفروشة بحصـى دقيق ملون، التفتـت إلى جان المسـتغرق في إنزال حمولة السيارة من الآلات الموسيقية، يلهث و يتعرق رغم برودة الجو، الجلبة التي آثارها جان و رفاقه اسـترعت انتباه المقيمين ليقتربوا جماعات و فرادى من الشرفة، بمصاحبة العمال و طاقم التمريض، يتشاركون جميعا في ابتسـامة بشوش مريحة، ناولها جان حقيبة كمان.

- هذا لك، لن أفوت الفرصة، سـتنضمين إلينا، إن كنت تحبين «باخ» و «فيفالدي».

- لا تقلق، لن أكون متطلبة.

استقبلتهم مديرة الدار استقبالاً حارًا، امرأة في العقد الخامس شعرها أبيض حريري تنبعث منها حيوية شابة بالعشرين، ثم قادتهم إلى المدخل..

هبت رياح ناعمة حركت طرف ثوب نور فدبت في أوصالها قشـعريرة محببة، كي تتبعهم سريعًا إلى الداخل..

البهو الفسيح رتبت به مقاعد خشبية في صفوف أمام مسرح صغير له أرضية قرمزية.

اتخـــذت نور مقعدًا لها بين أعضاء الفرقة الموســـيقية تتبادل نظرات ود و تشـــجيع معهم، انضم الحضور كل يختار مقعد، بعضهم ظل على كرســـيه المتحرك و تحلق العمال و الممرضين حول القاعة، كل ســـعيد تواق لســـاعة الموسيقى، ليبحر مع عالمه القديم، فسحة لاستعادة الروح و كســـر الروتين اليومي و تراكم تجاعيد الأيام.

نـــور قررت أن تعبيء رئتيها بهواء الحريـــة المحرومة منه، هذه الرحلة انتشـــلتها من هواء عاصم الثقيل وأضغاث أحلامهـــا، انفصال حتى لو لوهلة عن واقعها، أن تستعيد أناملها ملمس الأوتار، رحلة إلى نور الهدى القديمة.

غريب أمر البشـــر يحنون دائمًا إلى الماضي حتى و لو كان قاسيًا، من يعيش في القرن الحالي يحن إلى القرن الماضي، و من كان يعيش في القرن الماضي يحن إلى ســـابقه، كل يرسم لنفســـه يوتوبيا زمانية، لكن الماضي كان جحيمًا لأهله كما الحاضر، الجحيم يســـكن في الذاكرة و لمحات الأيام الخوالي، لكن الحقيقة هي التعلق المرضي بالطعم الأول للأشياء، باكورة الخبرات و انعكاساتها في أرواحنا مهما كانت سيئة أو كارثية.

مع إشارة جان بالاســـتعداد، قطبت نور جبهتها بتركيز، كأنها أول مرة ترى نوتة مطبوعة، تأهبت لبداية المعزوفة متجمدة كتمثال مرمري لآلهة إغريقية، لتبدأ الموسيقى في الانسياب.

هامـــت نور مع موســـيقى فيفالدي الوترية كفراشـــة تراقص النار، ســـترفجانزا الأوتار الفينيســـية تتصاعد، و تفتح أحد أقفال أغلال نور الهدى المغلقة.

آه يا يوسف آه من الطيف، كيف يتجلى الحضور في الغياب؟

أن أحمل ذراتك في صـــدري، رائحة عطرك و ملمس جلد يدك على جلدي، لعلـــي فطنت الآن إلى معنى مقولتك.

— أريد أن اختبيء في مسامك يا نور.

أنت بالفعل تســـكن داخل الأعصاب و الحواس، أمنية أخيرة، أن يضع الكون في الطريق فرصة ثانية حتى أنبعث من تحت رمادي كي أولد من جديد، أن أسير بين العوالم شفيفة عارية من أحمال الفراق و غباء العناد، غاب البهو بتفاصيله في الموسيقى، سابقت نور الأجرام و الشهب، احتضنت نجم يولد، توحدت مع اللحن، نور هي التجســـيد الكامل لكيفية التقاط نوتة واحدة تداعبهـــا، تراقصها، تعتصرها و تحتضنها ثم تصعد بها إلى قمة جبل الوجد المنتشي كي تشاركها القفز إلى سفح الخلاص.

عادت روحها إلى الأرض عندما تعالت أصوات الاستحســـان و المديح، اندفعت نحوها مديرة الدار.

- ما أروع أناملك يا بنيتي، بوركت دائمًا و أبدًا. انكمشـــت نور خجلاً من الإطراء، أشارت المرأة إلى ركن القاعة والذي نصبت عليه طاولة عامرة بالمشـــروبات و الأكلات الخفيفة، ناولها جان صحنًا خاليًا، لم ترفض بعد أن عفت نفســـها الطعام أيامًا، اختارت بعض المعجنات و ملأت كأسها بعصير البرتقال.

خرجت نور إلى الشـــرفة الخارجية التي تتخللها أشـــعة شمس يناير الحنون، رائحة الجو تبشـــر بغياب الأمطار، انضم لها جان في مجلســـها بالأريكة الخشـــبية المطلة على الحديقة.

- كنت مشعة يا فراشة، مستوى عزفك مبهر لشخص هجر الموسيقى منذ ثلاثة أعوام.
- نعم كما قصصت عليك، لكن شبحها يسكنني.
- أكملي إذن حكاية شبحك، أتشوق إلى المزيد من قصص الرعب.

ضحكت نور و رشـــفت جرعة من العصير، ثـــم قالت مبحرة في عباب الماضي:

- عاصم، الشيطان هو الفيصل بين حياتين، بعد معرفتي و انغماسي في يوسف مرت أشهر، كنت أشعر أن هناك شيئًا يخفيه عني، حاسة المرأة

السابعة، احترمت رغبته في عدم التحدث عن عائلته التي مع الوقت و بمساعدة صديقتي داليا علمت حجم سطوتهم و تغول الراوي الكبير و توغله في عالم الكبار بمختلف المجالات، مال وجاه و سلطة.

ذات يوم دعاني يوسف إلى حفل عيد ميلاد أخيه الأكبر، في أرقى مطاعم القاهرة النيلية، يوسف كان يرتجف، مكفهر الوجه كمن يذهب لعزاء، تعرفت على شريف و أصدقائه، شباب حيوي، فخر صناعة الطبقة المخملية، شباب أصحاء نحتت أجسادهم بمعاول الراحة و النوادي الصحية، لم يمسسها جوع أو شقاء، حياة صحة تقف على أقدام، يوسف الغريب المنزوي، يحتمي بي أمامهم، لا أعلم لمَ؟! بعد دقائق طلب مني شريف أن أعزف شيئًا لهم، إكرامًا ليوسف وافقت، أحضر لي يوسف كماني من السيارة، دائمًا كان معي، صمتت القاعة نزولاً على رغبة شريف، ارتجلت في العزف لا أذكر، إلا محاكاة وجوه من في القاعة على أوتار الكمان، عن هالة يوسف المنطفئة عن هلعه الخرافي و ارتجافه كمريض حمى، انتهيت مع فتور الجمهور، و عودة موسيقى »الهاوس« الإلكترونية القبيحة، عدت إليه ضممت كفه البارد، فاحتضنني، ظل ملتصقًا بي التصاق طفل بأمه، اقتحم مجالنا صوت كالفحيح.

— ألن تعرفني على الجميل يا جو؟ كان هذا عاصم جبر بسحنته الباردة و نظراته الشهوانية السكرى، انكفأ يوسف أكثر متقوقعًا في ذاته و زاد تعلقه بيدي كمن يخشى الغرق، أجابه إجابات مقتضبة، حاول عاصم خلق حديث معي حول أي شئ، عف لساني الرد و تشاغلت مع رفيقي المستنفر كقط بري، ذهب عاصم و عاد أكثر من مرة، لا يهبط بنظره من عل ؛ أشعر به يمسح جسدي خلية خلية، طلب مراقصتي لكني رفضت رفضًا قاطعًا، أشرت إلى يوسف أن نغادر، تحركنا متجنبين نطاق عاصم الحيوي قدر الإمكان، حتى تهاوى إلى سمعنا صوته الكريه.

— لا أتصور كيف ترافق مهرة كهذه، مدمنًا كهذا؟ اللعنة على الرواي و ولده.

توقف يوسف فجأة ثم غير مساره مندفعا تجاه عاصم يلكمه و يركله بجنون، ضربات عنيفة لكن طائشـــة، لينقض عليه عاصم يطرحه أرضًا و يفترسه بكل وحشية، انتبه شـــريف فأتى مسرعًا ليدفع عاصم بعيدًا ثم يصرعه بلكمة واحدة..

استند علينا يوسف حتى السيارة، سأله عن قدرته على القيادة، طمأنه يوســـف أنه بخير، لكني أنا من تطوعت بالقيـــادة، ثم انطلقت به، جلس ينتفض يســـيل من أنفه الدم و أنين مكتـــوم، أفلتت منه كلمات غاضبة عن عاصم ابن شريك أبيه و منافسته الدائمة له، لا يعلم لماذا يعشق أن يتحرش به دائمًا، في المدرسة والنادي، أنا غرقت في كلمة عاصم، مدمن!!!

عادت و تكررت كأسطوانة تبدأ وتنتهي في رأسي!!

بعد أيام تقابلنا ســـألته عن سبب إشارة عاصم إليه كمدمن!! أنكر و تملص، حتى أتى يوم حفلي الأســـبوعي بالساقية، حاله كان أشبه بيوم المعركة نفس الارتعاشـــات و الرعب و الانهيـــار، بحثت عنه بعد الوصلة الأولى كان قد اختفى، خرجت اقتفي أثره حتى الســـيارة، وجدته يفرد مسحوقًا أبيض و يشرع في استنشاقه، ركلت باب السيارة و اشتعلت براكين لوعتي، اتهمته بالكذب، الإدمان يمكن الفكاك منه لكن الكذب مستحيل، وعدني أن يقلع، بالفعل بعد أيام أرســـل إلـــيَّ أنه التحق بمصحة لعلاج الإدمان، كنت أزوره أسبوعيًا، لكن هلعي من تخيل عودته أبعدني أكثر..

في غضـــون تلك الفترة حام عاصم مرات حولي، ظهر في كل مكان، هداياه تطاردني مـــن البيت إلى الأوبرا حتى مللت من ردها إليه، ظله في كل مـــكان، ظهر في حفلي مرة و تبجح ألقيت في وجهه كأس ماء، لكنه كان دئوبًا، كبرياؤه هو ما جذبه تجاهي، بعد أســـابيع توفي أبي بسكتة قلبية على مكتبه لتكون ضربة قاصمة..

انعزلت عن العالم تمامًا إلا داليا و المايسترو جميل، شعرت بالاختناق و بحصـــار لا فكاك منه، أردت بابًا للهـــروب منفذًا إلى عالم آخر، أردت أن

أرتـــاح، بعيدًا عن الركض و التهميش و انكســـار الأمـــل و انتحار قصة حب، دخل عاصم حياتي مرة أخرى باستراتيجية مغايرة، أسلوب العاشق الشهم، اعتذار و قناع لشـــخص آخر، أجاد تقمص الدور، أو هكذا أقنعت نفســـي، قررت أن أنسى كل شيء، تركت نفســـي أهوي في عالم عاصم، أسهر، أشرب، أرقص كل ليلة توقفت عن الرد على مكالمات داليا، و سؤال المايسترو الذي خاب رجاؤه يوميًا فيّ..

علمت أن يوسف هرب من المصحة و سأل عني لكنهم أخفوا عليه ارتباطي، حتى جاء اليوم المشـــئوم، يوم حادث الســـيارة و مقتل شريف أخو يوسف،

سأصدقك القول قد حاولت رغم كل شئ يا جان حاولت أن أتفانى، أن أترك كل شـــئ من أجله، يوســـف قدم لي كل شئ، يكفيني منه هذا الوجود الغامض الذي يشـــعرني بالأمان، في خلفية عالمي، لكنه موجود، ملاك حارس يرعاني رغم المســـافات يا جان حتى عندما كنت أقابل هذا العشق ببرود و شعور بالعدم و الرفض أحيانًا كنت أراه أمرًا من المسلمات و إن جحدته، كنت أعلم أنه يعرف لكنه لم يفصح عن شئ، أعلم أنه رآني أراقص عاصم جبر في وســـط كؤوس الخمر و الموسيقى المفتعلة و وعيي المتقلب، أعلم جيدًا أنه علم و لم يتكلم، أخذ الطعنة في قلبه و صمت.. .

لماذا لم تتحدث يا يوسف، لماذا؟ أهنالك حب تحت السماء هكذا؟

أقنعة الزيف الكاذب كفستاني الأحمر المرقط بالأسود تركت ندبة، ما توقفت عن النزف في روحه يوما. فقط يا جان تركني أرحل في ســـلام و احتفظ مني بجحيم يتجدد داخل صدره.

نفث جان دخان غليونه بحنق لا يتحمل السخافات أو التبرير و قال لها.

- لمَ عاصم!
- هل يعاقب أو يلام الشيطان على غوايته؟
- نور هي من يجب أن تصلب أو تدفن على القمر..

صدمت نور من صراحة جان، تدارك الأمر باعتذار، شعرت أن حكايتها لمست وترًا مجروحًا داخله، طلب منها أن تكمل متظاهرا بالحيادية القديمة.

- بالطبع اشتبك عاصم مع شريف في صراع الديكة أمام النادي و يوسف كصنم ينظر إليَّ من وسط الظلام، بعد مرور أيام و أنا استعد للزواج، علمت بالحادث و موت شريف، هرعت إلى المستشفى زرته أمام نظرات والديه الملآنة كرها و حقدًا، وضعت لوحتي جوار سريره و رحلت، بعد شهور من زواجي حدثت الخلافات بين عاصم و أسياده، عمولات ما أخّل عاصم بتسديدها لهم، ليعاقب بفتح ملفات قضايا اختلاس و قروض، فقرر أن يأخذني و نهرب، رحلنا عن مصر بملابسنا فقط إلى هنا، لولا أموال عائلة جبر المهربة إلى بنوك سويسرا لكنت أصبحت عاهرة من أجل الخبز، تخيلت أن باريس ستكون صفحة جديدة، بداية مبشرة، لكنها أصبحت منفاي و سجني يا جان توقفت الموسيقى و ذبل الأمل.

ربت جان على كفها بأبوة حانية و قال وهو يتجه إلى السيارة ليلحق بالمغادرين:

- و ماذا حدث ليوسف؟
- رحل، ذهب إلى الخليج، أراد استهلاك أيامه..

(9)

داليا جلال حجازي

الأرض الباردة، برودة رحم المحيط، حيث الوحشة و الشقاء السيزيفي العبثي السـرمدي، ظلام دامس كبطن حوت يونس، يشق جدار الصمت صوت قطرات ماء رتيب إيقاعي اللحن على الأرضية، صوت حارق للأعصاب وسط العدم و البلل و أنات الأطراف المتشنجة كأعواد البوص.

تحملت داليا الوهن لتستند على معصمها كي تدفع نفسها لتستند على الحائط بظهرها، تشنجت عضلات الكتف مع ملمس بروزات الحائط المدببـة، أصدرت أنينًا كأنين كلب احـترق ذيله، أتى من الخارج صوت نشـيج يدمي القلب، تشـنجت أكثر و انكمشت أكثر فأكثر، ظلت في جلسـتها لا تتحرك، جثة هامدة، عالقة في منطقة بـلا زمان أو مكان، كبرومثيـوس عالق بين جبلين يدور في فلـك انتظار الرخ كي يأكل كبده لينبت له كبد جديد.

فتح الباب الغائب في الظلمات، تسـلل ضـوء ضعيف أحرق حدقتها كشـمس الظهيرة، حجبـه خيالاً رجلين ضخمـي الجثة، حملاها من ذراعيها، ملامح الزبانية المتعارف عليها، وجوه صلدة متهدلة الأشداق بلا انفعالات، و شـوارب كثة تقترن بالرجولة و العُتّو.

كادت أطراف أصابع قدماها ألا تلامس الأرض من السحب العنيف، عبر ممر طويل ارتصت على جانبيه أبواب الزنازين الحديدية، صعدا بها عنـد نهاية الممر درج و هي تقاوم الانزلاق حتـى وصلا إلى ممرٍ أرحب و أفضل إضاءة، دخلا بها إلى غرفة كئيبة المنظر، وضعاها على كرسـي وحيد، أحدهما شرع في تقييد معصميها و ساقيها لتثبت بالكرسي تمامًا،

أما الآخر فوضع جهازًا يشبه اللاسلكي و أخرج منه سلكين عاريين أوصلهما برأسها، حكم إعدام بالكرسي الكهربائي كالأفلام الأمريكية، زارها الخاطر فصرَّت على أسنانها، ضغط الرجل الزر لتندفع موجات نار تنهش أطرافها، ياللقريحة أول غول شرير رأى في اختراع أديسون استخدامًا كهذا، مع اشتداد تشنجها فصل الرجل الكهرباء، ثم فحص حدقتها ونبضها، أمهلها دقيقة ثم أطلق الوحش الخفي من عقاله مرة أخرى، اشتعلت خلايا رأسها، حتى شعرت أنها عادت إلى زمن محاكم التفتيش، وسائل التعذيب الأقل تنميقًا والأكثر دلالة على الوحشية، صندوق المسامير و الحلم الإيطالي، ما أبدع مسميات أدوات أتت من قاع سقر.

بعد مرورها بالمتتالية التصاعدية من الصرع الكهربائي عدة مرات، عبرت عتبات الألم وتخطتها، حيث تحول الأنين و العذاب إلى مجرد طنين في بقايا وعيها. حرراها من قيودها و حُملت غائبة عن الوعي إلى زنزانتها الأولى، ألقوها كجوال مهمل في وسط الغرفة المقبضة ثم تركاها و رحلا..

انتهت عندها استغاثات الإنسان في النواصب، الدموع فقدت مرفأها بين جفونها، النهاية شبح ساخر يتسلى بمشاهدتها، جثة هي كحال الجثث الطريحة في القبور، الإنسان ميراثه الموت ليس إلا، قبض الريح الكفاح و المثابرة، هل يشفع لها انتصار أو ثبات على رسالة!! أو حتى بناء أهرام أمام الموت المخايل كقط يلاعب فريسته، لا شيء، فيا ليته يجهز عليها بنصل خنجره البارد، كم تشتهي معانقة الفناء و التحلل. الفارق بينها وبين الأموات، التساؤلات، تلك القنابل الفكرية بعلامات استفهامها الملتوية كعصا سليمان، تسيل من عقلها كنزيف لا يتخثر..

ماذا أصاب أحمد و الآخرين.؟ أين وعد الشربيني بالحماية؟ هل كانت خطة مقصودة مرتبة أم حظها السيء هو الذي قادها إلى الفخ؟ هل تحولت من مخلب قط إلى أضحية بلا قيمة؟ ما الهدف من وراء كل هذا؟ الفرعون لن يتأثر ببعض الهتافات، لكن أيبتغي قربانًا كل حين؟ أهو ربنا الأعلى سيد النهر الذي لا يحاسب أو يسأل؟ و ما نحن إلا وقود

في آلة بخارية عظمى تمد عرشـــه بطاقة تثبته على قمة الهرم، صراعنا المحموم بلا طائل، ما الإنســـان إلا حيوان تضخمـــت عنده الأنا فأعماه الغرور، مقاومة ضد فكرة الفناء بذاتها، نحن نحيا فقط تســـيطر علينا فكرة عـــدم الغياب، أن نخلد، نقش على حجر، لوحات، موســـيقى، حتى نشعر أننا مســـتمرون، أمل في ألا نسقط يومًا من ذاكرة الحياة.

ما الهدف من الضمير؟ و الخير؟ إذا كان الحكم اليوم للخبيث الأشر، أين أنت يا إلهي من كل هذا؟

لماذا احتجبت و تركتنا وســـط الذئاب؟ أين نـــورك في الظلام؟ أين رحمتك و عدلك؟

أما زلت تعبأ بنا أم انتهينا إلى مايشـــبه حبات رمل مهملة على بساط الكون؟

ما الهدف أن تلقينا في صراع مع أنفسنا و مع الآخرين وتتركنا؟

أهي تجربة أخلاقية ما تختبرنا بها؟ أين المعطيات أين العلة؟ أين أنت يا إلهي؟

زادت عليها ارتجافات الحمى، و ظل لسانها يلهج بعبارة واحدة:

- يا ليتني كنت هباء منثورا..

كرر الحارســـان نفس الطريقة لأيـــام متتالية، لا تعلم عددها، حتى اعتادت خلاياهـــا الكهرباء، إلى أن أتى يوم حملاهـــا كعادتهما لكن لم يتجها إلى غرفة بطاريات الشـــحن، بـــل عرجا بها إلى مصعد حملهم إلى طابق مبهج الألوان كعالم خرافي، ممرات تفترش بالسجاد الأحمر المطرز و حوائط بيضاء مصقولة لامعة، و أصص نباتات منتشرة عند الأركان، أدخلاهـــا إلى مكتب معبأ بروائح المنظفات و معطرات الجو، رائحة ثقيلة لها حضور طاغ في حواسها المنكودة، أجلساها على مقعد جلدي مريح أمام المكتب الفخم، تركاها مـــع عذاباتها، بعد قليل فُتِح الباب ليدخل رجل في العقد الخامس وســـيم القسمات رياضي كأحد السباحين الأولمبيين،

نزع سترته و وضعها على مشجب خشبي ثم جلس أمامها يقلب في دفتر حكومي شرير المظهر، أغلق الملف ثم حدق في داليا، نافذًا إلى عقلها و أعصابها، يعري المجهول و المخفي، المكنون في غياهب نفسها، يتحول إلى مرآة تعكس مدى عجزها و ضعفها و تشظيها.

- داليا، كيف حالك اليوم؟

لم تجب داليا من سخافة السؤال البارد، رسمت ابتسامة بصعوبة لا توصف، وضع الرجل ورقة أمامها و قلم ثم قال:

- يبدو أن إقامتك عندنا كانت مريحة، هيا يا داليا وقعي، هذه اعترافاتك.
- أنا لم أستجوب من الأساس!!
- لا يهم نحن قمنا بكتابة المطلوب، وقعي فقط و ستخرجين، حتى أوفر عليك القراءة، الورقة تحدد أسماء أشخاص قاموا بالتخطيط لقلب النظام الحاكم عن طريق تنظيم يمهد لعمليات إرهابية موسعة، أنتِ خارج القائمة، لتحمدي الله أننا اعتبرناكِ شاهدًا في القضية و الفضل للأستاذ ماهر قد أوضح الصورة كاملة... هيا هيا، ألا تريدين العودة إلى الشارع؟

يا له من لطيف من اللطفاء، يطالب بشهادة حتى يتسنى له حمل أشخاص أنقياء بالفعل إلى الجلاد راضيًا بتمام واجبه و مستحقًا لأكاليل الغار كالفاتحين، لم تملك ذرة جدال في قلبها، لا فرق ؛ الواقع واقع بالفعل، لن يوقفه تظاهر بالبطولة أو الرفض أو المقاومة، العفن هو الحاكم صاحب الكلمة العليا هنا، إن رفضت ستزيد من تعاستها و تشفي الجلاد، و ستعود مرة أخرى صاغرة توقع، التقطت القلم كأنه أفعى تجلجل ثم مهرت الورقة بتوقيعها الثلاثي، ابتسم الضابط برضا ثم ضرب زر الجرس الكهربائي ليدخل الحارس الضخم.

- أتمنى أن تنسي كل ما حدث هنا، لأنه لم يحدث، فهمتيني؟

نحن نحميكم من أنفســكم و نفكر لكم، لا داعــي إذن لتمرد أو رفع الرأس بتكبر، سيصحبك الحارس حتى الباب، أتمنى ألا أضطر لرؤيتك ثانية يا أستاذة.

استندت على الحارس الذي أظهر تعاطفًا عجيبًا، صاحبها حتى باب المبنى الخارجي، وجدت نفســها في أضعف حالات الضعف، استندت على الحائط مقاومة الســقوط أمام نظرات المارة الفضولية المتجاهلة، أرادت أن توقف تاكسي بأي طريقة، توقفت سيارة فارهة مهيبة جوار الرصيف، فتحت نافذتها الخلفية ليطل منها وجه ماهر الشــربيني قائلا:

– كفارة، اصعدي، سأوصلك البيت، لكن عدي الجمايل.

صعدت داليا إلى الســيارة لا تقدر على أن تفــرد ظهرها، أخبرها أنه بمجرد أن علم بالخبر أجرى اتصالات بأسياده مشيرًا إلى أنها أحد أتباعه المخلصين، بالطبع لم يرد اللواء كلمة لشــربيني فأمر بســرعة الإفراج عنها، أشاحت داليا بنظرها إلى الطريق متجاهلة ثرثرة الشربيني، يا ليت نهاية العالم تبدأ اليوم، و تكون هذه المدينة أول ضحاياها، المدينة المتهتكة، بشــوارعها الملأى بأطفال معدومي المستقبل و أمهات مدمني التضحية و التبجح، سائقي التاكسي و ســيارات الأجرة في تبادل مستمر للسجائر و الســباب و الإشــارات البذيئة، عمال مصنع ما معتصمون أمام أسوار مجلس الشــعب شــبه عرايا مهددون أهل القبة بحرق أنفسهم و عيالهم اعتراضا على بيع أرزاقهم الشــحيحة، باعــة جائلون يركضون حاملين بضائعهم العبثية هربًا من رجال شرطة المرافق الذين أزعجهم وجود باعة للولاعــات الصينية الصنع و لم يزعجهم مقاهٍ التهمت الأرصفة بالكامل، أمين شــرطة يلتقط ورقة مالية من ســائق حتى يتغاضى عن وقوفه في الممنوع، امرأة تكيل الشتائم لشاب رقيع تحرش بها وسط تحلق المشاهدين الصامتين، حشود تســير، حشود تتحلل، حشود بلا إطار، بلا إنسانية، في بلد ما هو ببلد!! مجرد كائنات تعيش في شــبه غابة لا يصلح معها أي تغيير أو علاج.

صدقت يا أحمـــد الهدم هو الحل حتى ينبعث عالم جديد، هذا المكان هـــذا الكوكب هذا العالم المأفون يجب أن ينتهي.

هذه المدينة ليســـت لنا، ليســـت لأصحاب الحلم، لا تعرفنا، يجتاحها جنون بألف قناع و مسمى، ونحن نصارع من أجل منفذ نور، فتغلق الكوة في أعيننا فنهرب إلى غياهب الجب ننتظر بعض الســـيارة، لكن بلا مجيب، نرى الشر تحت الرماد، ما أفاد التحذير من الأبراج التي سكنتها الأفاعي، لن تكون هذه المدينة يومًا لنا، فلأصمت و أجلس وحيدة تحت الســـاعات الذائبة أشاهد الظلال تتجمع في الأفق، فلا أنبياء سيأتون..

(10)

نورالهدى فريد عبدالعظيم

أشار جان إلى دير للرهبان لاح في الأفق، طلب من السائق أن يعرج عليه قليلًا، اعترض الشاب على طلب جان الغريب و تحجج بموعد في باريس، لكن جان أصرَّ موضحًا أنه يطلب دقائق معدودات، انصاع السائق متخذًا طريقا ترابيًّا ممهدًا بين الأشجار السامقة، وجّه جان حديثه إلى نور :

- يا فراشة استعدي لزيارة أجمل بقعة في العالم، يبدو أن الرب ضل بنا الطريق حتى تعثر علينا الجنة.

توقفت السيارة في براح أخضر مكسو بالأعشاب و أوراق الشجر الساقطة، كان المشهد يخلب اللب، صفوف من الأشجار بنفسجية الأوراق تشكل نصف دائرة تحيط بنبع رقراق.

- اقتربي يا نور.

قالها جان وسط لهاث متقطع، مياه النبع تنبجس من تحت صخرة اكتست بطحالب داكنة الخضرة، و ظلال الغصون تداعب وجه النبع بحنان جليل و رقة ناسك متوحد، احتل الدير خلفية المشهد بعظمة قوطية تبث رهبة القدم و الخلود، ساعد جان نور على الجلوس على حافة النبع و اتخذ بقعة متربعًا، أمسك بغصن صغير أعجف داعب به الأرض، استفسرت نور عن المكان و ما يشكله من خصوصية له، ابتسم وهو يحاول أن يجعل ورقة شجر تطفو على صفحة الماء ثم قال:

- النبع هذا أقدم من الدير يا فراشة، الدير بُني بسبب وجود النبع في الأصل لخدمة الحجيج.

- خدمة النبع؟! كيف هذا أرجوك أفصح يا جان.

- منذ قـــرون يا نور كان هذا المكان مجرد غابة موحشـــة، يخشـــاها الفلاحون و يأمرون أبناءهم باجتناب الولوج إليها، في القرية كانت هنـــاك صبية صغيرة تُدعى أنا ماري لافين ابنة أحد القرويين، البنت ولدت بمرض عضال شـــل حركتها تمامًا، لازمت البيت دائمًا، حتى أتى يوم عيد ميلادها الثاني عشر، أخوها الأكبر مارتان أراد أن يروح عنها، وضعها في عربة يد صغيرة ممنيها بنزهة ترى فيها الشـــمس، جال بها القرية حتى وصلا إلى التل المشرف هناك على الغابة، والذي يشغل موضعه الدير الآن، زاد من مزاحه و شجعته ضحكاتها الراضية، أفلتت من يده العربة لتنزلق عبر التل حتى تصطدم بالأشـــجار هنا في الغابة، هلع مارتان ظانًا أن أخته قد قضت نحبها، عاد إلى القرية طالبًا النجدة، انكســـر النهار و هم في بحث مضنٍ نتيجته خيبة أمل و لم يعثـــروا على أثر للفتاة القعيدة، كـــي تبيتَ القرية في حداد و عويل، حتى طلع الفجر، وقفت القرية كلها مشـــدوهة تنظر إلى أنا ماري لافين، تمشـــي على قدميها بـــكل صحة و عافية، انهمرت آلاف الأســـئلة على رأس الفتاة، حتى أحضر أبوها كاهن القرية ليفسر المعجزة مســـلحًا بكلمات الرب يســـوع، قال الناس إنه مس شيطاني أصابها من الغابة المسحورة، دخل الأب سباستيان مهرولًا و أمر الأب بإغلاق الباب و تركه مع البنية علـــى انفراد، اتبع الكاهن خطوات الكشف عن أي روح شريرة حتى يئس، تلا آيات مباركات من الكتاب المقـــدس فلم يقع أي تأثر على البنت، عند انتهاء حيله وضع الكتاب المقدس جانبًا و قال لها إنها ســـليمة لم يمسسها ضر، سألها عن ما حدث وراء التل أجابته الفتاة بأنها بعد تحطم العربة فقدت الوعي، لكنها أفاقت على يد تحملها ثم تضعها جوار الصخرة، كانت امرأة باهرة الحســـن ترتدي خمارًا أزرق اللون، لم تتحدث المرأة بل اكتفت بالبسمة المريحة المطمئنة، مسحت بيدها على الصخرة فانبجس الماء

منها، أخذت مسحة من الماء ثم دهنتها به ثم وضعت قطرات على الجبهة ففت البنت، استيقظت لتجد نفسها تملك القدرة على السير، استمع الأب لها قاطبًا حاجبيه الكثيفين، سألها:

- من تكون المرأة؟ هل شاهدتها من قبل في القرب؟ قالت « أنا»: إنها رأتها كثيرا، استحثها الكاهن على كشف هوية المرأة، أشارت « أنا « إلى تمثال من الآجر للعذراء على الطاولة محاطًا بالشموع، إنها هي، فأغشي على الأب سباستيان في التو، انتشرت القصة في ربوع القرية، كي يبدأ أهل القرى المجاورة بالتوافد على النبع، أصحاب العلل و الآسين و مكسوري الفؤاد، يتباركون بالماء المقدس، بعد زمن شُيد الدير، دير سانت آنا، ليخدم و ينظم الزيارات المقدسة، صمت جان للحظة ثم تطلع لنور:
- حسنا ما رأيك في القصة يا فراشة, أتصدقين حرفًا؟
- الحكاية ذكرتني بقصص الأولياء في قرى مصر، غريب هذا التطابق يا جان اختلفت الأديان و البلدان لكن القناعات واحدة.
- اللافتات المنذرة بنهاية العالم تغرق شوارع المدن الصاخبة، لاحظي نور هنا في باريس أو أبحري غربًا إلى نيويورك، ستجدين أمام محلات الوجبات السريعة و البنوك و المراكز التجارية الاستهلاكية العظمى، إعلانات شركات تبشر الإنسان برغد العيش عن طريق ترويج نمط معيشي استهلاكي معين، لكن أيضا ستلاحظين أن الفقراء و فاقدي الأمل و المشردين يقفون على الرصيف المقابل يحملون لافتات كتب عليها أن عقاب الرب آت و أن علامات النهاية تتحقق و ما علينا إلا انتظار خروج وحش يحمل رقم ثلاثي التفعيلة أو ساحر ذى عين واحدة أو نيزك، إنها مجرد احتجاجاتهم الصامته و أمانيهم المخدرة كرد فعل في وجه هذا العالم الذي توحش و استنفد مخزونهم من الحلم.

- عجيب رأيـــك، ظننتك ملحدًا يا جان لكن ما تقوله يتعارض، أنت تهاجم الحضارة العصرية!!
- ما هو تعريف الملحد يا نور، أهو من لا يؤمن بوجود إله من الأساس؟ أم من من يرفض النسق الكهنوتي للدين؟

أنا نفسي أرفض التعريفات الأكاديمية، أحب أن أقول: لا أعلم، أترك الأمر لإحساسي، عدم خضوع الإنسان للقولبة هو الأفضل، أنا من جهتي أؤمن بالموسيقى، إنها كلمة الرب في مخاطبتي، إذا كان هذا دين فأنا متدين!!

- نعم أوافقك، لكن ألم يخطر ببالك أسـئلة من نوع، الله ما هو؟ هل وُجِد الدين لهدايتنا فعلاً لكننا لا نقابل إلا الشقاء؟ أعتقد أن البشر هم المشكلة، يســتحلون دماء بعضهم البعض باسم الدين و الله منه براء، أنا أعتقد أن الله دينه كالموسيقى خير سامٍ محلق..
- نور الحروب الواقعة حتى تحت غطاء ديني، هي شــهوة الإنســان في الســيطرة، لنضع فرضية هنا، ماذا إذا دُعي موســى و يسوع و محمد إلى مجلس الأمــن ليلقوا بيانًا مشــتركًا ينددوا فيه و يشــرحون للبشــر أن سعيهم الدموي ما هو إلا أشــكال من الأماني الشيطانية و الثلاثي الديني براء من دوافعهم، أتظنين أن البشــر سيصدعون؟!! أبدًا سيخرجون ألف حجة و تفسير و تأويل من نفس الكتب المقدسة يحاجون بها عرّابيها..
- أنت محق يا جان فيما قلت، لكن أين الاختيار وسط كل هذا؟
- أي اختيار يا نور!!،

الاختيــار في حد ذاتــه بالمعطيات الحالية لعنة بل هــو إجبارٌ مقنع، أتظنين أن هناك إختيــارًا وراء اقترانك بهذا الوحــش، كان هروبًا لا اختيار!! كان قهرًا لا إرادة حرة!! الاختيار الحقيقي هو الذي يتحقق مع الحرية، عدم وجــود ضغوطات توجه دفتنا إلى أقرب باب يلوح لنا، مخرج نظنه آمنًا.

- ما كان باليد حيلة، أحسبه قهرًا أو هروبًا . . لا فارق!!
- هو ذاك، إنه انعدام الحيلة و الرضـــا بالمتاح أمامنا، انتفت الإرادة يا فراشة . .
- إذن قل لي بربك الذي لا أعرفه ماذا أفعل؟

قام جان من جلسته نافضًا الغبار العالق بملابسه و بقايا أوراق الشجر العالقة بسترته الصوفية.

- اختاري البـــاب البعيد، الخطوة التي دائمًا ما تـــــؤجلينها، اختاري الطريق الصعب لأنـــه دائما الصائب . .

قال جان عبارته ثم تركها ترتجف كطائر ينبت ريشه أول مرة، لمس وجهها نسيم ناعم، شعرت أن العذراء تلمسها، و تهمس في أعماقها، الباب البعيد المنسي، يجب أن تملكين القوة لتديرين المفتاح . . .

(11)

داليا جلال حجازي

ظلت داليا ناظرة إلى شاشة هاتفها المحمول، مستغرقة بالتفكير، تلك الرسالة التي أتت لها من الغائبة ما وراء العالم، لمَ اخترتي هذا التوقيت لتزيدي همومي همًا يا نور، لماذا الآن بالتحديد؟

يبدو أن الكوارث تهبط كتلة واحدة، لا شئُ يحدث في العالم مصادفة أو كما قال أينشتين «الله لا يلعب بأحجار النرد»..

ضلوعها تئن بإرادة ذاتية و الضغائن في صدرها تكفي أن تفجر أمعاء كل طيور الفضاء إن مرت من هنا، لكن حيرتها كانت الأكثرَ رعبًا، أحمد لا خبر عنه في أي مكان، بعض الرفقاء الذين كُتب لهم الخروج لم يخبروها بشئ، حتى الشربيني لم يُشفِ غليلها بمعلومة، بل تلذذ بالجهل المرتسم على مُحياها، حتى علاء اختفى، هل تمكنوا منه؟ هل وجد مكانًا آمنًا؟

كل صرصور يحيا تحت سماء القاهرة له ملف عندهم، و الصراصير أمثالنا من السهل العثور عليها.

أشعلت سيجارة بعد محاولات متتالية، تذكرت بعد أن أقلها الشربيني، آخر ما جاد به لسانه، نبرة قلق غير معتادة عن دعوات الثورة، أيقنت أنه مجرد ترديد لصدى القلق في دوائر أعلى. طلب منها العودة سريعًا، العمل على خبر، أي خبر لكن ليكون لامعًا لافتًا مغرقًا في الغرائبية التي تستهوي العوام، أب يغتصب ابنته ذات الثمانية أعوام ثم يقتلها، فتنة بين مشجعي الأهلي و الزمالك جرّاء هروب لاعب آخر، كالعادة مخدرات، يريدون خبرًا مخدرًا، لم تتعجب من طلبه فهذا ديدنه في الجريدة لكن اليأس الظاهر و التعجل لفتا انتباهها..

توقفت عن الاندهاش منذ فترة، بل مات الاندهاش داخلها، فما عادت قصص الصحف تدهشها، أهو انكفاء نفسي أمام كم العته المُصّدر إلينا يوميا؟ أم هي حالة يأس تلبستها بعد انهيار حلم و أضغاث مثالية اختفت؟.

لا شئ سيحدث تحت سماء مصر، لا شئ!! الكهنة و فرعونهم كما هم باختلاف الوجوه، باختلاف خطب البداية الواعدة، لكن النتيجة واحدة، طبقة حاكمة تتمتع و تلقي الإلهاء مجسدًا إلى شعب فلا يلتفت، و شعب اتخذ التسطيح و القولبة و الخمول و تسليم مقاليد عقله راضيًا كمدمن مخدرات يسرق لينل عالمه الافتراضي الذي يهبه سلوى انتصارات وهمية، و مروج مخدرات محترف يُدعى الإعلام، مقروءًا ومسموعًا و مرئيًا، لكنه مروج مخدرات غشاش أيضًا، فمخدره ليس نقيًا فتكون جرعته قاتلة، بل مخدره هو إعادة تدوير نفايات العقل الجمعي المريض و إعادة بيعها.

لنا الله!! يرحم حالنا بالانقراض كديناصورات العصر الجليدي و إن كانت أكثر منا نقاءً.

غدًا سيعاد توزيع القمامة على الجميع، غدًا ستكون الصحف المقروءة و برامج الفضائيات نسخة واحدة لنفس البيان، تقرير ما يتحدث عن فوائد الاستقرار و معدلات النمو المتصاعدة مقترنة بأرقام و نسب عشرية مئوية لزوم الغموض و الأهمية يتبعها لقاءات و وعود بوصول الرخاء إلى الطبقة الدنيا المطحونة، تمتد ساعات البث تضخ تنويعات على حكمة الرئيس، برامج تتبادل علكة حكومية تلوكها، قصص الجان والأخبار الملفقة، حتى البرامج الرياضية يتباكى مقدموها على وطنية النجل و دعمه الذي منحنا بطولة لكرة القدم، أعظم انتصارات الفرعون، تخلد على مسلات و جدران الإعلام، تكرار حتى تترسخ فكرة الأب المخلص الملاذ..

الشربيني تصدر طليعة الجوقة، في عموده اليومي شن هجمات شرسة على دعاة التمرد، تخللتها خمسمائة كلمة تمدح جهود السيد وزير الداخلية في محاربة كل شئ، لنحتفي بعيد الشرطة السعيد أعاده الله علينا وعليكم بالخير واليمن والبركات الميري.

نهاية العالم لاحت نذرها، داليا تشـّتم رائحتها منذ أسـابيع، ستقع الواقعة ولن تكون كاذبة، كانت تتمناها، تشـتاق إليها، تفهمت نظرية أحمد المتطرفة، لكـن أفكارها الآن أكثر جنوحًا و تطرفًا، لا بناء يعقب الهدم، ليفنى الوجود إلى عدم كما خلق من عدم، مسـكينة أنتِ يا نور، أنتِ تجريد متقـن للحلم المقهور الضائع الـذي أهمل في ركنِ خزانة الملابـس القديمة، غريزة البقاء تحولـت إلى مصيدة لكِ لترضي غريزة الاقتناء عند ذاك الحيوان البدائي الذي تزوجتينه، التحذيرات بلا جدوى عندمـا نضعها في آذان الصم السـائرين إلى المحرقة بإرادة باردة. كيف يتحول شـخص مثلك إلى جنة مفقودة عند الجميع، يوسف و المايسترو جميل، المايسـترو رحمه الله، هجر العالم و اعتكف وحيدًا متلفحًا بخيبة الأمـل منتظر الموت في صمت و غضب، آخر عباراته ترن في أذنيها، عندما ذهبت تعـوده في عزلته كآخر بقايا عالم نور الهدى.

— يا داليا، أنا أضعت عمري كاملا بسـبب اختياري الفن، كل مفتاح في أي بيانو داخل الأوبرا وضعت أناملي علامتها عليه، حتى العازفين، من تمسـك بالفن منهم أو من ركض خلـف أكل العيش يؤدي في الحفلات و السـهرات جميعهم يدينون لي بالفضل، و ماذا أخذت أنا؟! لا شـئ، سـوى قبض الريح، سـأموت و لن يتذكرني أحد أو حتى خبر صغير في زاوية مهملة بجريدة، مجد الموت يأتي للمطربين و الراقصات، لا لفصيلتي من الفنانين، سـأموت و أتحلل و ستنسـى الجدران أن ظلي مَرّ من هنا، حتى نور ستنسى، لكن وصيتي إن عادت أن أعطيها هذا العقد، عقد تنازل عن الشقة باسمها، فقط ترجع يا داليا، ترجع.

الهاتف يُبْعَث من جديد، حامل المصائب، رقمًا غريبًا كالعادة في هذه الأيام، أجابت: آلو.

أتاها صوت علاء السـمري مختنقًا مبحوحًا كمن يصارع سـرطان الحنجرة.

- داليا، أنتِ بخير أخيرًا، كدت أموت من القلق، كنت أظن أن...

قاطعته داليا:

- لســـت بخير أو حتى قريبة منه يا علاء، ســـأعفيك من التفاصيل يكفي ما أنت فيـــه، المهم أين أنت؟

- داليـــا، أنا في مكان ما، اعذري تكتمي لو أنني موقن انهم يســـتمعون إلينا الآن، فقط أردت أن أخـــبرك بخبر محزن، كل الأخبار بالطبع محزنة، اشتري الطبعة الأولى من الجمهورية الآن، صفحة الحوادث، لن أطيل، ادع لي.

انقطع حبل السؤال مع غلقه الخط، تجمدت في مقعدها، ماذا تحمل لها صفحة الحوادث، تذكرت صديقتها و الرسالة العجيبة مطالبة إياها بالبحث عن يوسف الضائع، اندفعت إلى الكمبيوتر، لترسل له رسالة على بريده الألكتروني..

يوسف، هذا رقمي، تواصل معي، انتظرك. ..

ارتدت ملابسًـــا تصلح للبرد و نزلت تســـابق هلعها إلى بائع الجرائد الســـاهر عند بداية الشارع، الســـاعة الثانية عشرة، فجر السبت الثاني و العشرين من يناير، الشـــارع في ضوضائه المعتادة، مدينة الأرق العظمى، التقطت عدد الصحيفة و هي تنفح الشـــيخ النقود، قلبت الصفحات حد التمـــزق، جالت بين العناوين، حتى وقع الخبر المشـــهود أمامها، الأخبار جميعها محزن، نعش أســـود بعزيز يحمله إلى مثواه الأخير، لم تتحملها قدماها فمادت بها الأرض، لحق بها الشـــيخ و أراحها على مقعد خشبي و هو يقول باستمرار: ما بكِ! ما بكِ!! خير إن شاء الله، اختفى النبض في المرئيات و ســـقطت الجريدة مفتوحة على الصفحة المشئومة و هي تلهج بكلمات مضغمة:

- فعلوها، قتلوه!! قتلوه!!

كتبت سوزان حجاج:

في الساعة السابعة مساء السبت وجدت جثة شاب في الحادية و الثلاثين ملقاة وسط طريق الواحات بصحراء أكتوبر، و عند سؤال النقيب»... « عن الواقعة أجاب أن الشاب وُجِد بالفعل و الروح قد فارقت جسده و نتيجة الفحص المبدئي يرجح أن سبب الوفاة، جرعة زائدة من مخدر البانجو، أكده وجود حرز لفافة من نفس نوعية النبات في جيب سترته، و تشير بطاقة نقابة المحامين التي تم العثور عليها في حوزته أنه يدعى «أحمد عزت محمد الجمل»..

أغلق علاء سماعة الهاتف و التفت حوله، يشعر بهم في الهواء، عندما أتى له خبر اعتقالات القيادات، أيقن أن التحرك سيكون بشكل انحداري من قمة الهرم حتى القواعد النشطة، هو ليس منهم فعليًا، هو الوحيد الذي يعلم أنه نال الانفصال منهم بالولاء التنظيمي منذ زمن، كفاه تغربه مع أبيه المطارد، و قبلها اعتقالات الفجر، صورة حقيبة السفر الصغيرة التي كانت دائمًا موضوعة جوار الباب الخارجي، تذكره باستعداد أبيه الدائم للاعتقال، كان يراه ينام في ملابس أقرب إلى ملابس الخروج رياضية، سأله فأجاب أنه لا يريد أن يتم أخذه و هو في منامه أو جلباب أو ملابسه الداخلية، حتى استطاع الخروج من مصر تمامًا.

علم علاء أنهم لا يهتمون لأعضائهم إلا كنوع من أشكال إثارة قضية ما، فآثر الابتعاد، لكنه يظل في نظر الأمن ابن حاتم، و سيظل تمسكهم باسمه ورقة اتهام جاهزة، اختفى قليلا في أحد بيوت أصدقاءه بمنطقة المرج، لكنه كان يراهم في كل مكان، غاب النوم عنه من طول الانتظار، عندما وصلته أخبار اعتقال داليا ورفاقها جدد الهرب، استقرت به خطواته في المنيا، عند بعض المعارف، لكنه كان يتابع عن كثب مستجدات القضية. اتصل بكل من يعرف، حتى زملاء أبيه القدامى، أخبره أحدهم و هو قيادي بارز في الجماعة، أنهم لن يشاركون في الهوجة القادمة، و السمع والطاعة يشمل كل الاتباع، ليفترس الأمن العلمانيين وأذنابهم أما هم فسيتابعون فقط ما سيتمخض عنه الجبل، خصوصًا

أنهم في حالة وئام حذر مع النظام، برلمان ٢٠٠٥ يشهد، و إن استبعدوا من البرلمان الأخير، لكنهم حتمًا سيتوصلون لاتفاق ما جديد، و عندما يأتي الوقت سيكونون البديل الاستراتيجي الوحيد، براجماتيتهم لم تصدم علاء و لم يصدمه خروج بيان الجماعة الذي هو أقرب إلى إمساك العصا من المنتصف فقد كان نصه :

[إن الإخوان المسلمين وهم يتابعون ما يجري على الساحة الدولية والإقليمية والداخلية، وعلى إثر أحداث تونس، ورغبةً في الحفاظ على أمن الوطن واستقراره وعلى أرواح المواطنين وممتلكات الشعب ومكانة مصر، قد أصدروا بيانًا واضحًا بمتطلبات ومطالب الإصلاح الحقيقي السياسي والاجتماعي والاقتصادي وكيفية تحقيق احترام حقوق الشعب ومحاربة الفساد ومحاسبة المفسدين. وهذه هي المطالب الوطنية التي تكفل تحقيق الحريات والاستقرار والأمن لمنع الفوضى التي يحذر منها الجميع. وفوجئنا برد فعلٍ متعجلٍ يخلو من الحكمة والكياسة، وينبيء عن الإصرار على بقاء النظام في ذات الموقع الذي يدعم الاستبداد والفساد وإرهاب الدولة؛ وذلك باستدعاء مسئولي الإخوان المسلمين بالمحافظات وتهديدهم بالبطش والاعتقال والمواجهة العنيفة، وربما الدامية في حالة النزول إلى الشارع لإعلان هذه المطالب الشعبية. وإزاء هذا فإننا نعلن رفضنا للتهديدات والإرهاب، ونؤكد أن ملف الجماعة ملف سياسي، ولا ينبغي أن يكون بيد الأمن، فإن كان هناك مَن يريد أن يتحاور مع الأمة ونحن من نسيجها وموجودون ومنتشرون ومتجذرون فيها لبحث وسائل الإصلاح ومنهج التغيير لكي نخرج جميعًا من الأزمة والمأزق الذي يعيش فيه الناس والوطن، فنحن على أتمِّ استعداد لذلك، بل ندعو إلى حوارٍ وطني شامل لكل القوى والاتجاهات والأحزاب والحركات السياسية والممثلين لكل فئات الشعب. ولا يتصور عاقلٌ أن أسلوب التهديد والوعيد يمكن أن يخيفنا؛ لأننا نعمل لله من أجل تحقيق مصلحة الأمة، ومَن يعمل لله لا يخيفه شيء؛ لأنه يخاف الله وحده (فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ

بالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُون) «الأنعام: من الآية ٨١» ونؤكد أن الواجب على المسئولين الآن التعامل مع الاحتقان الشعبي النابع من الفساد والاستبداد بالحكمة المطلوبة، وهي الاستجابة لمطالب الأمة والبدء في تطبيقها فورًا، بدلاً من إحالة كل الملفات المهمة في المجتمع إلى الجهات الأمنية التي لا تتعامل إلا بمنهج التهديد والوعيد والاعتقال والتعذيب والسجن بل والقتل؛ الأمر الذي لا يعالج قضية ولا يحقق عدلاً ولا استقرارًا، بل ويُثير كل طوائف الشعب ويُكرِّس كراهية الأمن والنظام في نفوس الجميع. هذا هو موقفنا ونداؤنا إلى الأمة بأسرها، ويدًا بيد وساعدًا بساعد نبني المستقبل العادل الآمن لهذا الوطن ولو كره المفسدون، ولن نكون أبدًا إلا وسط الشعب، نشاركه همومه وآماله ونعمل من أجل تحقيق حريته وكرامته، ونسعى معه في كل الأنشطة التي تقرب ساعة الحرية، وإن غدًا لناظره قريب (وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) يوسف: من الآية ٢١»]..

لكن أهم ما حدث كان توصله عن طريق أحد الرجال المتصلين بدوائر النظام إلى أن داليا وقّعت على اعتراف ضمني على أصدقائها و بينهم أحمد الذي تم وضعه في زنزانة جماعية تشبه القبر مع كتيبة من المعتقلين، نزف لأيام و بالطبع أهمل إسعاف رأسه المشجوج، ليلفظ أنفاسه الأخيرة، أخبره المصدر أن المعتقلين صلّوا صلاة جنازة مهيبة وسط الزنزانة، و بالطبع حُمِل وأُلقي في مكان ما بالصحراء، ليصبح مجرد رقم في جرائم المجهول.

تحرك علاء في اتجاه المقهى المطل على الطريق السريع الرابط بين القرى، أراد فقط أن يشاهد الأخبار ويشرب قهوة حتى و إن كانت بلا بن، جلس و طالع التلفاز المشوش القديم، كانت قناة الجزيرة، تذيع وقفة احتجاجية بطول رصيف كورنيش الإسكندرية، وقفة بالسواد و الشموع و البرادعي في صدارة الصورة، هذا الرجل الذي يحمل قلبًا نبيلاً ماذا أتى به إلى وكر الثعالب هذا، رآها علاء رومانسية مفرطة، شريط الخبر يقول

إنها وقفة ضد ممارســـات الشـــرطة و إحياءً لذكرى خالد سعيد الفتى الذي قتل بيد الأمن و الطب الشرعي قال إنه مات جرّاء مخدر، ما أبسط المبررات هنا، هل تشكل وقفة أو اثنتين فارقًا أو حتى ألف؟!!

البلد تتمدد كمطاط، و الحاكم ينظر إليها و هو مستلقٍ على قفاه من الضحك..

وقفت سيارة أجرة يابانية عند مدخل القهوة، فُتح الباب ليهبط منها مخـــبرون و ضابـــط في زي مدني، اندفعوا إلى الداخـــل، انتبه علاء لكن كانت الأيدي الغليظة تجذبه و تلكمه و تســـبه، وجد نفســـه مسحولًا حتى السيارة لا يفهم شيئًا، و كل ما في رأسه صورة حقيبة أبيه الجاهزة، أغلقوا عليه الباب و تكفلت الأيادي بالضرب المستمر، موجع لكن لا يترك أثرًا، اندفعت الســـيارة و رواد المقهى يشـــاهدون بجمود و فضول صامت كسره صبي القهوة حين قال صارخًا:

«الآن أنا من سيتحمل ثمن قهوته، اللعنة على كل شئ»..

لم أخن، لم أتخاذل، لم أقايض على ما لا أملك، تقبلت النفي القسري، تقبلت الظلم المغمـــور في طيات العدالة البراقة، لكن مرارته تُســـتحلب عند الانكشـــاف، تقبلت المتاجرة بأوهامي كأي غرّ مؤمن بأن الحقيقة تكمن في الماضي، لقنونني ذلـــك، لقنونني أن العهد الذهبي للعالم كان في خلافة عظمى تســـيطر على كنوز المشـــرق والمغرب، تحكم بين الناس بالعدل المطلق، لو عدنا و اســـتلهمنا سير الراشـــدين لسُدنا مرة أخرى، أليس الله بقائل: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ) حققنا الشرط الإلهي لكن لمَ ترك الله حزبه المختار تتلقفهم الشـــياطين من السماء والأرض، أقول إنها حكمته، سنفوز مهما تأخر الفوز، جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، بمقاييس ما لقنت أنا متق، اتقيت الله في كل شبر، اتقيته صغيرًا، لم أختلس نظرة إلى نهد امرأة، لم أشرب ما حرمه، لم أكل سحتـــًـــا، قويت على رغباتي، ما أخلفت صـــلاة أو وردًا منصوصًا، أطعت والديَّ، رحمت و تراحمت، جعلت

المال في يدي مبذولاً للصدقة لا مكنونًا في قلبي، طفت ببيته و بكيت حتى استظل برحمته يوم العرض، مشيت هوناً و نزلت بردًا على الآخرين، لم أكره، لم أحقد، لم أمارس قمعًا أو رميًا للناس بالباطل التزمت بلغة شيوخي، إذن لِمَ يتركنا لزبانية السلطة و تجار السياسة، لِمَ و لِمَ!! لِمَ ؟!!

بكى علاء السمري و هو يستغفر، كمن يتطهر من أفكاره، الدموع بللت العُصابة السوداء على عينه، زادها ألمًا حارقًا في معصميه المقيدين من خلاف، و أصوات أناس تتأوه حوله ألمًا، رائحة عطن و عرق و دماء متخثرة تزكم الأنوف، أتى صوت أحد المتكومين يقول:

- يا جماعة، يا جماعة، ماذا سيحدث لنا، أنا هنا منذ خمسة أيام..

أجابه صوت باكٍ من ركن آخر، أعمى يجيب أعمى:

- عبد المجيد صديقي مات أول أمس، نقلوني هنا، سنقضي نحبنا.
- لا تتكلموا، اصمتوا لعل أحدهم وسطنا الآن يسمعنا، كلنا معصوبو العين.

صمتت الحناجر إلا همهمات ضعيفة، بعد مرور وقت غير معلوم سمع علاء بابًا حديديًا يفتح، ثم صوت أحذية رسمية ثقيلة، سأل أحد القادمين بصوت خشن:

- من فيكم علاء السمري؟

لم يجب أحد بما فيهم علاء نفسه، فزاد الصوت عنفًا غاضبًا أكثر:

- من سمع اسمه يحرك طرفه، من فيكم الكلب ابن الكلب علاء السمري؟ حرك علاء قدمه و هو يقول مرتعشا:
- أنا علاء..

رفعته أيادٍ من الأرض، و حمل بين رجلين إلى غرفة أخرى، سمع صوتًا آخر يأمر بإزالة العصابة، تسرب ضوء حارق إلى مقلتي علاء فأغمض عينيه لا إراديًا، شعر براحة أكبر عندما فُكت أغلاله، ضم ذراعيه

إلى صدره، كان في مكتب، يجلس أمامه ضابط أربعيني، يدخن بشـــراهة، عرض عليه الضابـــط لفافة تبغ، رفضها علاء، قال الرجل بهدوء مريب:

- علاء حاتم الســـمري، صحفي في جريدة صـــوت الحقيقة، ٢٩ عامًا، تخرجت من كليـــة الآداب جامعة عين شمس، الابن الوحيد لحاتم الســـمري، القيادي الإخواني، عشت في السعودية حتى سن الالتحاق بالجامعة، عدت مع والدتك إلى مصر بعد موت والدك، كنت طالبًا نشـــطًا أيام الجامعة و أحد كوادر الإخوان، اشتركت في مظاهرات غزة و لك علاقة بجماعة الســـادس مـــن أبريل بوقت إضراب عمال الغـــزل بالمحلة، ما رأيك حتى الآن يـــا علاء؟! حاول علاء الرد لكن انعقد لســـانه، نعم كل ما قاله حقيقي، لكنـــه اعتزل الجماعة، و عملها أيام الجامعة..

- لم أكـــن عضوًا في الاخوان، أبي ممكن، لكن أنا لا، و الإضراب كنت أغطيه كصحفي فقط.

- حســـنا، و صورك مع كل هؤلاء القيادات في الجماعة المحظورة ماذا تقول عنها؟

- علاقات إنسانية، بحكم أنهم أصدقاء أبي..

ابتسم الضابط ثم أكمل المكتوب أمامه في الورقة:

- تركت الإخوان المسلمين، لرفضك أسلوبهم الذي رأيت أنه سياسي بـــارد، انضممت إلى جماعة جند الإســـلام، في زيارتـــك لغزة العام الماضي، خضعت لتمرين على الســـلاح و المتفجـــرات، اعتنقت أفكار جماعة إرهابية أعلنت جهادًا مســـلحًا ضـــد نظام الحكم المصري.

قاطعه علاء صارخًا:

- محض افـــتراء، كذب، كـــذب، أنا كنت مع القافلـــة التي حملت مؤنـــًـــا تضامناً مع غزة ضد الحصار، أي جماعة؟ أنا عمري ما كنت أحد أعضاء تنظيمـــات أو حتى أبي..

- إذن ما قولك في ما تم ضبطــه في بيتك، كتاب الفريضة الغائبة لسيد قطب و منشورات جهادية؟
- هذه مجرد كتب، لو كلفتــم خاطركم لوجدتم كتبًا لماركس و كتبًــا في الإلحاد أيضا لدي، هــذا لا معنى له، ليس معنى الاطلاع على كل شــئ، أنني ملحد أو شيوعي أو جهادي..
- عدت إلى مصر كخلية نائمة حتى أتــى الأمر بالتحرك، علاء أنت أحد منفذي جريمة تفجير كنيســة القديسين بالإسكندرية.

مادت الأرض بعلاء، الاتهام جاهز، يريدون كبش فداء، يكاد يجزم أن خبر القبض على الإرهابي المســئول عن الحادثة يتصدر الصحف، ما هو فيه من تحقيق مجرد تحصيل حاصل.

- كذب، لم يحدث، لم يحدث.
- قل لي، لماذا تكره النظام يا علاء، بالطبع أستطيع استنتاج ما دفعك، أنت تظن أن أباك مظلوم وهكذا فقررت الانتقام بطريقتك.
- أنتم ظالمون، لكن موضوع أبي لم يدفعني لأي شــئ سوى كره ما أدى به إلى المنفى و الســجن من قبل، جماعتــه الانتهازية، نظامك هو الحاضنة لكل هذا، لكني لم أكن يوما معتنقًا لعنف أو إرهاب، اللعنة عليكم وعليهم، اللعنة...

قطع انفعال علاء، صفعة هوت على رأسه أطاحت بالباقية الباقية من عقله، فظل يصرخ و يسُــب، علاء لم يلفظ لسانه قبيحًا طيلة عمره، لكن في هذه اللحظة، انفرط زمامه، سبّهم بأقظع الألفاظ، من صغيرهم لكبير كبيرهم، سبّ العالم سبّ أباه، سّب نفسه و الضربات المدروسة تهوى عليه، سبّ العالم والعدالة و الحق، سبّ كل شئ حتى تماسيح بحيرة ناصر..

أتبع الضابط ببروده المعدني و هو يكتب مذيلاً الورقة بتوقيعه:

- قد أقر المتهم علاء حاتم السمري بكل التهم الموجهة إليه و قد أمرنا

نحن»...« بعد إرفاق كل الأحراز المضبوطة بحوزة المتهم تحويله إلى نيابة أمن الدولة العليا، و جاري اتخاذ اللازم في ساعته و تاريخه، الحادية عشرة مساء يوم الاثنين ٢٤ يناير ٢٠١١، وضع القلم أمامه، ثم أشعل لفافته الألف قائلاً:

- تحب توقع؟ أم نوقع لك!!

بصق علاء على المكتب، كي تبدأ الضربات مرة أخرى، أشار الضابط إلى المخبر أن يعيده إلى الزنزانة، حتى عرضه غدًا على النيابة، ألقى علاء وسط أكوام اللحم المكدس في زنزانة صغيرة، تسعة أشخاص مختلفي الأعمار، وجدهم قد حُلت قيودهم وعصابة أعينهم مثله، بيد أنهم مروا بنفس ما مر به كل على حدة..

انتفى علاء بنفسه ركنا مستندًا على الحائط، تعالت الأحاديث بين رفقاء المحبس، قال أحدهم:

- يا إخواني، كل يخبر الآخر باسمه كاملاً و محل إقامته أو عمله، حتى إن خرج أحدنا يبلغ أهل المختفي لإحضار محام، حتى لا نتعفن هنا.. بادر الجميع متلهفين بذكر الاسم، أما علاء، الذي ظل صامتا، تعجله الشخص الأول فقال علاء بيأس:

- لا يهم، اعتبروني غير موجود، لن يسعفني أحد، غير أني مقطوع من شجرة.

تجاهل تعزيتهم له بمقولة جاهزة وحاضرة في مثل هذه الأوقات أنه لا ييأس من رحمة الله إلا القوم الكافرون و لا بد أن يسقط الظلم، فالله عادل، العدل الوحيد الذي يتمناه أن ينتهي كل شئ الآن، أن يتبدد الكابوس المحدق، شغل نفسه بمتابعة أحاديثهم، غرائب و طرائف تدرس في سياق الكوميديا السوداء، أحدهم قبض عليه منذ أسابيع، كل جريرته أنه كان متوجهًا لشراء بعض الفاكهة وقت مرور موكب وزير الداخلية، أوقفه الحرس، سألوه عن وجهته، فأجاب، قال له الضابط المسؤول: ألا

يوجــد محل فاكهة غير هذا؟! أجاب أن زوجته تتوحم على نوع موسمي قلما وُجِد إلا في أماكن معينه، فاعتقل، و آخر اعتقل بســبب جداله مع أمين شرطة بالمترو، قصص تليق بالمسرح لا بالواقع، أي عدل ننتظر وسط العبث القاتم؟! لعل العــدل أن نُلقى جميعًا في محارق جماعية، هذا هو عين العدل، ليخلو وجه الأرض لأصحاب الســلطان والنفوذ، هذا أفضل لهم، تتحقق مدينة فاضلة أفلاطونية للأقوى، أما أمثالي السائرون على هامش الحياة، فالقبور أولى بهم..

ركضت داليا عبر الضباب الشتوي المهيب، لم يوقفها انتظار حافلة أو مترو أنفاق أو شئ، أوقفت أول تاكسي، دون الرجوع إلى قواعدها في تجنب التحرش أو الاختطاف، قالت لنفسها لن يحدث شيء في الحياة أسوأ مما حدث لها، هي تبحر في بحار المأساة، أي شئ آخر سيبدو كطحالب طافية على وجه الماء. لم تتمالك نفسها وسط زحام شارع الجلاء حتى تصل إلى مقصدها، فتحت باب الســيارة لتكمل مسيرتها وحيدة متعجلة ملتاعة، ظبية تطارد الشــرك بكامل إرادتها. أمام باب مشرحة زينهم كان حشد من النائحين و النائحات، شــباب في عمر الزهور و نساء قرويات يشقون الجيوب في تقليــد أصيل للمصيبة، تعرفت على وجه أخي أحمد الأكبر و ثلة من زملاء نضال المقاهي و مطاعم وســط البلد، كانت الأم جالسة على الأرض تهيل التراب على رأســها، مات الأمل المتعلم النابغ، مات من كان يصون العهد و يصل الرحم، مات الحنان المطلق و الرجولة النادرة، مات أحمد درة تاج العائلة.

الخبر تسرب ســريعًا إلى قريته في محافظة الشرقية، هناك تكفي أذن واحدة حتى تســمع كل الأذان خبر الفاجعة، الشرطي الذي هبط على رأسهم وقت صلاة العشاء، يحمل طلبًا رسميًا لهم بالحضور حتى يتعرفوا على جثــة الفقيد أهي له أم لا؟! القرية خرجت عن بكرة أبيها تســابق الريح حتى القاهرة، أول من سمح له بالدخول كان الأخ، لكن الأم طلبت أن ترى فهي رافضة أن تصدق أنه من الممكن أن يختار الموت فلذة كبدها

الأعز، طوال الطريق إلى القاهرة تردد: لا ليس أحمد، عبر باب المشـــرحة و ممراتهـــا الرمادية رددت: لا ليس هـــو، ليس أحمد، أمام الجثث المثلجة كأقماع المثلجات زادت في تكرار جملتها، لكن ســـاعة كشـــف الشرشف الأبيض عن وجه الجثة، ركلتها الحقيقة في أسفل بطنها، لتهوي في رحم انهيار لا تســـتوعبه دموع الأحياء جميعًا. اقتربت داليا من المرأة، مسحت على وجهها المضرج بحمرة و قبلت رأســـها الســـاخن، تعلم هي أن لا ألف قبلة تعزي الأم المكلومة، و مهمـــا كان فقدها له كحبيبة ما وصل إلى قطـــرة في بحر فقد الأم، لكن يا رباه، ما هو ألم القتيل المغدور؟

سألت الأخ مستفهمة عن التقرير، لعن الظلم و ظلمات القبر مرددًا:

– منهم لله، قتلوه و أساءوا إلى سمعته ميتًا.

ازدحم المكان أكثر فأكثر، حقوقيون و صحفيون و نشـــطاء و تجار مأساة و مخبرون ســـريون لزوم ما يلزم. فتح الباب ليخرج نعش الشاب، الـــذي كانت أنامله تلاعب ملامحها، مـــن كان يرى أن البركان لزامًا أن ينفجر، تســـابق الرجال في حمل النعش إلى الســـيارة، حتى يدفن في مدافن قريته الســـمراء إكرام الميت دفنه، السرعة مطلوبة، لكن لا أحد أجاب داليا، كيف يكون إكرام القتيل المظلوم؟ إلا أن تســـير مصر كلها في جنازته.

لكن هل يحدث أي فارق!!

أن تُشـــيع جثة أخرى في بلد أخبار المـــوت المجاني فيه تنافس إعلانات السمن الصناعي و خطوط الهواتف و عروض الإنترنت، بلد باتت أخباره المعتـــادة من نوعية غرق عبّارات في البحر و قوارب وقطارات محترقة حتى مناجل الموت تحصد رقابًا في مســـرح، الموت هنا أصبـــح معتادًا كإقامة الصلـــوات الخمس، والضحايا مجرد أرقام تـــزداد باضطراد، أرقام تتبعها أرقـــام، مضاعفات لنفس العملية، أرقام تقســـم على صفر ليكون ناتجها عدمًا كبيرًا ســـاخرًا لمصفوفة الموت الجماعي.

(12)

يوسف الرواي

الإســـكندرية، مدينة الله المقدســـة، كما اصطلح منـــذ قرون خلت، كما هي راســـخة في وجه العالم رغم إضعافها و إنهاكها و زرع كل نبتة شـــيطانية في أركانها، الضرر واقع على ملامحها، كالسُّل يستشرى في صدرها، لكـــني دائمًا أرى أنها مهما هدمت القصور و بنيت على أنقاضها مباني ســـحابية شـــوهاء، مازال بها عبقها القديم، كامرأة أذابت قلوب العشـــاق صبابة في شبابها و مازالت تملك نفس مسحة الجمال القديم، مادام البحر مكانه ســـتظل المدينة في قلبي.

خرجت إلى ميدان المحطة، أتلمس الأمطار الثقيلة، الساعة الآن تقارب الثالثة صباحًا، في شتاء سكندري يفرض حظر تجوال على عشاق الليل من أمثالي، حتى الباعة و الحوانيت تغفو، حتى عاهرات الليل استتابوا جرّاء العاصفة، و تجمعت القطط تحت الســـيارات المتوقفة كشواهد القبور.

موات يخيم في الطرقات، اللهم إلا سيارة أو اثنتين، موات يبعث انتشاء ســـوداوي في روحي، رائحة غابرة تنســـرب بلطف و خفـــة، تغمرني، أعبر الشـــارع، أشـــعل لفافة و أطلق الدخان و بخار الماء من صميم صدري إلى السماء، أســـير كقطار بخاري يتعكز على أشـــباح الراحلين، أشعر بأن عباءة الإســـكندر المنسية في بقعة ما هنا تحت قدميَّ فأتعثر، أستند على عمود الإنارة لتتضح صورة ورق مقوى مهمل في وسط الرياح، أجرح كف يدي جراء مســـمار أحمق شاذ عن العمود، دماء تقطر على معدن العمود البارد، لم أشـــعر بألم فقد هجرني التوجع و لن يعود، لكن الدم تشـــابه عليَّ، أهو دمي أنا أم دم المســـيح المصلوب الذي لم يجف، هل تألم الناصري

وقتها؟ عندما نفذت المسامير الصدئة إلى جذور كفيه؟ نظراته كانت أليمة، لا ؛ بل كانت مليئة بندم ما أو حسرة، هل عاتب قلبه ربه هل اتهمه بالتخلي عنه؟ لا أظن أن الأنبياء أو أنصاف الآلهة تحاكم نفسها مثلنا، نحن أنصاف البشر المتبجحون بالقوة لكن لا نحتمل لدغة بعوضة حتى نعلن الحرب على الإله و القدر و سوء العاقبة و الحظ.

أشعر بالجوع، أشعر بالوحدة، أشعر بقطيعة مع كل شئ، عبرت طريق الكورنيش إلى البحر، جلست متربعًا على السور شاردًا بعيني في الظلام، البحر هناك، أعلم بوجوده لكني لا أراه، حضوره في حواسي يقظ، هو موجود لكنه يتوشح بوشاح الليل حتى يصيب المريدين بالجنون، غموض الاحتجاب له قوة أكبر من الحضور، فكل غائب له مكان أقوى و ذكرى لا تنفد في قلوب الهائمين مثلي. عدت إلى أغوار الماضي، عندما كنت طفلاً، الإسكندرية مصيف الميسورين و أبناء الطبقة الوسطى، كان لنا بيت من طابقين في المعمورة، التي كانت يشار إليها بمصيف الكبرات، لم تكن الفروق الحالية بنفس الاتساع، لم تكن أخدودًا بين طائفتين، لم تكن ظهرت على الخارطة محميات الساحل الشمالي، و منتجعات الصفوة كفراديس حُرم على السواد الأعظم من المنبوذين الولوج إليها، طبقة تشكلت إبان زمن الانفتاح، الذي تمخض عن هؤلاء منتفعو فض بكارة البلد، و نخاسو السلع الأساسية حتى مروجي أكل القطط والكلاب و مستوردي الكافيار، أتذكر تركي اللهو بين أترابي، و جلوسي مستكينًا أرسم بعشوائية في دفتر محاولاً رسم قط جيران الشاطئ الذي جلس يتمتع بدفء الشمس بخمول أجوف، أمي تضع نظارات الشمس و تتبادل نظرات غزل أقرب إلى جنس هوائي مع رجل يقبع وحيدًا، و أبي يقرأ جريدة ما يدخن و يطالب بقهوة أو شاي من خادمتنا.

لم أخشَ البحر يومًا، سبحت من أول تجربة، معجزة تفاخر بها الوالدان في أمسيات السمر مع الأقارب و الجيران، عقلة الأصبع يوسف سيكون سباحًا أولمبيًا، أسمع فأشعر بفخار أغر، الإسكندرية كانت لي

ملاذًا منتظرًا، دفتر الرســم و السباحة، وسط الأمواج أتخيل أني مشارك في ســباق عالمي، أعبر المانش، أتغلب على المنافسين أو بحارًا يصارع الغرق وسط الأمواج حتى يصل إلى الشاطئ الرحيم، رسمت عالمًا تشرنقت فيه، كنــت أكره ليلة الخميس، يدعو الأب والأم الأصدقاء لأحبس مع أخي في غرفتنا، نســمع صوت الموسيقى من الطابق الأسفل.

شريف حنون، شريف يهتم، صنع لي قلاعًا من وسائد الفراش، مارسنا المصارعة الرومانية و تعلمنا الرقص النقري، كان يسهر يتلو عليَّ قصصا من كتبه الملونة، عن الأشــباح و البيوت المســكونة، عن فرسان العصور الوسطى الشجعان في مطاردة مستميتة إثر تنانين تنفث لهبًا، نشاطاتنا توسعت حتى شملت تمثيل القصص، مرة أنا قرصان و مرة أنا كلب تان تان الوفي، نطارد حوريات البحر و نشقى من أجل كنز ترشد إليه خريطة ممحوة معالمها. ليلة خميســية أخرى خلال الشهور الثلاثة الصيفية، نام أخي، قررت خوض مغامرة الكشــف عن عالم السهرات الأسبوعية، تسللت من غرفتي، اختلست النظر إلى أبي و يوسف جبر و آخرون يلعبون البوكر في البهو، سمعت غمزاتهم و لمزاتهم و ضحكات النصر و ســباب الهزيمة، في طريق عودتــي إلى غرفتي رأيتها، الأم العظيمة، في الممر، مع الشــاب الوحيد المشرق، يتبادلان القبلات الحارة، رأتني، جذبتني بعد صفعة ردتني إلى كهوف الانعزال، و تحذيــر ألا أخبر أحدًا، حتى لا تطير رقبتي، فأنا لا أفهم تلك الأمور..

- ابنك الأصغر عنده ميول ماركسية يا كامل.

قالها يوسف جبر مرة في جلسة، و هو يقهقه..

كنت أناهز الثالثة عشــرة من عمري المبــدد، بدا مني اعتراض على منعــي من اللعب مع الفتى الأسمر، الــذي يمتلك أباه مطعم الفلافل القريــب، واعتراضي على كلمة مســتوانا لا يســمح. توقفت عن رؤية الصديــق واقتصرت على العادي و المســموح، يومًا على الشــاطئ لمحت الفتاة الشقراء التي تماثلني في العمر تقذف البالون وتلقفه و تعيد الكّرة،

وحيدة مثلي، مبهجة هي، اقتربت و جلست جوارها أشاهد لعبها كأنها ظاهرة كونية مفرحة، اقترحت على أن انضم لها، وظللنا لأيام متتالية نتشارك الركض و ركوب الدرجات، حتى ظهر عاصم مع عائلته، ولد كريه، ولد مغبون، لأتعلم أول دروس الحسرة، انصرفت عني الشقراء المبهجة واختارت شريكًا جديدًا في البهجة، كل ما تكوَّن داخلي عن تلك الأيام، جلوسي على الرمال، أشاهدهما هي تسير في سربه و هو يتمنع مزهوًا بنفسه كطاووس لا شبيه له، ينظر لي بنظرة المنتصر، علمت طعم الحسرة و التخلي الذي هو أعمق من كل معاني البقاء.

أشعلت اللفافة العاشرة، انتبهت خارجًا من ظلماتي إلى أذان الفجر الذي يُرفع من المسجد الكبير عبر الشارع، زادت حركة توافد المصلين القليلة في الأصل، قمت من مكاني نافضًا الرمل العالق بذاكرتي، ألقيت اللفافة و ضممت سترتي أكثر اتقاءً للبرد، عبرت الشارع الزلق حتى وقفت أخلع حذائي على باب المسجد، دلفت، لم أشعر بجلال أو خشوع، لا أعلم لمَ، أردت فقط الاحتماء من العاصفة، فكرة نفعية، حتى إحساس الندم و طلب المغفرة على أفكاري هجرني تمامًا، يا إلهي لما توقفت عن الاستماع لي!! لما أهملتني، لمَ أنا تناسيتك و ما عدت أهتم؟ غاية وجودي ما هي إلا أمل هش مخدر، سببًا ما للاستمرار منتظرًا دوري في طابور المسلخ الأعظم الذي نحيا فيه، أنا خروف ضمن قطيع يلهو بالطعام حتى يحين موعد الذبح. جلست في الزاوية استديء، و صوت قرآن الفجر يحيط بي، و غمغمات المصلين، رفع الأذان وقفت متخذًا مكاني في الصف الثاني والأخير، جاري مولع بضبط الصف و تلامس الأكتاف و سد الفُرَج، أردت أن أخبره لمَ تخشى دخول الشيطان بيننا؟

الشيطان الآن في باريس يعيش ملكًا و يحرق أموالاً بلا حصر، متفاخرًا بآثار أسنانه على فخذ امرأتي، الشيطان إن وُجد لن يوجد هنا يشغل باله بالمصلين فجرًا وسط نوة كاسحة، الشيطان ما عاد ينظر إلينا، نحن خراف العالم الضالة..

الشـــيطان ما عاد كيانًا عاصيًا أو أداة لضلال البشر، بل أصبح نحن، فينا، منّا، الشـــيطان هو تصوراتنا و أطماعنا و جشعنا الذي لا يرتوي.

انتهت الركعتان، رددت الســـلام لجاري، أردت أن أقول له: هل سأحرق جرّاء صلاتي دون وضوء أو خشوع، لكني تراجعت!

خرجت عائدًا إلى مكاني الأول، الأمطار كانت قد انتهت و الســـماء تفتحت عن أول ضوء، بعض الأزواج يمارسون رياضة الهرولة الصباحية، ثم بدت الســـيارات تغرق الشـــارع رويدًا رويدًا. ألقيت نظرة على الظرف لأقرأ العنوان و رقم الهاتف، محرم بك ليس ببعيد، أولاً أطفئ نار جوعي و أشرب قهوة على أي مقهى قريب. ابتعت بعض شطائر الفول و الفلافل و دخلت أول مقهى لاح لي، التهم نصف الشطيرة، ثم فقدت شهيتي، ناديت على بائع الصحف، أخـــذت الأهرام و صوت الحقيقة، تصفحت العناوين الأولى مقاومًا شـــعور المعدة المتقلبة، أتى عنوان رئيسي عن «زيارة مبارك لأكاديمية الشـــرطة» احتفالاً بعيد الشرطة المبارك، ابتسمت رغمًا عني، أهو تقليد فرعوني دشـــنه هامان رئيس أمن الدولة في حكومة فرعون.

«تقرير الطب الشـــرعي يحدد نوعية المتفجرات المستخدمة في حادث الإسكندرية»

الإســـكندرية : «مكتب الأهرام واصلت نيابة شرق الكلية فرض السرية التامة على التحقيقات التي تجريها في حادث تفجير كنيسة القديسين مـــاري مرقص، كما فرضت النيابة الســـرية على مضمون تقرير الطب الشرعي الذي...».

الغموض، الســـرية، فحوى الخبر لا يذكر شيئًا، مجرد حشو، يريدون به أن يظهروا للشعب أنهم مهتمون بالفعل بكشف الحقيقية، حادث مروع بـــلا هدف أو معنى، صبيحـــة ذاك اليوم كنت أغفو علـــى الأريكة أمام التلفـــاز، أيقظني العم مصطفى و هو ملتـــاع، كان يحاول إجراء مكالمة دولية للاطمئنان على عائلته وسط ضبيبة الخبر، شاهدت نشرة الأخبار،

انفجار مروع حوّل مرتادي القداس إلى أشـــلاء، أي كفر هذا الذي يدفع الإنسان لفعل ذلك، بل أي جنون، الموضوع أصابني بالغثيان و مع الوقت و توافد الأخبار، علمت أن الحقيقة لابد ضائعة مع التســـويف المقصود، الداخلية توجه التهمة إلى تنظيمات لم نســـمع بها، الوزير يؤكد تورط جيش الإسلام الفلســـطيني، يلقيها كممثل ردئ ثم يغادر لتناول قهوته بتلذذ، قلبت في الصحيفة مقاومًا ســـقوط الزيف منها، أخبار تؤدي إلى الانتحار، ما هي إلا قطيعة مع أي أمل في حدوث شـــئ.

« ضبط إرهابي مصري و أحد المخططين لتفجيرات الإسكندرية.

تم ضبط الإرهابي الهارب علاء حاتم إسماعيل السمري، تمكنت قوات الأمن من إلقاء القبض على الإرهابـــي المختبئ بمدينة المنيا فجر اليوم و جـــاري التحقيق معه، و أضاف مصدر أمني إن الإرهابي قد اقترح تنفيذ الجريمة بعملية انتحارية... «.

ضحيـــة أخرى، لكن يوجد تطـــور في التعامل، لم يقولوا مختلاً عقليًا أو ماسًـــا كهربائيًا هذه المرة، ليس الأمر أن تكذب فقط، بل أن تســـتمر في الكـــذب، حتى تصبح الأكذوبة هي الحقيقـــة الوحيدة المتداولة، غدًا لن يســـمع أحد عن القضية أو الإرهابي أو سير التحقيق، و أهل الضحايا ســـيصرف لهم ترضية ما، و لن يسمع لهم صوتًا.

أبحر أكثر في الكذب المنمق، إنهم يعلمون أن لاأحد يقرأ نص الأخبار بل العناوين الساطعة بألوانها السوداء و الحمراء، صفحة الوفيات كانت دائما هي الحقيقة الوحيدة بين صفحات الجريدة، لكن حتى تلك أصابها تخمة من المجاملات و التبجح بأصول و رتب و ثراء.

«مرور الجلسة السادسة لقضية شاب الإسكندرية بلا تلاسن أو وقفات لأقاربه أمام المحكمة ».

ضحية أخرى قتلت بدم بارد، على قارعة الطريق، تقارير النيابة تلقي اللوم على ابتلاعه لفافة المخدر مما أدى إلى تهشم رأسه بالسلم الرخامي،

اسفكسـيا الاختناق قضت عليه، ضحكت بحرقة، ضحكت بخبل، اختنق و جلاديه ملائكة الرحمة لم يلمسـا منه شعرة، يبدو أن اللفافة أيضًا هي من تركت آثار التعذيب و السحل و تحطم الفك على جثته ؛سهل جدا أن تموت في بلادنا بنفس السبب، بنفس اللفافة اللعينة.

تلفاز المقهى كان يذيع كلمة الرئيس،العذاب الموسمي الطويل،استقبال حاشد من الأقزام،يعتلي المنصة بابتسامته الحيوانية المألوفة،وسط تلويحات كفه المدربة، وسط آهات لوعة الحضور التي تليق بحفل مطرب عاطفي.

«إن ما سمعناه الآن من سيادة وزير الداخلية يشفي صدور المصريين و يضع وسامًا جديدًا على صدور الشرطة... «.

الغليل الذي تنضح به صدور المصريين، لن يشـفى، لن تكتمه كلمة مسـجلة، إنهم يعرفون، لكن صمتهم يكبلهم، وضع النادل كوب القهوة أمامي ثم نظر إلى الشاشـة و أخرج صوتًا حلقيًا اعتراضًا، و قال:

— هم الذين قاموا بها يا أسـتاذ، العادلي و رجاله، بالتأكيد، و لفقت لمسـكين، أنا اعلم ما أقوله، أخي لفقت لـه تهمة من معاون المباحث العام الماضي، لأنه رفـض دفع المعلوم من أجل محله الصغير. توقف فجأة ناظرًا لي و لسـترتي بريبة ثم اتبع:

— اوعى تكون حكومة يا أستاذ؟ نفيت عني التهمة فورًا و نفحته سيجارة، فابتسم و قال و هو ينصرف:

— شكلك ابن ناس، لا يعطي انطباع أنك حكومة.

ذهب و هو يدندن أغنية شعبية قبيحة، فطنة هؤلاء لا يمكن إغفالها، السـلطة تغوى التلاعب الممنهج، زرع بذرة التهديد المستمر حتى تضمن جزع الشعب، الحماية من خطر مجهول مقابل الحكم، أي صدور ستشفي و الجرح يوميًا يتقيح.

مصر المسـتهدفة، كررها الفرعون مرارًا في دقائق، حديث عن أخطار محدقة تتربص بنا، نفس سياسـة الأمهـات في تخويف الأبناء، لا تتكلم

الغول سيأكلك، اسمع الكلام و أطع الأوامر حتى لا تندهك النداهة، رشفت قهوتي و أنا اقرأ مقال رئيس تحرير جريدة صوت الحقيقة، صورته التي تدل من النظرة الأولى على أنه أفاق حتى اسمه المكتوب بخط كبير أحمر» ماهر الشربيني « كأنه صك عار و انتهازية.

« إن ما وقع في تونس تصدر مشهد الأحداث في العالم العربي، وبرغم خطورة ما جرى ويجري في السودان ولبنان إلا أن الأوضاع تصل إلى نهايتها بعد، وكم نتمنى أن تجتاز تونس أزمتها وتستقر أحوالها وتستقر أقدامها على الطريق الذي يحقق للشعب التونسي الشقيق أمنه وآماله، والثقة كاملة بقدرة هذا البلد العربي الشقيق على تحقيق ذلك دون المزيد من الفوضي واختلاط الأوراق، أو تدخل خارجي صريح أو مستتر في شئونه، فما أكثر المتربصين بالاستقرار في المنطقة، وما أكثر الذين يريدون انتهاز الفرصة لترسيخ أقدامهم هنا وهناك، واستثمار غضب الشارع التونسي أسوأ استغلال.

سوف يظل أمن تونس جزءً من أمننا، ومصالحه شديدة الارتباط بمصالحنا، من أجل ذلك نتابع ما يجري في تونس لأننا نخشى عليها من نجاح القوى الساعية لإحداث الفرقة والفتنة لتسود الفوضى التي تساعد على تحقيق أهداف كان من الصعب تحقيقها بدون تلك الفوضى، نخشى من انتهاز أوضاع الشارع وغضبته والسيطرة على قواه المحركة لتصل به في نهاية الأمر إلى الخضوع والوقوع فريسة لفكر يجرد تونس من كل إنجازاتها الثقافية والاجتماعية، و يعيدها قرونا إلى الوراء، ويحكم قبضته التي لا فكاك منها إلا بحمامات الدم «.

صوت آخر يلوّح بالفزاعة فمن يتخيل أنه من الممكن حدوث شيء أو انتقال العدوى من تونس، مصر ليست تونس، جملة الشهر البارد، مصر ليست تونس، بطحة على الرأس يتحسسها النظام يوميًا حتى زادت وتيرتها الآن..

أكملت المقال العبقري بتشفٍ غريب:

«إن الأحـــداث المضطربة في بعض المناطـــق العربية من حولنا، تدفع تلك القوى للزج باســـم مصر في مقارنات غـــير مقبولة أومنطقية فهي ليست بحال كتلك التي يحلو لهم المقارنة معها، و ما تشهده من وقفات أو احتجاجات فئوية أو مهنية هو من قبيل الحيوية السياســـية المصرية، التي تســـمح لكل الفئات بأن تعبر عن مطالبهـــا وطموحاتها، وجميعها وجدت طريقهـــا للحل من خلال التفاوض.

إن الأوهام التي تداعب خيال المرضى السياســـيين في الداخل والخارج وكذلـــك القوى التي منيـــت بهزيمة ســـاحقة في الانتخابات الأخيرة تدفعهم لمحاولة تصوير تلك الاحتجاجات على أنها مقدمات لاحتجاج عام وتمرد في الشـــارع، إن الأكثر ترويجـــا للمقارنات بين ما يحدث من اضطرابات في بلـــدان عربية وبين ما يحدث في مصر هم من لا يدركون حجم مصر ولا مغزى التماســـك والوحـــدة التي تميز المصريين على مر العصور والأزمنة. ولن تفلح أي محاولة لهم في إثارة الشارع المصري الذي بات يعرف جيدًا أســـاليبهم ونياتهم المناقضة لطبيعة الشخصية المصرية المعتدلة دينًا وفكرًا وثقافة. فالشـــعب المصري لفظهم ولفظ شـــعاراتهم الموهومة وأعطاهم درسًـــا لن ينســـونه عندما رفض انتخابهم ومنحهم شـــرف تمثيله في البرلمان وهذه هي إرادة المصريين».

ابتسمت في ســـخرية، بل الحقيقة أن الشعب لفظ وصايتكم عليه، و أن تجارتكـــم ما عادت تلقى رواجًا بينهم، لكن القلق من اســـتيقاظ المارد يدفع بكم إلى حافة الهاوية، السقوط حتمي لا ريب فيه، إنها مسألة وقت لا أكثـــر، ضغطت أرقام الهاتف المدونة علـــى الظرف، و انتظرت الرنات الطويلة الرتيبة، أتاني صوت فتى رنان، أشـــعرني بالألفة.

- صباح الخير، أنا يوسف صديق و زميل والدك.
- أهلا أستاذ يوسف، الإسكندرية نورت والله، بابا أخبرني أنك ستأتي.

– أهلا بك يا محمد، معي أمانة من الحاج مصطفى.

حضرتك تفضل، البيت بيتك، هل تحب أن آتى لأصطحبك، أين أنت الآن؟

– أنا قريب منك، لا تتعب نفسك، ساعة إن شاء الله و أكون عندك.

أنهيت الاتصال و طلبت قهوة أخرى، مرت الدقائق بلا معنى و الخطاب مستمر بلا احتمالية للتوقف، دفعت ثمن القهوة و خرجت إلى الطريق، أوقفت تاكسيًا و أخبرته بالعنوان، عند مدخل البناية القديمة نزلت، ثم أجريت الاتصال بمحمد، أغلق معي الهاتف بعد ترحيب حار، بعد ثوانٍ وجدته أمامي، فتى في الثامنة عشر ربيعًا، غضًا حيوي القسمات، شبيه بأبيه العزيز، له نفس الابتسامة و معقد الحاجبين و الملامح الأصيلة التي لم تتلوث بفعل العالم، صعدت السلم أقتفي أثره و هو ما انفك من ترديد عبارات الترحيب المحببة، زارنا النبي، اسكندرية نورت يا باشمهندس..

عند باب الشقة استقبلتنا الأم، قادني إلى صالون مريح نظيف، جلست جوار النافذة التي تشع بضوء الشمس الفتيّة في ساعات النهار الأولى.

– أهلا وسهلا بك يا أستاذ يوسف، أهلا برائحة الحبايب، اليوم لن نتركك، سأصنع لك غداءً يليق, حاولت التملص لكن الإلحاح و الجمُل من نوعية، «عيب، هل أنت بخيل؟ هذا خيرك» أضاعت أي سبيل للرفض..

– أولا قبل كل شئ، هذا الظرف أرسله الحج مصطفى معي، تفضل, أخذ مني محمد الظرف بأدب جم، ثم استأذن ليلحق بأمه و إخواته البنات بالمطبخ، يبدو أن المبلغ المالي بالظرف أتى في موعده، مسكين أنت أيها العم مصطفى، تتحمل البيّن و المرض و حياة كلاب الشوارع حتى تنهض بزرعك هنا، كم أحببته واحترمت فيه تمسكه بأخلاقه وسط الانهيارات السريعة لكل منظومات القيم، تناولت عصيرًا و شايًا و قهوة حتى موعد صلاة الظهر، محمد سألني أن أنضم إليه لنصليها

جماعــة، توضأت و صلينــا الظهر معًا، بعدها انغمرنا في دردشــات متنوعة شتى، أخبرته عن أبيه و عن اشتراكنا معًا في تشجيع فريق الزمالك، و قفشاته اللاذعة، كي يخبرني أنه سبب خيبة أمل لأبيه عندما ذهب به قلبه لتشجيع الفريق المنافس، فهو أهلاوي صميم على حد تعبيره و جدالهما بالساعات عقب كل مباراة على الهاتف، شاب جميــل، يملك وعيًا مبهجًا، لم أكن مثله عندما مررت بنفس عتبة السن، كنت منغلقًا أكره كل شئ و أي شئ، فقط الرسم والألوان كانا ملاذي الأمن، قُــدمَ طعام الغداء، أكلت مستأنسًــا بالدفء العائلي الــذي لم أذق طعمه، تغذيت على محبتهــم و طاقة الألفة المتبادلة و خفة الدم بينهم أكثر من الطعام، شــعور لا يشــاركني فيــه إلا من خَبــــر نفس التجربة مثلــي، لا يقاسمني إياه تحت ســقف العالم إلا أطفال الملاجئ و الذئاب المنبوذة في وديان العزلة..

تناولت أكوابًا متتالية من الشــاي، في شرفة الشقة، أدخن سارحًا في دراما الشــارع، لا أعلم لما زارني طيف لوحــات رامبرانت، المنطقة الواقعة بين الظل و الضوء، منطقة الحيرة و عدم الفهم، شــعرت أني أجلس فيها ها هنا في الشــرفة، عالم ضوئي يتفاعل تحــت نظري و عالم آخر مظلم في قاع رأســي البائس المؤلم كدمل يلفظ صديــده على مدار اللحظة. كيف يتحول إنســان له وجود فعلى، له لمحتــه المميزة، بصمته الروحية إلى ذكرى؟ الأســوأ يأتي بعد الاختفاء، الأســوأ هو ما يحدث لي كلما أتــى خيالك ليضغط على دمل عقلي يا نــور، كيف يتحول خيال إلى ألم عضوي، إلى خَدَر في ذراعي الأيســر كالشلل النصفي؟ كيف تتحول ابتسامتك إلى أزمة قلبية تعصر أوردتي بــــغلّ؟

- تبدو مســترخيًا يا باشمهندس يوسف، لو رغبت يمكنك أن تستلقي في غرفتي..

قاطع أفكاري محمد بعرضه الطيب، أردت أن أخبره أن النوم بالنســبة لي حكاية خرافية كحكايات الجدات عن الســاحرات و الشــاطر حسن

و الأميرة سجينة القلعة المسحورة، أتمناه ولا أبلغه، النوم كالحب في حياتي، أسمع عنهما و لا أراهما كطفل تعلقت أمنياته كلها في انتظار بابا نويل السخي يأتي له محملاً بكل ما يشتهي، كبرت و نضجت على نيران خيبة الأمل المكتوبة كالموت على البشر مع سن البلوغ و الأحلام وخشونة الصوت و نمو الجرأة الحمقاء في الصدور، نخدع أنفسنا في دائرة تشبه الأفعى التي تأكل ذيلها في عبثية لا نهائية بالسعادة، نتشرب و نتشبع بصورتها الزائفة منذ النشوء عبر أغانٍ و أفلام و قصص عاطفية، ثم أسلوب معيشة تروج له الإعلانات و الشركاتُ المترهلةُ من تخمة النصب باسم السعادة، تخلق في وعينا أعيادًا يجب أن نحتفل بها و بيتا يجب أن نعيش فيه و سيارة فخمة و عطور و ساعات و ورود حمراء وبيضاء و شريك حياة، أمثالي الذين بصدفة كونية تعرّت الحياة في أعينهم حُمِّلوا بخيبة الأمل المرة، الجحيم أن ترى العالم دون قناعٍ واقٍ كمن ينظر إلى شرر النيران، فتكافأ بأرق دائم يصاحبك كذنب لا يغتفر!!

- لا لست في حاجة إلى النوم، أنا بكامل نشاطي، سأغادر، أريد أن أرى المدينة..
- طلباتك أوامر يا أستاذ يوسف، لو أحببت لأتيت معك أو بالأحرى تأتي معي نقوم بجولة..

وافقت بكل ترحيب، هروبًا من دفء البيت العامر و دفعًا لمزيد من الأنس و الحنو، البوم لا يأتنس في البساتين المشمسة و أنا بومة، ودعت الأم و البنات و اتبعته إلى الشارع، كان يقوم بوظيفة مرشد سياحي بجدارة، تركته يسهب في ذكر أسماء الشوارع و شرح المعالم دون أن أخبره أني جزء من المدينة و المدينة جزء مني، أحفظها عن ظهر قلب، بعد قليل أشار عليَّ أن نقصد الكورنيش، أكملنا حتى غمرتنا رائحة البحر، الزحام كان عجيبًا، لا زحام الكورنيش اليومي و أدغال سياراته، المشهد كان مهولاً، سيارات الشرطة ومدرعات سوداء أغلقت الطريق مرتصة كقطيع من الفهود المتربصة، في الجهة المقابلة على رصيف الكورنيش، وقف رهط

من البشر، يقترب عددهم من المائة، متشحون بالسواد الجنائزي، يحملون لافتات وصور لجثة مهشـــمة الفك شوهاء الملامح، وجه آدمي تحول إلى كتلة جيلاتينية مبهمة، نظرت إلى محمد الذي ســـارع بالكلام.

- هذه وقفة احتجاجية ضد ما حدث لخالد سعيد و سير محاكمته.
- قرأت أمس أن الشرطيين قد حُولا إلى المحكمة لكي يصدر حكم إدانة، ابتسم محمد بزاوية فمه ساخرًا متحسرًا، ليذكرني أكثر بوجه أبيه.
- هو فيه حد منهم بيتحاكم يا أســـتاذ يوسف، مسرحية لامتصاص الرأي العام، صمت فجأة و هو يشّـــبُ على أطراف أصابعه مشيرًا إلى رجل أصلع وســـط الحشد الغاضب في صمت.

الدكتور البرادعي موجود، هيا يا أســـتاذ يوســـف ننضم لهم و نسلم على الدكتـــور، كم أحبه و أثق فيه.

جذبني وسط صفوف المشاهدين و الجنود، ركضت خلفه حتى وصلنا الجهة الأخرى، وقف وسطهم صموت لا تبدر منه حركة، و وقفت مرتابًا أطالع جيراني و عيني لا تفـــارق تنمّر جنود الأمن المركزي، كنت أفكر متى ســـينقضون، أنا لم أنضم إلى حركة سياسية أو حزب أو انخرطت في أي شئ له علاقة بالسياسة, تعاطفت مع الفكر الاشتراكي زمنا طويلًا، أظن أنهـــا كانت مجرد رد فعل معاكس و تمرد ضد بهرجة و معيشـــة أهلي، أيام الجامعة شاهدت المظاهرات و اشتباكات الأمن مع المتظاهرين، كنـــت ألوذ بأي مكمن بعيد، ذكرى العصى الهابط على ظهور الناس و الغاز و مدافع الماء لم تفارقني، و شـــجاعة الشباب في مواجهة القمع بهذا الشكل، تمنيت أن أكون مثلهم.

ألقيت نظـــرة جانبية على البطل المخلص الذي اســـتطاع أن يجمع الناس حوله في وقت قياسي، هاديء هو، يغلب خجله على غضبه، متعلق بمن حوله أكثر من تعلقهم به، لا يحمل ســـيم الأبطال الأســـطوريين، يشـــبه دون كيخوت الصامد أمام الطواحين.

أعلم من الصحـــف موضوع الجمعية الوطنية للتغيير، و كيف هبط هذا الرجل مبشرًا بأفكار قد نـــُسيت في طوفان الزمن، كلمة التغيير ذات الوقـــع العجيـــب، كـــبرت و تضخمت كمنطاد تعلقـــت به أبصار المكروبين، تحدث عنـــه الناس كأنه نبي وقف يلقي عصاه لتلقف ثعابين ســـحرة فرعون، المراهنة على إحداث فرق أمام تجاهل رأس الســـلطة، لم يقدروه حق تقديره، التجبر الغـــبي دفع الناس إلى الالتفاف حوله، رأيت التوكيلات التي بدأ الناس في تجميعها له و لتياره، المدهش أن ما اعتمد عليه السلطان من خوف و ترهيب لم يعد مجديًا، البسطاء يوقعون و أبناء الطبقة الوســـطى، الكتلة الأكبر، هل تاريخ توكيلات الوفد يعيد إنتاج نفسه مرة أخرى؟

الكتلة الدافعة هي الشعب، السواد الأعظم لا طبقة الحكام و أتباعهم، لا بد من إطار فكري، بوتقة تنصهر فيها إرادة الحرية.

تحركـــت قوات الأمن، يبدو أن الوقت قد حان أو نفذ صبرهم، التفت إلى محمد أريد أن أخبره بأن الفرار صار خيارًا وحيدًا، وجدت الرجل ينظر لي مبتســـمًا بود، ارتعشـــت تمامًا، أردت أن أصرخ فيه أن تلك الابتسامة المثالية لن توقف هرواة القضاء الحتمي، تشـــنج أحد المتظاهرين صائحًا في رفاقه أن تتحرك المسيرة.

مع أول خطوة رومانسية على سكة الحلم انقضت القوات، تفاديت ضربة غاشمة مندفعًا إلى الفتى، الشباب التفوا حول رمزهم يزودون عنه، قبضت على كف محمـــد لأجبره على اتباعي، حاول المقاومة لكني كنت خائفًا لدرجة جعلت من الصعب مقاومتي. اندفعنا نخترق البشر عبر الطريق، نظرت خلفي لأجد ثلاثة رجال ضخام يطاردوننا، سبقني محمد و هو يقول:

- اتبعني! إلى الترام يا أســـتاذ يوسف. لم أتوانى للحظة، كنا نركض كنعامتين هربتا من الفهود، الرجال حركتهم البطيئة نسبيًا جرّاء الوزن الزائد تركت لنا مســـافة جيدة حتى قفزنا إلى الترام المندفع، أمسك محمد بيدي ليساعدني على الصعود إلى درجات القطار حتى

لا أسقط تحت عجلاته. دخلنا إلى العربة و أنا أتابع المخبرين الذين وقفوا بخيبة أمل، أحدهم كان يتحدث في جهاز اللاســـلكي الأسود، جلست جوار الفتى ملتقطًا أنفاسي، وجدته مبتسمًا ملء شدقيه..

- كنا هنروح في خبر كان يا محمد.

- أنت عدَّاء بارع يا باشمهندس.

قالهـــا و هو يضحك، ابتســـمت رغمًا عني و أنا أشـــعل لفافة التبغ، نظرت إليه متسائلاً:

- ماذا بعد يا محمد.؟ هل تظن أن هذا الجنون سيؤدي إلى شئ.

- الجنون يحارب بالجنون يا أستاذ يوسف، قل لي أنت ما السبيل أمامنا كي نصبح في مرتبة الحضارة، هل نصمت؟

- لا!! لكن أنت أمامك مســـتقبلك، أنهي كليتـــك و أحصل على شـــهادتك هذا هو المهم.

- و ماذا بعد أيضًا، ســـأجلس على المقاهي أو أدمن المخدرات أو أصبح درويشًا، هل ترى مستقبل في هذه البلد! أمثالي و أفضل مني لا يجدون عمل، أو أهرب إلى الخليج مثلك و مثل أبي و أضيع عمري بلا حياة فعلية، أنا آســـف يا أستاذ يوسف لم أقصد شـــيئًا، لكن أردت أن تعلم حجم المأســـاة، أمثالي من الشباب تتغنى بهم خطب الحزب الوطني، لكن في الواقع يقتلوننا كل يوم، و بكل السبل، في مركب هجرة غير شـــرعية أو في الأقســـام أو حتى يدفعونا إلى الانتحار جرّاء الملل من تحقيق شئ.

صمت أخيرًا و لم أقل له شـــيئًا، الفتـــى قال الحقيقة مجردة، لعلي لا أعلم ؛ أو لم أختبر تلك الأمور، أنا في النهاية ابن لطبقة الأباطرة، حتى عملي أو ســـفري كان نتاجًا لأزمة عاطفية، لست مناضلاً أو مكافحًا أنا مجرد جبان أفسدته رقة العيش و رهافة الإرادة.

قبل أن يتوقف الترام قال محمد متعجلًا:

- هيا بنا يجب أن ننزل قبل المحطة، بالتأكيد المخبرين هناك. اتبعته مرة أخرى، قفزنا من الترام الأزرق ثم ركضنا عبر الشارع متوارين بين الحوانيت، مشينا حد الانهيار فأوقفته قائلاً:
- محمد، لا أستطيع الاستمرار هكذا.
- اقتربنا من المنزل يا أستاذ يوسف، تشجع.
- لا! أريد أن أعود للقاهرة. حاول الفتى أن يثنيني عن رغبتي، متعللاً بغضب أمه لو عرفت برحيله دون إكمال واجب الضيافة.
- لا عليك، يكفي من المدينة ما حدث حتى الآن، أراك بخير يا محمد.

عانقني الفتى بحرارة و أقسم أن يأتي معي حتى أركب القطار، انصعت له حتى وصلنا إلى المحطة، ودعني و ودعته، ابتعت التذكرة ثم جلست انتظر، تفقدت هاتفي، قتلاً للملل، ولجت إلى البريد، رسائل متراكمة منذ شهور، عروض شركات طيران و أسواق و رسالة من العمل، كلها رسائل بلا أهمية في العالم، الغريب أن هناك من يشغل وظيفة في شركة لإرسال تلك الرسائل، توقفت أمام الاسم المألوف، داليا جلال حجازي، فتحت الرسالة بتوتر متصاعد.

(كيف حالك يا يوسف؟! أظن أنك تذكرني، لا لصعوبة نسياني لكن لارتباطي بذكرى لا تُمحى، يوسف، نور طلبت مني أن أجدك، بالطبع أنا لا أعرف أرقام هواتفك أو حتى أين أنت؟! هل في مصر أم خارجها لكني لحسن الحظ معي عنوان بريدك الإلكتروني، أتمنى أن يكن كما هو لم يتبدل، نور يا يوسف أرسلت رسالة غامضة، إحساسي بها يخبرني أنها في مأساة، المهم أرجوك هذا رقمي اتصل بي في أقرب فرصة...) الرجفة تزداد أكثر، أشعر ببرودة تهبط عليَّ، كأعراض مريض بالحمى، كل شئ بدأ بكِ وسينتهي بكِ يا نور، شيطاني الذي يسكن في زوايا روحي، لا فكاك منكِ إلا بكِ.

(13)

نور الهدى فريد عبد العظيم

أغرقت نور نفسها في روتينها الجديد، ما عاد المنزل إلا استراحة نوم، طوال النهار تصاحب جان بجولات نهارية، تنسل من البيت مع أول ضوء للنهار، تاركة الشيطان يغط في نوم الكهوف الدببي، تحمل كمانها القديم ثم تنضم إلى جان في مقهاه الأثير، يتناولان القهوة بالحليب و تستمع إلى ثرثرته الجدلية. للمرة الأولى ترى باريس الحقيقية، ليست تلك المرسومة على بطاقات السياحة الملونة، ثلاث سنوات حبسًا انفراديًا وضعت عقبة نفسية بينها وبين المدينة التي تغزل بها الجميع، رأت «مونمارتر» القديم، الحي اللاتيني بمقاهي المثقفين و طلبة الجامعة، اصطحبها جان لمقهى «هيمنجواي» المفضل في «مونبرناس».

- هنا كان يجلس بشاربه الكث، يشرب الجين و ينظر إلى المحيط المنساب في الشارع بنظرة تحدي الملاكمين يا نور.

أغرمت بسوق «البراغيث»، مرادف لسوق الأغراض المستخدمة، «وكالة البلح» الباريسية، يوميًا كانت تتجه إليه، اشترت وشاحًا حريريًا ملونًا، وأسطوانات قديمة «لإديث بياف» «أم كلثوم» فرنسا، عشقت رائحة التوابل الشرقية و الزهور المجففة، في الطرقات.

الحياة هنا في المعروضات إلى دوية و في عيون الناس، ذلك الضوء الخفيض المشابه لانبعاث أوتار الكونترباس في الأوركسترا، نبض لهالة تميز الرضا و السكينة و الأمل.

ثلاثة أيام في الأسبوع كانت تنضم إلى فرقته الصغيرة، في جولتها بين المصحات و بيوت العجائز و دور الأيتام، شعرت أنها اكتشفت الموسيقى

مرة أخرى، زارتها البهجة الأولى لعزف «موتسارت» و رباعيات «بيتهوفين» و «هندل» و «شوبرت».

كانت تنهي نهارها ثم تعود إلى المنزل داعية إلى الله أن لا ترى عاصم استجاب الله لها مرارا تلك الأيام، دائما تعود لا تجد عاصم الذي يبدو أن سعيه المحموم وراء هدفه أنساه أن يلاحظ عدم وجودها أو وجودها.

عاصم جبر يوميا كان في أوج نشاطه، بعد أن يستيقظ قبيل الظهيرة، يتفقد رسائله الإلكترونية، كتيبة مساعديه في مصر، الأخبار أن انفراجة ستأتي على مستوى التصالح السياسي مع أمثاله، لم يشغله إلا عكس ما يشغل عبد آبق، العبد يتمنى الفكاك من سيده و هو يقاتل أن يعود إلى حظيرة سيده مجددًا، بعد موت أبيه يوسف جبر، شعر أن كثيرًا من أرباحه توزع على الترضيات و التوصيات غير المقتطعة من المنبع، ضريبة بل فرض عين لكي يتركونه يمارس نشاطه، عاصم لم يهتم بالسياسة كأبيه، رأى أن الأعمال التجارية أبقى، لعل تركيبته النفسية التي تميل إلى تجارة الرقيق أفقدته حنكة أبيه، لعل أيضًا كبرياءه الطاووسي دفعه إلى رفض وصايتهم، حاصروا أعماله كبداية، توجه إلى صديقه رجل الأعمال البارز و إمبراطور صناعة الحديد و الرجل الأول في لجنة السياسات يطلب مشورته، أبلغه أن يستغل وقته و يرحل إلى أوروبا أو أمريكا، لأن تمسكه بالبقاء سيُتخذ على أنه نوع من تحدي الإرادة، و العاقل لا يدخل بمعركة تكسير عظام مع دیناصور، أخبره أن التوسط خطر لكن ليرضى بما يملك في الخارج و يرحل، «تبات نار تصبح رماد يا عاصم»، تلك خلاصة الحكمة و الحكم.

البرعي قال له أن ينظر إلى رجال الأعمال العاصيين، تم تخوينهم و اتهامهم بالتطبيع مع إسرائيل، بالطبع الاتهام الأكثر رواجًا على المستوى الشعبي والأسرع تشويها، رغم أن التطبيع يتم بشكل رسمي، و قصة الغاز حاضرة، لكن الذاكرة الجماعية انتقائية.

تأخـــر رد البرعي عليه، مع إلحاح عاصم بالاتصالات أخبره ســـكرتير البرعي أنه ســـيزور باريس في التاسع والعشـــرين من يناير، اللقاء سيتم، اســـتغل عاصم الأيام القليلة في ترتيب أوراقه و أفكاره، لمَ لا يشـــترك في اللعبة السياسية، يجب أن يندمج معهم بشكل ما، أن تتقيَ شر الذئاب يجب أن تصبح واحدًا منهـــم. ما تبقى من ثروته، دفع به إلى بعض المخلصين من معارفه لدورها في البورصة، أراد أن يضاعف مكاســـبه حتى يعود قويًا قادرًا على النهوض مرة أخرى، شغله كل هذا عن تعذيبه اليومي لنفسه و لنور، غيابها أعطاه فرصة أكبر في إشـــعال حقده تجاهها لكن كل في حينه، كان يسهر كل ليلة بنوادي شارع بيجال، يشرب بلا حدود و عند انتهاء السهرة يصطحب أي امرأة إلى غرفة مؤجرة بفندق رخيص، يقضي منها وطره، بحيوانية و هو يتخيل امرأته العاصية، سيعود و يكون الحساب قد حان، « تبات نار تصبح رماد يا نور «.

جان جـــودار، كان طوق نجاة، أو نافذة لهـــا على مكان أرحب، كان واحة أمان لها وســـط هجير حياتها، آخر يـــوم في مغامراتها الصباحية معه لن يختفي من روحها، يوم من أيام التقويم اللامعتادة، تمشـــت مع جان وسط الطرق المتقاطعة، أشار إلى مقهى و حدثها عن ذكريات ثورة الطلبة في أواخر الستينات، وكيف كان أحد المشاركين، رغم سنه الذي لم يتجاوز الثامنة عشـــرة، مايو ١٩٦٨ و شعار الاحتجاجات، »مايو بداية نضالي المســـتمر»، أحداث مايو عام ١٩٦٨ في فرنســـا هي فترة عنيفة من الاضطراب المدني ســـادتها الإضرابات العامـــة والاعتصامات في المصانع والجامعات في أنحاء الجمهورية الفرنســـية بدافـــع من الطلبة والعمال والاشتراكيين والشيوعيين. وقد كانت أحداث مايو ١٩٦٨ أكبر إضراب عام شهده تاريخ فرنســـا، والإضراب الأول من نوعه على مستوى البلاد. وصل الأمر إلى حد فرار »شارل ديجول» من فرنسا إلى ألمانيا لعدة ساعات.

انتهى الأمر بالموافقة على حـــل الجمعية الوطنية والإعلان عن عقد انتخابات برلمانية جديدة في يونيو والتي خرج منها الديجوليون أكثر قوة.

- ثورة على جميع الأصعدة يا فراشة، تمخضت عن يومين و عاد النظام أكثر قوة. قالها جان واستغرق في ضحكة حزينة، ثم أتبع:
- هنا كنت أحد المتحلقين حول «جان جينيه»، القديس الملعون، قابلت «سارتر» في بداية السبعينات لكني لم أستسغ تقعيره، لكني أحببت «جينيه»، بعدميته و صراعه و صلبه المستمر لذاته، أحببت فيه أنه فخور بكل عيوبه الإنسانية و زلاته حتى جرائمه، ذاك ما صنع منه فيلسوف.
- أنت أول مرة تذكر لي أخبار من ماضيك يا جان.
- أنتِ لم تسألي يا فراشة.
- أحترم عدم التدخل، لعل السؤال مؤلم، و الإجابة أكثر ألمًا.
- حسنا، اسمح لك على سبيل التواصل الإنساني غير أنه حقك، بعد أن قصصت على كل شئ عنك.
- أترين تلك البناية عند الزاوية، هناك كان أول لقاء جمعني مع زوجتي، سيلفيا كلاس، الصهباء المتنمرة، كنت أركض وسط قنابل الغاز أنا و بضعة رفقاء، وسط باريس هنا كان مشتعل، حقل لمعركة نابولونية عظيمة، أيام كانت ترديد لثورة عظمى، شاهدتها تقع، حملتها إلى مدخل البناية، لم يكن دافعي نوعا من الشهامة بل كان انجذابًا، عندما سقطت، سقطت في غرامها، دون مبررات فقط حدث، فالقنابل لا تحتاج مبررات لتهبط على رؤوس الفلاحين في فيتنام، هي فقط تهوى، و أنا قد هويت، كان مفهوم القدر ملغز عندي وقتها، أسئلتي الوجودية لم أجد لها إجابة شافية، حتى مواظبتي على حضور محاضرات الفلسفة في المعهد الفرنسي للعلوم زادني حيرة، تجاهلت كل المتعارف عليه من الغيبيات و مفهوم الإله و صراع الإنسان مع العالم و ذاته، لكن تبقى مفهوم القدر مخايل، مصمم على دفع إلى الجنون، لماذا يحدث شئ في وقت محدد؟ لماذا أقابل حب حياتي وسط أطلال المعركة؟

أبي كان دائمًا يقول إن كل شئ قد خطه الرب في دفتر الزمن، آه لم أقل لك، أبي كان كاهنًا كاثوليكيًا أصيلاً، منحدرًا من كاهن منحدر من فلاح، تزوج أمي و أنجبني، أبي لم يكن راضيًا عن اختياراته أو حياته في المجمل، كانت الشكوى الخفية تعلو أحيانًا مع كل موقف حياتي، لكنه كان دائمًا يفسر لي الأحداث بأنها مشيئة الرب.

أسأله:

- لِمَ لا نملك سيارة كجيراننا؟! يجيب:
- لو أن الرب أراد أن يهبنا سيارة لوهبنا..
- لِمَ نحن فقراء؟ يقول لي:
- لو أن الرب أراد أن يهبنا المال لفعل..
- لِمَ أمي مريضة بذات الرئة و هي امرأة طيبة مطيعة؟ يقول:
- لو أن الرب أرادها بريئة سليمة لفعل!!

دفعني إلى الطقوس دفعًا، أراد أن يجنبني مرارة السؤال، الأمور دائمًا جيدة و سهلة التقبل مادام ليس وراءها سائل، سألته ذات مرة:

- لِمَ الله لا يجيب صلواتي؟ أجاب:
- لو أراد الله أن يجيب لفعل لكنه يختار التوقيت الذي يناسبه لا الذي يناسبك، فأقول له:
- لكن أنا أصلي وقت حاجتي، لعل الوقت الذي يناسبه عندما يحين تكون حاجتي انتهت، يسقط في حيرته لكنه يعيد قوله،
- لو الله رأي أن الوقت مناسبًا لفعل..

كبرت عدة أعوام، كنت أتسكع جوار دار الأوبرا، أتلصص على العازفين و هم يتمرنون، أردت أن أتعلم الموسيقى، أن أعزفها، أخاطب بها الرب لعله يرضى، ذهبت لأبي و قلت له:

- الرب أراد لي طريقًا أن أكون موسيقيًا، قال لي:
- ما أدراك أن تلك مشيئته أتعبث معي و مع الرب يا فتى، قلت:
- لا قد غفوت فرأيت الرب يسوع يعطيني كمانًا و يقول هذا طريقك..

بالطبع كنت أكذب عليه لم أرَ حلمًا، أو المسيح بشرني لكني أردت أن أقنعه بمنطقه، وافق ساعتها على مضض ثم انضممت إلى دروس الموسيقى، مات أبي و قبله أمي و تخرجت لأعمل في كل شئ!!

صباحا، محاسبًا في بقالة و موزعًا للجرائد، انضممت إلى الحزب الشيوعي و أنا في الثامنة عشرة، شغفت بالعدالة في كتب ماركس و أنموذج الاتحاد السوفيتي و أحاديث الاشتراكيين في «مونمارتر»، وسط كل هذا لم أتوقف عن العزف في المسارح و البارات و حفلات الميسورين بالمساء, حتى أتى يومًا قرأت إعلانًا عن اختبارات انضمام لأوركسترا باريس، خضت المسابقة و كنت من العشرة المختارين، قامت الإضرابات و الاحتجاجات في كل شبر، انضممت إلى الشباب حتى يوم رأيتها، القدر يعمل بمنطق خاص، سيلفيا كانت تدرس الاقتصاد في السوربون، فتاة لها شخصية قوية و لها فكر مستقل، تصادقنا بعد الأحداث، و تبعتها في كل مكان، لم أفترق عنها قيد أنملة، دائمًا معها في السوربون و محاضرات فوكو عن البنيوية و حفلات السهر الليلية، أغرمنا تمامًا بعضنا البعض، بعد ثلاث سنوات تزوجنا زواجًا مدنيًا كاملاً بلا مراسم، و استقررنا في شقة حقيرة، لكنها كانت أسعد فترات عمري، بين الأوركسترا و البيت وزعت وقتي، ولاء كامل لها، بعد شهور حملت في أول جنين، لكن الحمل لم يستمر، الأطباء أخبرونا أنها تعاني من تجلط المشيمة مما يمنع ثبات الحمل، هونت عليها و أخبرتها أنه بالتأكيد سيحدث، الرب إن أراد أن يعطينا طفلاً سيفعل قلت لها ذلك متقمصًا شخصية أبي، حاولنا مرارا، و النتيجة واحدة، تغيرت بعد إحباط حرمانها الأمومي، بدأت تشرب بنهم و تغضب دون سبب أو داع، حتى أتى اليوم المشئوم، كنت في رحلة مع الأوركسترا وبعد عودتي شاهدتها مع عشيق في بيتنا، من هول الصدمة

تســـمرت، هرب الرجل و هي ظلت باردة تدخن على الفراش تنظر لي، ثم انفجرت فيَّ بأقذع التهم و السباب.

— أنت لا تصلح لشـــئ، حياتنا مجرد مجرور مـــاء عفن، أريد الخلاص، غاضبًا هجمت عليها، و أنا أتســـاءل متى يموت الحب، توقفت بعد أن لفظت أنفاســـها، أتذكر تلك اللحظة، السكون الرهيب، كنت قد متُّ معها، اتصلت بالشرطة و اعترفت بالجريمة، مما كلفني خمسة عشر عامًا في السجن..

العزلة كســـاؤها الحزن، في السجن قرأت كل شئ، التاريخ الفلسفة العلـــوم، لكن لغز القدر ظل كما هو، لمَ يحدث لنا شـــئ ما في وقت ما؟ لمَ نقابل أناســـا يغيرون مجريات حياتنا، كعلامـــات الطريق الباهتة في الضواحي؟

أردت أن أكون موســـيقيًّا عظيمًا كي يـــؤول بي المآل إلى زنزانتي رقم ١٦٩، لعـــل الرب أراد أن أصبح قاتلاً، كمنطق أبي، لكني أيقنت مع الوقت أنني حتى لو عاد بي الزمن للوراء ســـأقتلها، جرائم الحب هي ما يحرك التاريخ، حرب طروادية يبذل فيها مقادير أبطال و ممالك من أجل فتى سرق زوجة أحدهم، هل تلمسين السخرية في هذا العالم يا نور، الحياة ما هي إلا عرض كوميدي في مســـرح نحن أبطاله لكي نسلي الآلهة..

— هل وصلت إلى إجابة؟

— لا، بل وصلت أن لا شئ تحت السماء له معنى، عبث و ضياع، أنا مجرد أعمى يحاول عبور الغابة الظلماء في ليلة بلا قمر، خرجت و قررت أن أترك العالم في شـــأنه، لا أهتم و هو لا يهتم، اخترت أن أقضي الوقت المتبقي لي على هامش كل شئ، فقط الموسيقى، أخرجت كل شئ من داخلي: المال و المجد و الحب حتى القدر، فقط أجلس أنظر إلى الحياة و أضحك، لن أكون بيدقًا في رقعة الشـــطرنج مرة أخرى أو ممثلاً متشنجًا يُسْعِد المتفرجين، حتى ظهرتِ أنتِ، القدر يلعبها مرة أخرى.

- ما كل هذا يا جان!! لن أخفي عنك صدمتي، ليست صدمة مثالية في توقعاتي عنك، لكن في أفكارك وسط كل هذا، كيف عبرت إلى ضفة النهر، القدر لعب معك، لكن ما دوري أنا، عندي أطنان من الأسئلة، نفس ما ذكرته من أسئلة، ما هو القدر؟!

متى يموت الحب؟ ما هي احتمالية أن نقتل؟ أنا اعتذر لك يا جان يبدو أن حمقي و فضولي فتح بابًا مغلقًا.

- لا عليكِ، نحن نحتاج للبوح أحياناً، هذا ما دفعك في البدء أن تشاركيني قصتك، أول عابر سبيل في حياتك يا نور، نحتاج هذا كثيرًا، لكِ الحق أن تسألي و عليَّ أن أجيب.

- جان، متى يموت الحب؟ هل مررت بلحظة قبل ما حدث شعرت أن الأمر ليس كما كان، انتهى، تبعثر.

- نعم، الإحساس بأن الرباط المتين بيننا قد تمزق و الباقي مجرد مساحة شعرة واحدة عن الانفصال زارني، هاجس قوي احتل أوهامي اليومية، حاولت طرده بالفعل، لكنه عاد يزورني كالنذير، يأتي وقت يعلم فيه عقلنا الباطن و غرائزنا أن الشخص هذا بالتحديد ما عاد لنا، تبدلات إنفعالاته و استجابته ليست كما ألفنا، ننكر ما تراه أعينا ثم نلقي كل اللوم على أنفسنا، و نتجاهل السبب الساطع، أنه ما عاد يكن لنا نفس المشاعر، نصبح في عينه صورة مقلدة رديئة لشئ كان أصيلاً من قبل، نكبح زمام الحقيقة و نختار الاستمرار لأننا لن نستطيع تعويض نفس الإحساس أو استبدال هذا الشخص، يا فراشة نحن ننخدع، لا لأننا حمقى بل لأننا نعشق طعم المخدر المصاحب للخدعة، التوّق للسعادة يشبه البحث عن نبع الشباب الخيالي.

هل ندمت على قتلها يومًا في محبسك يا جان؟

- يأتي وقت يتساوى الندم مع القبول، جلد الذات هواية كل مصاب في قلبه يا فراشة، لكن المفارقة وسط كل هذا، لم أتوقف عن حبها يومًا.

– و القدر، كيف خاطبك في لقائنا؟

– عندما رأيتك للمرة الأولى، شـعرت كمريـض وجد أخيرًا صفحة بيضـاء و قلم كي يخط وصيته، أنا معك لا أحاول ممارسـة هراء التنمية الذاتية، بل في الحقيقة أسـاعد نفسي من خلالك، هذا هو الأمر يا نور، القدر يهبـني أمنية أخيرة قبل الحكم النافذ.

تركت كلماته الغامضة أثرًا لا ينمحي على روحها..

بعدما أنهت جولتها اليومية، تركته و عادت سائرة على قدميها، بدت الشوارع أعمق و البنايات تطل كوجوه مجانين في مصحة، شعرت أن لا فائدة من مسايرة الظروف، أو التكيف الحربائي المستمر مع محيطها، لمَ تضيع وقتها في البحث عن ذات ضائعة هنا، كل ما تريده هناك عبر البحر، لكن القرار بفتح الباب البعيدٍ أصعب مما تتصور، أخرجت هاتفها المحمول بحثت عن رقم صديقتها الوحيدة القديمة، داليا أرادت أن تتشبث بصوت يذكرها بنور المألوفة، وجدت الهاتف مغلق، خطت رسـالة مقتضبة بلا تفكير..

«داليا حبيبتي، أنا لست بخير، ابحثي عن يوسف، اطلبي منه أن يصفح لعل الأيام تحضر فرحة نرجوها، أحبك. دلفت إلى بنايتها تجر أقدامها جرًا، دعت الله أن لا يكون الشـيطان موجـودًا، تذكرت جملة جان عن أبيه، لو أراد الله أن لا يكون عاصم بالبيت لفعل، ابتسـمت و هي بالمصعد الحديدي العتيـق، أغلقت الباب ذو الصرير الـداوي في خلاء الصمت، وضعت مفتاحها في باب الشقة و دخلت تحتضن كمانها، وجدت عاصم يجلـس على الأريكة عاريًا تمامًا كما ولدته أمه يعاقر الخمر مباشـرة مـن الزجاجة، غضت بصرها اشمئـزازًا، مندفعة إلى ملاذها غرفة النوم متجنبة صدامًا وشـيك، كما توقعت وقـف عاصم معترضًا طريقها و الشرر يخرج من عينيه.

– مبكرًا عودتك اليوم، هل انتهيت من خيانتي الليلة سـريعًا، يبدو أن عشيقك مَلّ من مضاجعتك.

- أنت أقل من الحيوان، لو هناك خائن تحت سقف هذا البيت فهو أنت، أنا خنت نفسي فقط عندما ارتبطت بحشرة سامة. أسكتتها صفعة دمت لها شفتاها، دفعته لتلوذ بغرفتها لكنه قبض على شعرها بوحشية ثم دفعها على الأرض، بكت نور بضعف الفرائس، التقط عاصم سيجاره و أشعله و نظرة سفاح مختل تحوم في مقلتيه، أخذ نفسًا عميقًا ثم فتح حقيبة الكمان، ليخرجه و يداعب أوتاره و هو يضحك بجنون، بدت من نور أنات و سباب خفي، رفع عاصم الكمان ممسكا به كمضرب، ثم هوى به على ظهرها، لينكسر إلى قطعتين مع صوت أنين متبادل تحول لصراخ، أنين الوتر المقطوع و المرأة المعذبة.
- سأكسر أنفك الليلة يا عاهرة، يا قمامة فراش ابن الراوي، هل كان يأتيك من الخلف، حسنا سأفعلها و بأعنف مما تتخيلين، الليلة أنتِ عبدة، سأفعل بها ما أشاء.

ألقى عاصم نفسه عليها ممزقًا ثيابها و هي بين الغياب و الحضور، جردها من الثوب و بدأ في اغتصابها، توقفت نور عن التنفس،

عن الشعور، عاصم كان يقاوم ضعف ذكورته جرّاء السكر الزائد، بحقده الذي فعل مفعول الجلاد الوفي.

اختفى المحيط الحاوي لجسدها، رأت كمن يهيم في حلم، مسرح مزدحم، في الصف الأول جلس أبوها، و يوسف متكئ على حافة المسرح الخشبية بنظرته الأثيرة، و هي جوار المايسترو جميل المنتصب كتمثال روماني شاهق يمسك عصاه بشموخ الأنبياء، رأت نفسها تعزف، يا ربي ما هذه المقطوعة، لم تميزها، خليط من «باجنيني» و «كروتزر»، لا بل هي الموسيقى الملحة التي تنساب في اللاوعي المضغم في الصباحات المشوشة، لمحت هناك وسط الممر جان يبتسم، ثم اشتعلت النيران في أرضية المسرح، تلفظ أصوات جوقة سماوية، بلغة ميتة منقرضة تشدو أتى الميعاد، يوم العرض الإله يتدلى من عليائه ليلقي كلمته الأولى كي تصبح الأرض الخراب جنة عندها تدوي نفخة الصور تبعث الموتى النائمين ليشهدوا

باب المحكمة و الرب يقول، أنا أنا أنا الحب، الحب هو من سيعبر بكم نهر المأساة فمن عرف الحب لن يلقى سوء الحظ و العاقبة فتحت نور عينيها ببطء، الوحش كان يشـــرب و يشرب، حاولت أن تزحف إلى مكمنٍ بعيد، قام مترنحًا ينز عرق الخنازير من مسامه، انقض عليها مرة أخرى سحبها كدب أشـــهب يقوم بتشريح غزال، ضحك فسال لعابه على وجهها، زرع أظافره في لحمها، فتشـــقق الجلد الرهيف، لكمها، زاد وحشـــية و تجبر، شعور المســـيطر على الإرادة، نور مكومة تحته و هو يطأها مرارًا و تكرارًا، كطاغوت مهيمن على مدينة شـــعبها ما هو إلا عبيد مشـــيئته، كأول صنم ذكر يُعبد بعد تحريم عبادة الأنثى المقدســـة..

عاصم هو ذاك القمع هو أغلال قرونٍ من العبودية اســـتحلت المرأة، و اســـتعبدتها في حريم السلاطين الأميين، الأنثى، الأرض المسلوبة، محتلة بقضيـــب ناري، لتلـــد عبيدًا منكفئي الرؤوس، من رحـــمٍ لا يعلم كلمة الحرية المنسية.

أنهى عاصم انتقامه الأســـود، تركها كخرقة بالية، ثم انسحب إلى الغرفة، تعالى شـــخيره بعد أقل من دقيقـــة، ظلت نور في رقدتها لا تفقه، تتســـاءل بأفكارها، هل لا بـــد أن نمر بنهر الجحيـــم حتى نصل لضفة الخلاص؟

الخلاص في الغياب، التحلل، النوم الطويل، بلا أحلام، كوابيس الروح أفضل من أحلام الواقع.

تمالكت نفسها، استندت على الجدران و الكراسي و باب الغرفة، كغصن متكسر تحت حوافر البقر الوحشي، بحثت عن الماء، الماء يطفيء النيران، الماء يشـــكل الحياة، الماء مهد الخلق، الماء لا يروي وقت اســـتعلان الدم.

شربت بنهم، ســـقط الكوب مهشمًا قطعًا فسيفســـائية على الأرض، اتجهت إلى الشرفة، دخلت وسط الأمطار و الهواء، عارية تقطر بالدماء و الســـوائل و الأسى، كطفل مبتسر خرج من رحم أمه مرة أخرى، تسلقت

مقعد و وقفت على حافة سور الشرفة، تتشرب الانحطاط مع قطرات المطر الملحية، الانتحار باب بعيد، اللاوجود، فقط عليها أن تعبر العتبة بين العوالم، أن تقفز، الانتحار شجاعة أم هروب؟! لعل الهروب شجاعة في وقت ما، غدًا ستتصدر صورة جثتها العارية صفحات الأخبار، و ستخرج مقالات وإحصائيات عن غرام العرب بالانتحار في عواصم أوربا عن طريق القفز من الشرفة، سيتحسر بالتأكيد عابر سبيل على المرأة المغطاة بأوراق الجرائد، يتساءل عما دفع امرأة تملك هذا الجسم المنحوت إلى القفز، ثم سيكمل يومه بلا أية مبالاة سعيدًا أنه يتناول إفطاره.

القفز من البنايات طريقة بديعة للموت، المنتحر يكون محظوظًا، بنسبة تقترب من المائة يموت بالسكتة القلبية قبل أن يلمس الأرض و يشاهد مخه متناثرًا يلوث الرصيف و هو في سكرات الموت، تركت نور السور لتتكوم على أرضية الشرفة، قالت لنفسها: المنتحر لا تغزوه الأفكار التحليلية بالتأكيد، هذا ليس مصيرها، مازال هناك شيء يجب أن يكتمل قبل الانتقال إلى الضفة المقابلة.

أدركت أن لديها مهمة إتمام لحنها الذي ما زال ناقصًا لم يكتمل بعد، المايسترو علمها أن لكل إنسان لحنه الخاص الذي يسعى لإتمامه قبل الانتقال للضفة المقابلة.

– نور، أنتِ لحن لم يكتمل بعد.

صوت قطرات المطر بعث بداخلها شيئًا، تحتاج أن تفكر بوضوح، حزمت أمرها و قامت إلى الحمام؛ تحتاج إلى الماء فتحت صنبور المياه، و تركت الماء ينساب بالمغطس سترقد بداخله ليحتويها الماء و يغمرها كالجنين يحتمي داخل رحم أمه بسائله الزلالي الذي يهبه الحياة و يشكل درعًا واقيًا من حوله ليكتمل نموه قبل ولادته.

هي تحتاج لميلاد جديد رقدت نور بالمغطس غمرت جسدها و رأسها بالماء؛ بين الأنثى و الماء علاقة خاصة جدًا!!

اغتسال الأنثى بعد جماع الاغتصاب ليس مجرد اغتسال لإزالة الأثر، بل تطهر لمحو الأدران العالقة بها جراء ملامسة جسد قذر لجسدها؛ اغتسال من أنفاس كريهة لفحتها كهواء الجحيم الملوث ببقايا آدام محترقة.

الماء ينظف جسدها من عرق المغتصب اللزج و لعابه و سوائله العفنة التي التصقت بها ولوثتها، في الماء خلاص للأنثى ينقي جسدها و يصفو تفكيرها مع قطراته التي تنساب عليها، لتولد به من جديد..

مكانها ليس هنا، بل هناك عليها أن تعود، ستهرب، لن تبقى مع عاصم، هذا الوحش السادي عليها أن تغادره مرة واحدة وللأبد.

***

الحركة الثالثة

Marcia funbral

مارش جنائزي

(1)

يوسف كامل الرواي

خلعت ملابســـي حتى صرت عاريًا تمامًا، كإنســـان الكهف، كصياد بدائي!! نزعت عني قشـــرة الحضارة تلك المتراكمة منذ آلاف الســـنين والتي تمخضت عن ثياب و أجهزة إلكترونية و ســـيارات و طائرات ومطاعم الوجبات السريعة والمولات تجارية التي تشغل مساحاتها الواسعة محلات فقط تحمل بضائع بلا قيمة لمجرد أنها ماركات شـــهيرة..

أين الإنسان؟

لا شئ مجرد أقنعة فوق أقنعة تخبيء تحتها بركة سوداء من التوحش، خلف كل مثالي مناصر للأخلاق لامع الأســـنان يقبع ذئب تثير الدماء سعاره.

أغرقت نفســـي في حوض الاســـتحمام، أردت أن أنفصل عن نفسي، أن أجرب الغرق، ليتني كنت أملك شـــجاعة الانتحار عندما كان الوقت يســـنح، لو كنت رجلاً بالفعل لقطعت شـــرايين معصمي بشكل عمودي صحيح حتى تغـــرق دمائي وجه الأرض، ما كنـــت عرفت نور ما كنت غرقـــت فيها، ما كنت علمت ما هو طعم النفس الحي النابض القابض لأحشاء العاشق، ما كنت حطمت رأسي عند أعتابها أو صدقت وآمنت، ما كان عاصم و ما كان تخليها عني و ادمانها لطريقة الحياة تلك، السهر و الشـــرب و الرقص و السفر كل نهاية أســـبوع إلى شواطيء المنتجعات الفاخرة شأنها في هذا شأن الاستهلاكيين هؤلاء الآليين الموتى الأحياء، هـــم موتى لأنهم لا يدركون من الحياة إلا الانغماس بملذاتهم، ما كان شريف قد مات!!

أقصد ما كان قد قتل بدمٍ بارد، أضحية قدمت لمذابح رجل الأعمال النابه حتى يظفر بما يشتهي.

تذكرت إشارة أبي كامل الرواي وسط انكساره، كان سؤالي:

– لمَ لمْ تقتص؟ هل خوفك من وليّ نعمتك منعك أم يدك لا ترتعش إَلا قرب رقاب أسيادك، ابنك المفضل يأكله الدود في باطن الأرض، و أنت فقط صببت حقدك القديم على أنا، ورفضت عيناك أن ترى تقرير المعمل الجنائي الذي تم تجاهله، عشت أنا منفيًا بذنب دم أخي اللامع, و القاتل هناك يحتفل بشراب الانتصار و الترقي و الرضا، بل و الأسوأ من كل هذا يضاجع امرأتي الوحيدة لكي تكتمل سيريالية المشهد.

أي شاعر مجنون تضيع منه معاني الوصف البليغ لشرح ما في قلبي، عرفت ما هو شعور بدوي في الخلاء يغير عليه قطاع طرق يقتلون أهله و يستحيون نسائه و هو يرى كل هذا تحت حد السيف، يبدو ياأبي أن تخليك عن دم ابنك ما كان إلا جزءًا من الصفقة، أوامر عليا و أنت سيد الطائعين جميعًا.

تذكرت ليلة أن رأيتها في أحضان عاصم تمثل البسمة كأي عاهرة رخيصة، بل العاهرة رغم سقوطها لا تحترف بسمة الرضا المزيفة تلك، كيف يتحول ملاك منقذ إلى أسوأ شياطين عالمي؟! أتذكر خروجي مهزومًا مقطوع الأنفاس، ميت فعلاً!

عندها شريف يلوح في الخلفية ليرى المشهد، يفهم و يقولها لي بنبرته الغاضبة:

– إنها مجرد مومس يا يوسف، مومس!! هذا فعل العاهرات، لكني ما أردت أن أجرحك يومًا.

انهرت في شبه غيبوبة، اختلط الخمر بالمخدر بالنار التي اشتعلت من ثقب في روحي أريد رحمة لتكمل غرس نصل الخنجر في صدري.

وســـط كل هذا لم يعرف قلبي شـــئ إلا حبك يا نور، وســـط أطلال مدنـــي المدمَرة لم أكره صورتك إطلاقًا، كيف يعمل هذا المخدر اللعين المسمى بالحب؟!

شـــاهت كل المشـــاعر المطلوبة مني، الحقد، الغضب، الثورة لولائي، الموت، كلهم لا شـــيء، كل الأضداد ابتلعت بعضها البعض لتظلين أنتِ صورة مبهمـــة لا أحمل لها إلا الانجذاب.

جسدك المنحوت في غلالة شفافة هناك عند النافذة، يخترقك الضوء المراهق لشمس الغروب، أتذكر وقفتك المسترخية تتنسمين موت النهار، العنق المنتصب النافر، و ميل خصرك المتأوه، النهد المشرئب مختلسًا حرية قلما وجدت، أتذكر انسيابية ساقيكِ، اللعنة!!

كم كنت أتمنـــى أن أكون فداءً لهما، احتضنهما ذارفًا دمع العين خشوعًا، قدميكِ هما حائط مبكى يا نور، اشتاقهما طوال سنوات التيه. اليوم الوحيد الـــذي كنا امرأة لرجل، و رجل لامـــرأة، يوم التقينا بعد أن انتظرتـــك طويلا أمام دار الأوبرا، وأنـــتِ قادمة عليَّ تبدين مختلفة، غريبـــة، متفتحة، موضع قبلتك على وجنـــتي ما زال يؤلمني كلما هبت رياح الذكرى، لتقولي لي بتصميم:

– هيا بنا إلى مكان لا يرانا فيه أحد.

تعجبت لكن تبعتك، فكرت في ألف مكان بلا نتيجة، حتى انتشـــلتيني من حيرتي، لنذهب إلى شـــقة صديقتك التي لم أحبهـــا يومًا، تركتنا داليـــا لتخرجي من حقيبتـــك زجاجة نبيذ، لم أعهدك تشـــربين يومًا، شـــربنا وضحكنا حتى تبقى الصمت المغناطيسي بيننا، لتلمسي شعري و تتوسدي صدري وتهمسي:

– لي أمنية لن تتحقق، أريد أن أنجب بنتاً منك فقط لترث شـــعرك يا يوسف.

اختفى الكون و توقفت الكواكب السيارة، و الشمس تركتنا في حياء، رحيقك في روحي يحرقني يا نور، الاتصال بيننا كان مقدسًا، ولادة و انعتاق، رتق لروحينا معًا، اللعنة على الذكرى، فقط أنت صورة عن ذلك اليوم، ابتسامتك و احتواء جنوني، وصيتك الأخيرة:

- سنظل معًا، سأحبك مهما حدث يا يوسف، فقط تذكر!!

صوت نشيجي أخرجني من الغيبوبة، أنا في نفس المكان، حوض الاستحمام و الأرضية الباردة، أريد أن أقتل، أنتقم من اللعين الذي أفسد كل شئ، عاصم لا يستحق شفقة، أين سأجده، هل أسافر إليه؟ لكنني سأراها، و ستقف صورتها حاجزًا بيني وبين كل شئ، كذراع مبتور مني أشعر بوجوده الشبحي لكنني لا أراه!!

جففت جسدي ثم ارتديت ملابسي، لم أنم منذ يومين، أتيت من الإسكندرية إلى غرفتي لم أبارحها و لم يسأل عني أحدًا في البيت، فتحت الخزانة، عبثت في أشياء سقطت من ذاكرة الزمن، أوراق رُسِم عليها خطوط لمشروع لوحات أجهضت، تحتها وجدت صندوق كرتوني صغير، حملته إلى السرير ثم جلست اكتشف المحتوى المغبر، صور لي و لأخي في أماكن عديدة، أيضًا مجموعة أسطوانات لأغانٍ، كل منها يحمل عبق أيام خلت، مررت بعناونيها حتى استوقفتني إحداهما، كتب عليها بقلم حبر أسود «موسيقانا» حملتها إلى مشغل الأسطوانات، وضعتها ثم عدت إلى فراشي، أشعل لفافة جديدة، بدأت تنساب الموسيقى، أنت يا نور، موسيقى «بيتهوفن» تنهمر لتملأ الغرفة و تفيض إلى روحي، ابتسم ابتسامة حسرة، و كأني وسط الأصوات الوترية أسمع صدى ما كنت تقولينه:

- إنه الوحش «بيتهوفن» يا يوسف، ماذا تشعر؟ غضب و ثأر و انكسار أم ماذا ؟!

- نعم يا نور كل هذا، لكن أيضًا أسمع موسيقى شخص قد شرب من كأس لم يشربه إلا القلائل، كأس مرتع بالعزلة و خيبة الأمل.

- إنها موســيقى «اجمونت»، افتتاحية عجيبة فعلاص، أظن أنك على حق، أنا أشعر أنه مكبل يريد الانعتاق.

هل انعتقتي يا نور؟! هل وجدتِ ما كنت تبحثين عنه؟!

كم هي متضاربة مشاعري تجاهك أود لو أن أخنقك بيدي هاتين و في الوقت ذاته أدعو لك بالسعادة..

التقطت هاتفي و طلبت رقم داليا الموجود في رســالتها، الهاتف واصل الرنــين بلا مجيب، حاولت مرارًا، مُنَيت بنفس النتيجة، تلك الفتاة ماذا تخبيء؟!!

داليا لم أحبها يومًا! لعل عجرفتها المتعالية في تعاملها معي الســبب، وإن كنت في قرارة نفســي أعلم أنها شخص جيد من داخلها، شعرت أنها تخفي وراء تلك العجرفة إنســان ضائع خائف، كل القوة التي تتعامل بها ما هي إلا درع واقٍ من العالم، خائبي الأمل يشــعرون ببعضهم البعض دائمًا.

ألقيت الهاتف جواري، أغمضت عيني سابحًا في عباب الموسيقى، لمسات «بيتهوفن» تسيل قشعريرة تجتاح أعصابي. .

أتخيلني قائدًا متمرسًــا لأوركســترا من ألف عازف، ألوح بعصاي و يدي و شعر رأسي و خلجاتي، أصعد بهم على النوتة لحظة انفجار اللحن ثم اســتكين باكيًا أمام صوت شارد لتشيلو متوارٍ في ثنايا اللحن.

لاشــئ في الكون يضاهي بهائك و أنتِ تمسكين الكمان يا نور، لا شئ يتجلى في تفاصيله كمال ريشــة الطبيعة على لوحات الزهور مثلك يا نور، أنت في مكانك كبجعة قرمزية تقف على وجه الماء و عندما تتلاقى أعيننا أَعلم أن الله حاضر في الكون.

رن الهاتف كنذير، كان رقم داليا تســارعت خفقات قلبي كأنها قرع طبول إنذار على مشارف مدينة وادعة تقترب منها جحافل البربر.

- آلو!
- أهلا، هذا الرقم اتصل بي منذ قليل.

قاطعتهــا بنفاذ صبر و انقطاع أحبال البــال مفرغًا توتري في صوت خرج على شــكل حشرجة غير إرادية:

- أنا يوسف الرواي يا داليا اتصلت بعد أن وجدت رسالة منكِ.
- يوســف، الحمد لله انها قد وصلتك، أخبرني كيف حالك؟ كيف هي دنياك؟
- دنياي مرتبكة يا داليا أنا كما أنا، العالم يتغير و أنا ثابت.
- كلنا يا يوسف، لست وحدك في ذلك، أنت لا تعلم ما اجتاحني الآن من ذكريات مع صوتك، أيام وكأننا لم نكبر.

تلعثمت جــرّاء محاولاتي لوضع أســوار تمنعني من إلقاء الســؤال الطبيعــي الآن، لكــن داليا عجلت بانهيــار الحواجز.

- يوسف!! إنها نور، هناك أمر غير مريح، للأسف لا أملك التفاصيل، الفتاة كعادتها أرسلت رسالة لتزيدني عناءً و ضياعًا، طلبت مني أن أبحث عنك، الغريب يا يوسف أننا نستطيع معرفة حال أقرب الناس إلينا من ســطر أو كلمة، هناك شــئ خفي يخبرنا أنهم في خطر أو حتى فقدوا الاهتمام بنا.
- نعم يا داليا معكِ حق.
- إذن دعنا نلتقي.
- داليا ليس هناك شئ آخر يقال، دعينا نترك التاريخ في ثباته.
- لا يا يوسف أنت لا تفهم، صدقني هذه ليست لعبة أنثوية للمّ الشمل بينكما، و إن كنت أرى أنه شــيء يجب أن يكون، يوســف! دعك من اللغو بلا طائل، ما رأيك أن نلتقي في البن البرازيلي مكمننا القديم، أنا أيضًا حياتي مرتبكة لكن ما يربطنا له حق، ألاتريد أن تراني بعد

هذه السنين يا أخي، لم أعهدك جاحدًا.

- حسنا، عند الظهيرة يا داليا.

- ســـأنتظرك، لا مجال لعدم الحضور، أعرفك عندما تتملص، ولكن هذه المرة لن أدعك تفعلها يافنان.

طمئنتها واعدًا إياها بالحضور، صوتها لا يبشـــر بخير رغم محاولاتها أن تكون مرحة، لا أنكر أنها تملك شهامة أولاد البلد و كلماتها لي أعلم أنها صادقات، لولا حواجز نفسية معقدة بُنِيت داخلي سابقًا تجاهها بسبب طريقتها المتحدية التي تهوى الجدالات العقلية الساخرة مع الجميع.

تناولت قرصين من عقاري المنوم الكاسح، مستسلمًا لصوت الموسيقى، أشـــتاق إلى وقت السكون، أعلم أن عقلي سيرفض الانصياع للمهدئات ما دامت صورتها تحتل واجهة حواسي.

(2)

نور الهدى فريد عبد العظيم

فجر الخامس والعشـــرون من يناير، صبيحـــة ثلجية لا تخضع لأي منطق، تحركت نور على أطراف أصابعها، قطة شـــيرازي جميلة، تملك التصميم على الفكاك من شرك الشيطان الساقط في سبات السكر فاضح الأنفاس، من الردهة إلى غرفة النوم، ألقت عليه نظرة كمن يبصق على كومة من القمامة الطحلبية المتحللة، فتحت الخزانة، بحثت بســـرعة محمومة عن جواز سفرها، وجدته بيسر، فالمغرور أعماه تسلطه عن فكرة بحثها عن الخلاص، الســـيد دائمًا لا يرى الحرية في أعين عبيده.

كمشت بضعة أوراق مالية بلا اهتمام، ثم حملت كمانها المحطم، لا وقت لتحمل ملابس، يكفيها كسوتها من الحزن، لا تريد أن تتذكر أي شـــئ من هنا، يحمل رائحة هذا العالم المنفي، لو قدر لها أن تخلع جلدها الـــذي تلطخ بلعاب عاصم مرارًا في حومـــة الاغتصاب لفعلت. اكتفت بمعطفها الصوفي على منامتها المنزلية، احتضنت حذاءها و أغلقت باب الشـــقة بحرص اللصوص خلفها، لا وقت للتأنق في منافي الظلام، نزلت الدرج قافزة، حتى ســـقطت مرتين و جرحت ركبتها، وقت الهبوط كان طويـــلاً أبديًا، كأعمـــى يركض إلى بقعة نور. اســـتقبلها هواء الفجر النافذ إلى الروح كشـــهقة الناجي من الغرق، لقاها جان بسيارة الفرقة المتهالكة، سفينة نوح بالنسبة لها. رمت نفسها على المقعد و انطلق جان كمن يحاول الفرار من ســـرقة بنك في فيلم أمريكي مستهلك..

نظر إليها العجوز البدين بطرف عينه، وجدها تبكي بحرقة الخلاص، تحتضن حقيبة كمانها الأعرج.

- لم أرَ في حياتي دموع الخلاص إلا الآن يا فراشـــة، ابكِ يا نور، فهذه لحظتك في هذا العالم.

بكت دون أي احتياج لنصيحة من فيلسوفها الخاص، كيف يعمل هذا العـــالم؟ لا أحد يعلم علم اليقين، أكان لا بـــد من رحلتها إلى الجحيم حتـــى تعلم ما هي الجنة، كيف تجد نبوتها الخاصة على لســـان نبي لا يؤمن بوجود إله؟

لا وقت للفلسفة، الآن هو وقت التطهر، لتغسلك الدموع يا فراشة.

كانت باريس تتصاغر في روحها، كذبذبات موج ينزوي على شواطيء خلاصها، لاح المطار كبســـمة المايســـترو جميل التي تحمل كل الرضا، أخيرًا، أخيرًا، لن تعود أبدا، لكن ماذا ســـيفعل الشيطان عندما يستيقظ من كهفه، لا تعلم لكنه سيشـــتعل كألف ألف مرجل، كبطن السعير يطالب بها، هل ســـيتبعها؟! لا تظن، إنه ينتظر صفقته مع أسياده على الأقل تمتلك وقتـــًا لتذوب بين البشر، لا لم يعد يهم، حتى لو وجدها، لن تكون هي، ستكون أشرس و أقدر على القتال، لتذهب إلى بطن الدود يا ابن الجحيم البار بلا عودة.

أفاقت من أحلام يقظتها، عند مدخل صالة المغادرين، نظرت إلى وجه جان الكهـــل الطفولي في آن، المتموج بكل عذوبـــة العالم، قال لها راسمًا بسمة كقناع:

- الآن أنتِ على بعد رمية حجر عن الجحيم.

قالها ثم اســـتغرق في ضحك هز جســـده المترهل، فسألته عن سبب الضحك في لحظة الدموع.

- لا أعلـــم لما تذكـــرت الكتاب المقـــدس و أبي الكاهـــن و هو يقص علـــيَّ و على أختي كل ليلة قبيل العشـــاء قصة خروج موســـى من مصر، شـــعرت أنـــني أخيرًا وجدت شـــيئًا واقعيًا في كتـــاب الكهنة، أنتِ بالمقارنة تشبهين موســـى، تهربين من فرعونك لكن المضحك

أنـــكِ تهربين إلى مصر. تبســـمت نور رغمًا عنها ثم قالت شـــاردة:

- إذن لتســـميه سِـــفر الدخول يا جان. احتضنته بغرق، فبكى الطفل الكبـــير، ربتت على وجهه قائلة:

- لن يكفيك أي شـــكر يا جان ! دونك ما كنت اكتشفت نفسي أو تعلمـــت كيف أجعل من صليبي خشـــب تدفئة، من الجميل أن نجد نبيًا ملحدًا في هذا العصر. استغرقا في الضحك، برهة ثم عم صمت التوحد، صاحبها حتى الدخول، ودعته.

- اذهبي يا فراشة، صاحبتك أنغام «موتسارت»، اذهبي و لا تنظري أبدًا خلفك.

- هل ستتذكرني يا جان عندما أعود لك لأزورك؟

- بالطبع، أنتِ لكِ في هذا القلب مكان مسجل باسمك. توادعا و مشت إلى منطقة تصاريح الســـفر تتبعها بنظره حتى غابت وراء الحواجز، تمالك دموعه، و على أقرب مقعد جلس، ينشج كالأرامل، هل أحبها؟

بالتأكيد دون تفسير أو تصنيف لمشاعره، أبوية كانت! أو حتى عشق رجل لامرأة، لكنه يعلم أنه كان علامة طريق استهدت بها، وهبته الروح التي فقدها منذ أعوام، حتى موسيقاه تجملت بوجودها، اللعنة!

كيف يعود إلى يومه العادي دونها؟ كيف يواجه ثلوج سنواته المقتربة من الستين دون دفئها؟!

أشـــعل لفافة تبغ و خرج إلى الطريق متجهًا إلى ســـيارته، قال بصوت مسموع، لنفسه:

- هـــذا يوم جميل للانتحار يا جان، الأفضل الموت وقت الســـعادة حتى نحتفظ بآخر طعم له، لا المـــوت وقت الحزن و الاحباط..

قاد ســـيارته شـــاردًا في اللاموجود، تأمل في ســـاعته الأثيرة، الغرض الوحيد الذي صاحبه منذ صباه، هذه الســـاعة التي تبدو رخيصة كانت

هدية أمه له، عاشت معه كل أحداث حياته بصعودها و هبوطها، صاحبته لحظات الفرح المعدودة، أرخت عقاربها لمواعيده الغرامية الأولى مع سليفيا الحبيبة و توقفت عقاربها لحظة مشاهدته الخيانة كأنها شُلت من هول الصدمة، لون شريطها الجلدي بُنِيّ اللون ما زال محتفظًا ببقعة دم نزفتها الخائنة، لم يغيره أو يشتري ساعة جديدة رغم اهترائه، كانت الساعة رفيقته الوحيدة في محبسه مع رواية «موبي ديك»، تذكر أنه قبل السجن ما استطاع إكمال هذا الكتاب الضخم، لكنه قرأه أكثر من مائة مرة في محبسه، يستعيره و يرده إلى مكتبه السجن، كانت الرواية بالنسبة له إنجيله الخاص، كل إعادة قراءة تعلن قطعة ما من حقيقة خفية، ابتسم جان ابتسامته المتحسرة، سأل نفسه ماذا بعد؟ ماذا عن نور؟

وسط أطلال قصتها لم يجد دافعًا قويًا لمَ حدث لها و جعلها تترك كل شئ و تلقي نفسها إلى بطن الحوت، لعل براءتها و نقاء روحها كان هو المضلل، هل الصدمة فيمن نحب من الممكن أن تسمم حياتنا هكذا؟

فيصبح كل شئ بلا قيمة أو معنى كي نلقى بأنفسنا مرارًا إلى أقرب مهب للريح، هذا ما فعلت، ضعف جبان و خوف مترقب، هز رأسه متفهمًا، هذا هو الإنسان، خصوصًا من كانت مُثله خارج هذا العالم، مجرد مشعل يحترق ذاتيا في مازوخية عجيبة.

لكنه الآن يعرف أن فراشته قد خطت أول خطوة على درب خلاصها، أخرجت جملة «فات الوقت» من قاموسها، الوقت لا يفت أمام القرارات الصائبة، الوقت يخضع للقرار لا العكس، هنيئًا للناجين من نهر الجحيم يا فراشة.

دلف جان إلى غرفته، أخرج حلته السوداء الوحيدة الفاخرة، نزع ملابسه و دخل حمامه، أطلق العنان للماء يغسله، ماء بارد يوقظ الموات من داخله، بعد أن انتهى، جفف بدنه المترهل، ثم خرج يرتدي حلته وهو يدندن لحنا مرحًا، أمام المرآة صفف الشعر المتبقي على جانبي رأسه الأصلع، و ارتدى ساعته العزيزة، انتقى حذاءه اللامع المحجوب للمناسبات التي قلما تأتي، ارتداه ثم وضع ربطة عنق حريرية من زمن رغد العيش،

تأمل نفســـه ثم خرج، مشي بمحاذاة المحلات حتى نهاية الشارع، دخل إلى مطعم مازال صاحبه يعده لبداية اليوم المعتادة و استقبال الزبائن، ألقى السلام على الكهل الواقف، حياه الرجل بحرارة:

- ســيد جودار، أتيت مبكرًا، لازالت التاســعة الا ربـــع و نحن في طور التجهيــز، عمومًا هل أحضـــر لك قهوة؟!

- لا! يا أونري، أريد أن أتناول الطعام يا صديقي، أعلم أن الوقت مبكر، لكن الشهية لا حكر عليها.

هز الرجل رأســـه كصديق قديم، ثم دعاه إلى طاولته المفضلة، جلس جان ثم قال:

- أحضـــر المعتاد يا أونري و خذ وقتك، هـــذا كرم مني أيها البخيل. ضحـــكا معًا، و عند انصـــراف الرجل طلب منه جـــان زجاجة نبيذ فاخـــر، فتعجب الرجل، فجان زبون قديم يعلـــم الرجل علم اليقين بأطواره، ســـيحضر له وجبته المفضلة الوحيدة كالعادة لكن صباحًا أمـــا العجيب طلبه لنوع باهظ الثمن مـــن النبيذ، يعرف جان جيدا و يعرف أنه لا يصرف أموالـــه الزهيدة في أمور كهذه، الطبيعي أنه يقنع بكأس من النبيذ الرخيص لكنه أمام مظهر جان بحلته و توقيت وصوله، قال لنفســـه لابد أنه يوم مميز لهذا المسن المجنون.

تأخـــر الطعام لأكثر من ســـاعة و لكن جان لم يهتم، ظل يشـــرب و يدندن لحنه الراقص، بعد أن فرغ من طعامه نفح الرجل المال و زاد عليه المتبقي في حافظته.

- أونـــري، اليوم يومًا خاصًا ومميزًا، أشـــكرك على اعتنائك بي طوال الأعـــوام الماضية كنت مثل أمي..

- ســـيد جودار، أنت مرحب بك دائمًا و أبدًا، لكن هل تسمح لي بسؤال عن سبب سعادتك؟

- قد ربحت اليانصيب يا أونري، اليوم سحبت بطاقة رابحة.

هنأه الرجل كاتمًا تعجبه من جان و فكرة الفوز المزعوم، فهو كمقامر متمرس يعلم أن موعد السـحب لم يحن بعد لكن مادام أرضاه ببقشيش كبير ليفوز بالأوسكار لا يهم.

ودعه جان بحرارة ثم غادر عائدًا إلى بيته متخذًا نفس الطريق، صعد الدرج و دخل إلى غرفته، فتح النافذة ثم أخرج كمانه مبتسـمًا بمحبة، سـحب القوس بتموج على الأوتار، لتخرج أنة ممطوطة من الكمان، قبله و تركه على الفراش، سـحب جان المقعد الخشـبي ليضعه في منتصف الغرفـة، أحضر حبلاً ليفيًا غليظًا ثم ارتقـى على المقعد ليربط الحبل في العارضة الخشبية بالسقف، ثم بدأ بصنع أنشوطة دائرية من الطرف الثانـي متدلية حـرة في الفراغ، نزل جان من علـى المقعد ثم اتجه إلى جهاز الجرامافون العتيق، تفقد الأسطوانات السوداء واحدة تلو الأخرى، ثم ابتسـم براحة مختارًا اسـطوانة، رفعها أمام عينيـه بأطراف أنامله متلذذًا، قرأ عنوان المقطوعة المكتوب(lecrimosa) من القداس الجنائزي «لموتسـارت»، أنتظر حتى بدأت الموسيقى، تمايل مع اللحن الحزين كأنه يراقـص فتاة جمالها لا يوصف، توقف ثانية ثم اتجه ليعتلي المقعد مرة أخرى، و يضع الأنشـوطة حول عنقه، أرْجَح المقعد ليطيح به فجأة ليبقَ هو معلقًا من عنقه بلا هواء و صوت الكورال في لحن «موتسـارت» يشدو:

«سيحاكم المذنب عندما يقوم من رماده، ربي!! اصبغ رحمتك عليه»

(3)

داليا جلال حجازي

ألقت داليا نظرة على الخبر المشئوم عن علاء، استبد بها قلق المحاصر، العنوان الأحمر بالجريدة زرع بين جنباتها ذعر الأرانب البرية من شـــرك الثعالب، تفادت طوال اليومين الماضيين جميع البشر، حتى مكالمات أهلها الأســـبوعية الروتينية من الإمارات، مشهد جثة أحمد الظاهر عليها آثار التعذيب كان آخر قشـــة نســـفت جبال تحملها، لا تعلم هل فقدت أي ســـبيل من سبل المقاومة؟! أم تلك هي حدود قدرتها؟

كانت رســـالة علاء المريبة منذرة بشـــئ ما يلوح في الأفق، قال لها أن تحذر و هو هارب ثم انقطعت أخباره، كانت تعلم أنه متمرس ورث الهروب و التخفي عن أبيه الراحل، ولكنها لم تعلم لمَ اســـتبد القلق وعصف بها عليه، كأم فقدت وليدها في ســـوق، حتى ظَهـــرت البيّنة، فرق إزالة آثار جرائم النظام قد كشـــرت عن أنيابها، وســـتنجح في اقتناصه والقبض عليه و هاهو الاتهام جاهزًا ســـيوضع حول رقبته ككبش فداء ينقذ ماء وجه الحكومة، ليســـت أول مرة و لن تكون الأخيرة، يســـتخدمون نفس الأسلوب الشـــيطاني للتغطية على عجزهم و عدم كفاءتهم.

حتى ماهـــر لم يتصل بها طـــوال اليومين الماضيين كان مشـــغولاً ببرنامجه الفضائي و نســـبة المشاهدة و تهافت المعلنين، كرهها له أصبح كره لكل شئ؛ للبلد بشوارعها و مقاهيها و أزقتها المتعفنة الآسنة و وجوه أهلها المتشققة من الانكفاء الكلبي تحت نصل الرغيف، كره و حقد اتخذ شكلاً ماديًا، كتلة من عصارة المعدة أفرغتها في حمامها أكثر من مرة. ليت الموت يلوح، الضمير صار أنشوطة حبل يضيق عليها ليسحقها، تشعر

برائحـــة دم أحمد في الهواء، لها يد، بالفعل لها يد، قاتله ليس هم فقط، بل من تواءم و استسلم و باع رفاقه.

تناولت فنجان القهوة التاســع، ارتدت ملابسها و قررت أن تخرج قرب موعد يوســف، تريد أن تركض، أن تبلعها الشوارع، أن تتحلل ذراتها إلى غبــار يطير في سماء القاهرة ؛ تختلط بالدخان و أدران أنفاس البشــر، تمنت أن تنفجر فتســمم اشلائها الغلاف الجوي يا ليتني لعنة كلعنات الســاحرات أُلقيت على رؤوسكم، أســتبيح منكم الأحلام و أجردكم من هنأة النوم المطمئن الراضي. الشوارع كما هي، امتد بها السير إلى وسط المدينة، أمــام واجهات المتاجر لاح لها انعكاس وجهها المكفهر كســماء يناير، وقفت تأملت في فراغ الزجاج، ســألت نفسها، لم لا تقتصين؟ أرادت أن يتحور وجهها إلى وجه قاتل محــترف، يملك من الحنكة والاحتراف فيذبح ماهر الشــربيني بخيط أسنان. أتســلل إلى مكتبه، تكمن له عند قصره المهيب، السُّم حل جيد لكنه رومانسي، تريد أن ترى زحف الموت على قســماته المعذبة، راقت لها أفكارها أكثر فابتســمت، هل يمنعها خوفها من العقاب؟ القتل في أحيانٍ يستوجب تكريم و نياشين شرف، هل يسجن من يقتل أي صرصور حقير يلهــو في العالم بكل أمان!! لماذا لا يموت إلا الطيبون في بلادنا؟!

كما قال الشاعر الموت ينتقي الجياد، اللعنة على هوام الأرض الذين يلفظهم الموت، هذا هو الجحيم ونحن كلنا أشــرار نلقى عقاب أبديًا في هادس، نُلقى في شبه حياة، شبه أمل، شبه نفس، شبه حرية.

انتقت مكانًا في البن البرازيلي، تدخن و تتفقد رســائلها كل لحظة، أين أنت يا علاء؟ هل لا زلت تقاوم؟ هل لا زلت تتنفس؟ تأخر يوسف كما توقعت، أرادت الاتصال به، مازال طفلاً يخشــى البشر كما كان، قلبت في الأرقام لكن لفت انتباهها تعالي أصوات تهدر في هتاف يأتي من ميدان طلعت حرب، مع اندفاع تشــكيلات للأمن المركزي في الاتجاه المعاكس، خرج رواد المقهى يتلمســون الخبر وســط الصخب الداوي ركضت داليا

بعد أن وضعت بطاقة مهنتها على قميصها ليسهل لها اختراق صفوف الجنود المتراصة كالبيادق نفذت بصعوبة بين الصفوف، كان ما لا يقل عن خمسمائة شخص يرفعون أعلام مصر و هتافهم يكاد يبعث الحياة في تمثال الاقتصادي الوطني وسط الميدان. حركة السيارات تعطلت و أحاطت الشرطة بالمكان متابعة بحذر، مر من جوارها شابان في مقتبل العشرينيات، تسرب إليها طرف من حديثهما.

- إلى التحرير هناك مسيرة كبرى لا أظن أنها وُجِدت منذ قرون. تبعتهما مهرولة وسط الشرطة والسابلة الذين توقفوا لمشاهدة العرض القائم، بنظرها الخبير، استطاعت أن تميز انتشارًا للشرطة السرية بين الحشود، دمدمت:

- يبدو أن احتفال عيد الشرطة سيكون غير مسبوق اليوم. اعتلت إحدى السيارات الواقفة بمحاذاة رصيف الجامعة الأمريكية أخرجت كاميرتها العزيزة، لم تتمكن من التقاط أنفاسها المبهورة من هول المشهد.

طوفان من البشر يسيرون جنبًا إلى جنب، يحملون وردا أحمر و أعلامًا مختلفة الأحجام و لوحات ورقية خُطَّ عليها شعار بيّن واضح كفلق الصبح «عيش، حرية، عدالة اجتماعية».

توحدت آلاف الحناجر في أنشودة كورالية واحدة، أنشودة الانعتاق، تردد الشعار بلا أية هيبة، هؤلاء ليسوا المعارضين الذين يضربون كل تظاهرة أمام دار القضاء أو سلم نقابة الصحفيين. هذا الموج الهادر، وحش استيقظ من سباته، إنهم أهل المحروسة، تأرجحت وقفتها وسط الزحام حتى كادت أن تختنق، دفعت الرجال الساهمين أمامها ثم اعتلت الحاجز الحديدي للرصيف بحركة أكروباتية هي نفسها لم تتخيل قدرتها على الإتيان بها يومًا، فتحت حقيبتها لتخرج كاميرتها العزيزة، بدأت تلتقط صورًا، وسط كادرات الزووم الحادة تضخمت الحقيقة الساطعة، الحشود بأعداد ألفية تتحرك حركة حثيثة متجهة إلى الميدان، هتافها يصم القلوب الغافلة، لاحت في الصورة تحركات عصبية لشرطة مكافحة

الشـــغب تدُب على الأرض بأحذيتها الثقيلة منســـابة مـــن التقاطعات الجانبية، روافد تطوق المجمع و قوات تحمي مدخل ميدان «ســـيمون دي بوفوار» القابعة به الســـفارة الأمريكية، و سرب أسود آخر يخرج من شارع مجلس الشـــعب، خمنت داليا أنها حركة كماشة يجيدون استخدامها دائمًا، لكن هل ستجدي مع هذا العدد الرهيب من المشاغبين؟! اهتزازات رنين الهاتف لفتت انتباهها، علقـــت الكاميرا في رقبتها ثم وضعت يدها على أذنها إلى ســـرى محاولة الاستماع وسط الهدير.

- ألو، ألو يوسف، اللعنة أين أنت؟
- أنا محاصر في طلعت حرب، علقت هناك لذلك تأخرت على موعدنا، أين أنت الآن ؟! أما زلت في البن البرازيلي؟
- لا يا فنان، أنا الآن أمام الجامعة الأمريكية، المشهد لا يوصف أمامي، يوسف أنا بالكاد استطيع سماعك.
- الزمي مكانك، أنا قادم إليك يا داليا الوضع هنا مأساوي، الشرطة بدأت الاشـــتباك أمام الأمريكين وصوب دار القضاء لتفريق الجموع، انتظري أنا في الطريق، سأحاول..

أغلقت الهاتف و قبـــل أن ترده إلى الحقيبة مرة أخرى، باغتتها جذبة عنيفة من ســـترتها ألقت بها إلى أرض الشارع المتربة، دمت أنفها و شعرت أن ضلوعهـــا رحلت عن مكانها الطبيعـــي، امتدت نفس اليد العتية كي تنزع حقيبتها، كان شـــرطيًا سريًا بملابسه المدنية الباهتة.

- سأعلمك كيف تُصورين يا بنت العاهرات؟!

انتفضت داليا متمالكة نفسها لتقف متشبثة بحزام الحقيبة الجلدي بعناد و إرادة ساخطة، الخوف قد تركها هناك في زنزانتها الرطبة وسط الهـــوام و العدم، لن يحدث ألعن مما قد حدث، ســـتقاتل حتى آخر رمق، لاح في مخيلتها مصير علاء المعلق، فشـــعرت بغضبة لا تهدأ، لم تزحزها لطمة عتية من المخبر، ظلت متعلقة بالحقيبة بتملك طفل نزق بلعبته،

زادها سباب الشـــرطي و نظرات المشـــاهدين المتعاطفة قوة، لم تتمالك نفســـها ألا و هي تركله بين فخذيه ليطلق خوار ألم ثم يســـقط ملتويًا على نفســـه كثور ذبيح في حلبة مصارعة إســـبانية، انتزعت الحقيبة و هي تبصق عليه. اشـــتعل حماس المحايدين على الرصيف لتخرج منهم صيحات التشـــجيع لها و اللعنات على الشرطي و رؤسائه حتى اندمجت الأصوات في نهر الهتاف الواحد:

«عيش، حرية، عدالة اجتماعية»

متتبعين الاندفاع إلى الطوفان الذي يصب إلى نهر الطريق، كقطيع مســـتنفر من الفيلة الأفريقية، ركضت داليا إلى وســـط الطريق تضع عدســـة الكاميرا، صورت جحافل الشـــرطة التي اندفعت بعصبية أكبر لتكون حائطًا على شـــكل هلال في محاولة منهم لصد التظاهرة ومنعها من الدخول إلى الميدان، التقطت صورة أخرى لشـــاب ثلاثيني يقرع بكفيه على ترس الجندي المذهول أمامه يســـتصرخه بأنه اخوه ابن جلدته عليه أن يفتـــح الطريق و ينضم لجموع الغاضبين، كانت هناك امرأة أربعينية تحمل باقـــة ورود حمراء توزع منها على الجنود المبلبلين.

انتبهت داليا للمخبر المســـتثار بجسده البدين يشير إليها و هو يحدث أربعة من زملائه، نفس مقاييس البدن و الشـــارب الذي يظن المشـــاهد أنه عهدة حكومية تُصرف لهم مع الأســـلحة و الأحذية و حشـــو الرأس بالتـــُـــرهات، التقطت صورة أخرى متعجلة، ثم أطلقت ساقيها للرياح و الأربعة يطاردونها، بدت كغزال يخترق الســـهوب فرارًا من ضباعٍ نهمة، اخترقت حديقة الميدان المتوسطة كالســـهم، كأن الشياطين تطاردها، تعطل المخبرين عندما لفت انتباههم زميل يفتك بشاب ضئيل فانضما اثنين منهم للحفل، واصلت داليا الركض متفادية البشـــر و الشرطين المبعثريـــن، الميدان قد تحول إلى حلبة مصارعـــة رومانية بكل ما تحمله العبارة من معنى. توارت في مدخل ســـلم المـــترو لالتقاط صورة جديدة، كهل ملتحٍ رأته مرارًا أمام ســـلم نقابتها، يرفعه أربعة جنود من ساقيه و

ذراعيه و هو يصرخ بشـــدة و مقاومة، لم يشفع له كبره أمام السحل إلى سيارة الشرطة بصندوقها المُقبِض الكئيب.

في الجهة المقابلة رأت يوسف يركض مرعوبًا، ثم يقف وراء سـيارة يترقب بهلع الفرائس، لحظة اندفع جنود في نهر الطريق، أحدهم شهر هرواتـه مقتربًا من يوسـف، و هنا صرخت داليا بكل مـا أوتيت من قوة منادية عليه.

(4)

يوسف الراوي

الثلاثاء الخامس والعشرين من يناير العاشرة والنصف صباحًا.

لِمَ كل هذا؟

الإجابة معلنة لكنها لا ترى بالعين، بل كُتبت بأحبار البؤس و الكآبة و الأمل الضنين في سماء القاهرة بخطوط مرمزة على سحب الدخان كإشارات لما هو آت، لعلي لم أختبر الشقاء الحياتي الفعلي كهؤلاء، أحزاني رغم ما فيها تظل برجوازية.

بين هؤلاء العاديين الثائرين الأجدر مني بحمل صك الألم، الأجدر مني ببطولة ما، هم يتعايشون يوميًا مع ظل المأساة في مأكلهم و مشربهم و في عيون أطفالهم، كوتهم نار الفقد لأخ أو قريب أو صديق، في مدينة تبدو كماكينة ضخمة وهم مجرد تروس دقيقة داخلها، و هذه هي الإجابة عندما ترفض التروس الانصياع لأوامر التشغيل.

سألت نفسي المرتعشة و أنا أركض وسط الهرج كيعسوب أعرج، ما الذي أتى بي هنا وسط المعركة؟

أي صدفة غريبة تكمل سطور الحكاية؟ الخوف المُتولد داخلي الآن لا يوصف، لم أختبره قبلاً، أن تصيبني ضربة غير منظورة، شعور أنجب هذا الهلع الغريزي الذي أشعر به الآن، أن أُنتزع من وسط هذا فجأة و أُلقَى في غياهب ظلام السجن، لست مناضلاً أو حتى مهتمًا بالدفاع عن قضية ما، ماذا سأقول ساعتها للمحقق؟!

إن ظروفي العاطفية و محاولة تحسس أخبار حبيبة هاربة هو ما

أحضرني هنا، الأمر مضحك، لكن وسط حمى السيرك المنصوب لن ينصت أحد لأحد، غضبي الخاص لا علاقة له، ليس دافعًا أن أثور، ما هو إلا سياط أجلد بها ظهري، حتى أنني لا أملك المقدرة على توجيه غضبي إلى فعل ناجز إلى من تسبب فيما أعانيه، ماذا لو رأيت عاصم الآن، هل سأظهر شجاعة المنتقم و أحز عنقه بسكين ثم أرسم بدمه آثار كفي على الحوائط كأضحية شعائرية!! لا أعلم.

عند رأس الشارع شاهدت الأحداث المتسارعة المريعة، تواريت محاولاً التقاط أنفاسي خلف سيارة قديمة قرمزية تعاني من التهاب المفاصل، الشد و الجذب و الضرب على أشده، هنا في الشارع الجانبي أكثر من قلب الميدان، سيارات إطفاء تطلق مدافع المياه على التجمعات، في طرف الممر لمحت أفرادًا من الشرطة يكيلون الضرب لشباب طريح الأرض، و مجموعة أخرى تكوم المتظاهرين داخل مدخل البناية جاعلين منه حاجزًا مؤقتًا بعيدًا عن أعين الكاميرات المترصدة، هزتني صرخة أنثوية من الطرف الآخر طويلة شوهت حروف اسمي لتضغمها في نواح ممطوط، يووووسف، رأيتها، داليا مندفعة نحوي محذرة من شئ ما خلفي، التفت لأجد ضربة الهرواة القاصمة تهوي على رأسي، رفعت ذراعي فوق رأسي غريزيًا لأحميها، كي أسمع صوت تهشم عظام الساعد، أسقط على الأرض و لم يكلف الجندي نفسه عناء القبض عليَّ فقط أكمل طريقه إلى قلب الميدان، تحولت الرؤية في عيني رويدًا رويدًا إلى اللون الأحمر المشابه لنيجاتيف أفلام التصوير.

– يوسف، يوسف، اللعنة هل أصبت؟

قم معي سريعًا، هيا. استندت عليها بذراعي السليم، عدونا معًا حتى أول ممر جانبي بين المتاجر المغلقة، أجلستني على الأرض ثم أخرجت زجاجة ماء من حقيبتها ألقتها على رأسي و وجهي وسط عدم الفهم المطّرد، ثم نزعت حزامي الجلدي من بنطالي لتصنع منه حمالة وضعتها حول عنقي و أدخلت ذراعي لتريحه.

- أنــت بالفعل محظوظ لأنهم تركوك، أم أنك مشـئوم لتنال تلك الضربة حقًّا لا أعلم !!

هيا معي يجب أن نخرج من هنا إلى أي ملجأ، يوسف ركز استحلفك بالله.

نهضت تائهًا تــاركًا أمري لها تقودني عبر الممرات الدودية، توقفنا و هي تسب و تلعن عندما وجدنا الطريق العام مغرقًا بالاشتباكات، تطلعت حولها كفأر محاصر، ثم سحبتني مرة أخرى بكل حزم إلى مدخل بناية، صعدنــا الدرج حتى وصلنا إلى مدخل الســطح، دخلنا ثم أغلقت الباب، جلســنا معًا مستندين إلى السور، وقفت لتلقي نظرة حذرة على الطريق بالأسفل، أرادت التأكد أن أحدًا لا يتبعنا، جلست مرة أخرى إلى جواري، لصيقة بي، مسحت بكفيها شعرها الثائر المبعثر و هي تزفر كل هواء رئتيها.

- معصمك مكسور يا يوسف، يجب أن نجد عناية طبية، لكن الآن شبه مستحيل، لو وطئنا الشارع سنُعتقَل.

أخرجــت علبة التبغ من حقيبتها و الكاميرا، تفقدت الصور ســريعًا ثم وضعت لفافتين بين شــفتيها وأشعلتهما، ألقمتني واحدة و احتفظت بالثانية، ابتسمت رغمًا عني.

- ماذا بك؟ لماذا تبتسم كالأبله هل الضربة أصابت رأسك؟

- لا أبدًا، لكن طعم حمرة شفتيك على اللفافة وسط ما نحن فيه نوع من الإضافة العبثية.

- ما زلت مختلاً يا يوسف، هل هذا وقت ملاحظاتك الفلسفية، ظننت أن الغربة أنضجتك.

صمتت قليلاً ثم نظرت إليَّ مبتسمة ماسحة بعضًا من حمرة شفتيها.

- على العموم هي بطعم الكرز.

ضحكت بسخريتها الرنانة ثم استطردت:

- اشتقت إليك نوعًا يا يوسف، لو أنك لا تطاق.

- لقاؤنـــا دائما يصحبه مصيبة، اليوم هـــو التجلي الأعظم لذلك يا داليا.
- عندك حق، أتذكر رحلتنا إلى العين الســـخنة، عندما كادت نور أن تغرق، كان يومًا، مظهرك و أنت تبكي لن أنســـاه ما حييت.

قالت الاسم المحرم فسرت القشعريرة في جسدي

- نعم أذكر بالطبع، كل شئ، لعنتي إني مغرق بالتفاصيل.
- توقف، وضعنا الآن لا يحتمل كآبتك يا يوســـف، ألم تتعلم كيف تبتسم؟ حزنك الذي ترتديه و خوفك من الفقد أدى بك إلى أين، ما النتيجة، كفاك اجترارًا للماضي، ســـأفعل أي شئ الآن حتى لا تزيـــد مصائبنا بأفكارك، حتى لو حكمت أن أسمح لك بتذوق طعم الكرز من شفاهي مباشرة
- أضحكتني، لم تتغيري أنتِ أيضًا، نفس الســـخرية، عجيب كل شـــئ يتغير حولنا.
- اســـتمع إليَّ يا صديقي اللدود، مشـــكلتنا كبشر منذ بدء الخليقة أننا نعشـــق تعقيد العالم، ننظر إلى البراح الواسع عبر ثقب الباب، لم يخطر على بال المتفلسفين و العلماء و الشعراء و كل المفتشين عن التفســـيرات أن الحقيقة بســـيطة، لعلنا من بساطتها نحتار، فنحن كائنات معقدة ليســـت وحيدة الخلية للأسف، أنا عن نفسي توقفت عن النظـــر إلى العالم عبر ثقب المفتاح، ما يجـــري حولنا ما هو إلا تتابع لأمور بسيطة متراكمة غاب تفسيرها عنا، نحن نصعبها على أنفســـنا فقط لأننا لا نرضى بغير المتشـــابك، اعتقلوني و أهانوني وسكبوا إناء كرامتي ثم شوهوا أجزاء مني و أنهكوني، لكن لم أسمح لهم أن يأخذوا ابتســـامتي و لـــن يحدث أبدًا، اعتبرها ســـلاحي في وجوههم يا يوسف.
- كل هذا حدث معك؟

- نعم و أكثر، نصيحتي لك وسط كل هذا يا يوسف، كن كالأميبا، كن بسيطًا، أتعلم ما أكثر شيء أحبه فيك؟
- ماذا؟ لا شئ في يدعو إلى الإعجاب أساسًا..
- لا كل واحد منا به شيء، ميزة محددة، أنت لا زلت تحمل الطفل بكل ما فيه داخلك، و هذا سـبب إحباطك المستمر، توقعاتك توقعات طفل و غضبك غضبــه غير منتج، لكنه برئ، و هذا ما أحبه فيك، نور كانت تفســر هذا بكلمة واحدة أنك شــخص غريب!! حتى أنا وجدتك غريبًا بالفعل عن كل ما حولك حتى و إن كانت الكلمة عندي لها أبعاد سيئة.

مالت إلى الوراء مصوبة عدسة كاميرتها إليَّ ثم كليك.

- أردت أن أوثق اللحظة التاريخية!!

غريب أنــت، هناك ثورة تجري الآن و أنت هنــا مصاب كأنك أول طليعــة ثورية أو محــرك الغضب الجماهيري، أريــد أن أضحك، انظر الصــورة بديعة، ألقيت نظرة على شاشــة الكاميرا، صورة فريدة فعلاً، لم أحب صوري أبــدا، لكن هذه!! مختلفة.

- ألا تريد أن تلقي سؤالك الملح عليَّ يا فنان؟
- توقفي للحظة عن تقمص دور المحلل النفسي.
- حســنا سأقص عليك كل شئ، نور أرســلت لي تلك الرسالة التي أخبرتك عنها علــى الهاتف، طلبها أن أجــدك جعلني أتأكد من النتيجة التي تخيلتها..
- أية نتيجة! أنتِ كنتِ أحد المشجعين لها على اتخاذ الخطوة.
- لا أبــدًا أنا كنت ضد عاصم منذ البداية و المايســترو جميل كان معي، أي نعم كنت متضامنة مع قرار بعدها عنك، لكن هذا لا يغير من حقيقة كراهيتي لفكرة زواجها من هذا الشــخص !!

أنت لم ترَ نفســـك وســـط الضياع وقتها يا يوسف ، كيف تأمن فتاة مثل نور على نفسها معك؟

كنت في وحل ســـقوطك بلا إرادة، نور ليســـت مثلي، ليست مثلك أيضًا أو مثل الناس الغاضبين أســـفلنا في الشـــوارع، نـــور من عالم آخر، مرهفـــة، مثالية، هذا هو تفســـيري أمام فعلتهـــا، إحباطها من الواقع و خوفها المتزايد من كل شئ بعد صدمتها فيك، إحباطها هذا كان سبب اندفاعهـــا وراء تغيير ما، مجاراة التيـــار، الانغماس في الواقع أكثر، لكن خبراتها لم تؤهلها للتجربة، النتيجة أنها كفرت بكل ما أحبته، ضعفت فكانت كالمســـتجير من الرمضاء بالنار، كلنا ضعفاء يا يوسف.

– ماذا تريد هي الآن يا داليا، عدم تحمل نتائج اختيارها؟

– النتيجة كما تتخيل، حياة لا تُحتمل، ثلاثة أعوام لم نتبادل الأخبار، إلا في أضيـــق الظروف، آخر اتصال تم بيننـــا كان بعد موت جميل الفقي، الآن أظن أنها تمر بطَور جديد يا يوســـف، المهم أني وجدتك و أنك هنا، هل ستعود إلى الخليج مرة أخرى؟

– لا أعرف يا داليا، أتيت باحثًا عن خلاص ما، حتى لم أعرف أين أبحث، أخذتني الطرق في رحلة غريبة منذ أيام انتهت بي هنا مكسور الذراع أخوض حديثـــا عجيبا معكِ فوق بناية تطل علـــى حرب، يبدو أن نظريتك تقارب الصحة، الحياة بسيطة، لنتبع بساطتها إذًا..

– أنت كشخص لو أردت البقاء هنا في هذا البلد لن تجد مشكلة، ثراء أبيك و شبكة معارفه ستكفل لك معيشة هنيئة.

– ما الجديد فيم تقولين، أنتِ تعلمين موقفي غباء مني، و الآن الحواجز بيني وبينهم زادت..

– لا ليس غباء، أنت غاوي فقر فقط، ما الذي جد إذن؟

حكيت لها كل ما حدث، بما أخبرني به أبي و تورط عاصم في الحادث، زفرت بقوة و قالت:

- أتعلم، لو كنت مكانك لابتعت مدفعًا رشاشًـــا و قتلتهم جميعا لا أستثني منهم أحدًا.
- أو تدرين ما أكثر شئ أحبه فيك يا داليا؟! وضوحك.
- جيد، لو أن الجميع يراهـــا وقاحة، لكن العمر لا يحتمل كذبًا على النفس، لأكون أكثر صراحة معك، كل دائرتك، أهلك و عاصم حتى نور آذوك بشـــكل ما، نور رغم أنني لا أجمل من موقفها، إلا أنها استسلمت فجأة وقت المقاومة، أنت تستحق، ربما بنسبة طفيفة، لكن ولاءك الأعمى هو السبب، لو كنت بدلًا منها لكنت صمدت جوارك حتى تتعافى ثم تركتك!!

أفكارهـــا هزتني، حقائق تلقيها بين طيات الـــكلام، وقفت تلقى نظرة مائلة على الســـور، هذه المرأة تفجر داخلي مشاعر متضاربة، كأنها مرآة أرى فيها خطوط نفســـي المتعرجة، اشـــتهيتها في هذه اللحظة، حتى زاد الشعور من ألمي أكثر، بها سحرٌ منفر لا أملك إلا الهروب منه، هذا جزء من مشاعري و ابتعادي عن وجودها دائمًا..

- الطحن مازال مستمرًا، أظن أن الأحداث سيصعب تداركها، اعتدلت قائمًا جوارها مستندًا على حافة السور بذراعي السليم، أشعلت لفافة تبغ وحيدة التقطت منها أول نفس ثم ألقمتني إياها.
- آخر سيجارة، لندخنها معًا، المشاركة في التبغ تقوى الروابط كنقل الدم يا فنان، حقًا أما زلت ترسم؟
- لا، توقفت منذ سنوات.
- أنت كنت مدهشـــاً علّني لم أخبرك مـــن قبل، لكن رسمك راق لي، عندما رأيت لوحة نور شـــعرت بالغيرة، تمنيت أن ترسمني يومًا.
- أنتِ لم تطلبي، غير أنني ظننت أنك تكرهين كل شئ أفعله.
- أنت لم تسألني رأيي.

- هل ستتصلين بها؟
- نعم بالتأكيد سأفعل، المهم أن يُكتب لنا الخروج من هنا. ربتت على ظهري بحنو ملفت و أكملت:
- سأتصل بك و سأراك كثيرًا، يوسف لا ترحل، حتى و إن لم تعد نور، بمناسبة الصراحة، أنا سعيدة أنك هنا، شعور غريب يفوق غرابتك أنت..

وقفنا لساعات نطالع الشارع من علٍ، تذكرنا الماضي بكل ما فيه!

غريب حكمنا على البشر، و غريب تجدد روابط في شكل علاقاتنا الجديدة مع أناس كنا نرفضهم، يأتي وقت لنعلم أنهم غير سيئين كما تخيلنا بالمرة.

- هيا بنا نذهب، ليكن ما يكون، لن ننتظر هنا حدوث شئ يا داليا، لنجرب احتمالاتنا.
- جميل، أخيرًا يوسف يقرر..

تقدمت إلى الباب مشجعًا فاتبعتني، نزلنا إلى الشارع، عبرنا شارع ٢٦ يوليو وسط مشهد سيريالي، صدى الصمت لا يفوقه شيء، بدا الشارع باللافتات المهملة على الأرض و اللوحات الممزقة و جلوس أفراد الشرطة على رصيف دار القضاء منهكين كالساعات التي تلي الإعصار..

مشينا حثيثًا محاولين أن نبدو طبيعيين، تأبطت ذراعي كي نبدو كزوجين لا علاقة لهما بالأحداث، التصقت بي حتى تخفي إصابتي عن عيون الأمن المترصدة. سابقنا ضربات القلب المتوترة حتى وصلنا ميدان رمسيس، أوقفنا تاكسيًا ثم جلسنا معًا في المقعد الخلفي، انطلق السائق و هو يقص علينا ما حدث ويصف اعتصام بعض المتظاهرين في الميدان، أنا تجاهلته و غرقت بعيني في الماورائيات في الشارع، شعرت بداليا تريح رأسها على كتفي كهرة مستكينة أنهكتها مطاردة أشعة الشمس؛ عندما شبكت أصابع كفها بكفي تحتضنه، فهمت كيف يولد العالم من رحم الفوضى!!

(5)

نور الهدى فريد عبد العظيم

باريس الواحدة ظهرًا الخامس والعشرين من يناير فتح عاصم جفونه بصعوبة الموتى، تحت أثر السكر الليلي، ضغط بيده على جبهته ليمنعها من الانفجار، الطنين القاتل صنع من أغشـــية مخه طبولاً تدوي، جلس على طرف فراشـــه ثم ألقى نظرة على عقارب ساعته الذهبية الموضوعة علـــى «الكومود»، بحث بعينيه عن علبة التبغ لم يجد لها أثرًا، وقف عاريًا ثم مشي بصعوبة حتى باب الشرفة الزجاجي، أسدل الستائر كي تحجب ضـــوء النهار الجلاد، الغرفة أمامه مبعثرة كأن قطيع من الدببة مر من هنا، الخزانة مفتوحة و الملابس ملقاة على الأرض بإهمال السارقين الهواة، خـــرج إلى الردهة، عند منتصف الطريق مـــكان جريمته، داس على قطع الزجاج المهشـــم منذ ليلة أمس، امتزج سبابه مع صريخ ألم نافذ. الليلة الماضيـــة باهتة في مخيلته لكن عقله الباطن راضٍ عما فعله بها تمامًا..

- العاهرة لم تنظف الأرض، التقط علبة التبغ المهملة على الأرض جوار زجاجة الويســـكي الفارغة، أشعل لفافة و هو يتجه إلى المطبخ، صب لنفسه قدحًا كبيرًا من القهوة السوداء، مع أول رشفة ساخنة عاوده ألم القرحة المعوية المتوارثة عن أبيه، صرّ على أســـنانه بعنف كاتمًا أنينـــه، قام ليبحث عن دواء القرحة الخاص به، وجده أخيرًا في ركن مهمل، ابتلع حبتين ثم أكمل ارتشاف قهوته، بعد مرور دقائق زادت الفورة كأنها جني ينهش جدار معدتـــه من الداخل، حتى تقيأ دمًا قاتمًا لونه ليتوالى التقيؤ، فيسب القرحة، تلون عصارة معدته الأرض و جسده، يذكر نور بأقطع الألفاظ، حتى توقف البركان عن الفوران، طبيبـــه حذره مرارًا من طريقة حياته، الإفراط في الخمور و الضغط

العصبي سيؤدي بقرحته أن تتسع فتصبح ثقبًا أسود يبتلعه، لكنه لم ينصع أو يغير من أسلوبه، عاصم مدمن بذخ، مدمن إشباع رغباته حتى الثمالة، يأكل بنهم ويسهر لأيام و يسكر كأنه في مسابقة لتذوق النبيذ، اعتاد أن يحقق كل رغباته حتى يملها أو تقتله، تطرف منذ نعومة أظافره في امتلاك و إشباع كل ما يمر بباله، شعوره بأن العالم بساط تحت قدميه و جملته الشهيرة لمن حوله «من الجيد أن تكون ملك» حتى و إن كان ملكًا عبدًا لشهواته القاتلة، مظهره ومظهر المكان كانا مزريين، لم يتعجب لاختفائها، بل تعجب من قدرتها على الخروج مرة أخرى عقب ما فعله بها، قال مخاطباً نفسه:

– سأزيد الجرعة اليوم أيتها الساقطة، سأكررها حتى تركعي.

جلس على الأريكة أمام التلفاز، مقلبًا القنوات واحدة بعد الأخرى حتى توقف أمام شاشة قناة إخبارية ؛ شريط الأخبار و الصور المفزعة تتسارع، دعك عينيه ظنًّا منه أن أثر الخمر ما زال ساريًا، صور التظاهرات و المطاردات، القاهرة، السويس الإسكندرية، الأخبار عبر المحطات تنسال متتالية متداخلة متوازية، غيّر المحطات حتى استقر على الفضائية المصرية، لا شئ فيها، لا شئ يحدث، عندها تأكد أن هناك شيئًا ما يحدث بالفعل عصف به القلق حد الجنون.

« أهذا ممكن أن يحدث»؟ لا! لا بالتأكيد لن يسمحوا بهذا أبدًا، مصر غير سواها. قالها لنفسه مطمئنًا و نافيًا حدوث حدث جلل يطيح بأحلام عودته، ذهب مسرعًا إلى غرفة النوم، أمسك هاتفه مفتشا عن رقم البرعي، الوحيد الذي سيكون عنده الخبر اليقين، الوحيد الذي سيطمئنه أن كل شئ على ما يرام وأن ما دفع ثمنه من ثروته لن يضيع تحت أقدام المهمشين الفقراء و محبطي الأرض. حاول مرارًا لكن دائمًا الرسالة المُقبضة، الهاتف مغلق أو خارج نطاق التغطية، ذرع أرض الغرفة ذهابًا و إيابًا و الرسالة تطارده مع كل محاولة، أخيرًا أجرى اتصال بمحاميه و محامي أبيه منذ أعوام.

– ألو، نعم أنا عاصم، اللعنه عليك يا محروس ليس هذا وقت المداهنة،

أخبرني ماذا يحدث عندك؟

أتاه صوت المحامي مضطربا بشـــدة، أخـــبره أن الأمور حتى الآن لم تخرج بنسبة كبيرة عن الســـيطرة الأمنية، لكن الوضع مضطرب حتى في دوائـــر الأمن، لم يروا مثل ما يحدث من قبل، الأخبار غير المبشـــرة و إن كانت ســـرية، أن رجال الأعمال و الدوائـــر القريبة من النظام بدأت في مغـــادرة البلاد بالفعل، حتى من بقى منهم أخـــرج عائلته و أمواله و مجوهراته، هذا مؤشـــر غير مطمئن.

أغلق عاصم الهاتف متشنجًا، الإشارة تلك لا يمكن إغفالها، الفئران تغادر السفينة قبيل الغرق بمدة، ألقى الهاتف على الفراش ثم اقترب من الخزانة المشرعة، باحثًا عن أي شئ يستر به نفسه، شعر ببرودة هبطت على عموده الفقري كالنيزك، حتى تجمد مشـــدوهًا أمام خزنته الصغيرة و بابها المفتوح، قلب في محتوياتها ثم أطلق سبة: ابنة الكلاب، فعلتها، هربت!!

التقط هاتفه مرة أخرى، طلب رقمها، كانت الرسالة تخبره أن الهاتف مغلق، بحث عن رقم صديق له يعمل في إدارة الجوازات بمطار «شارل ديجول»، أجابه الضابط بألفة أصدقاء القمار و النوادي الليلة، أخبره عاصم قصة ملفقة عن هروب زوجته مع عشيق ما بعد أن استولت على أموال و أوراق مهمة، طلب منه الضابط الانتظار قليلا بعد أن أملاه عاصم الاسم الثلاثي لنور.

- ســـيد عاصم، زوجتك اســـتقلت طائرة الخطوط الجوية الفرنسية صباح اليوم.
- إلى أين، أخبرني بالله عليك.
- إلى القاهرة بالطبع سيدي.

أغلـــق عاصم الخط و مارد الغضب يخرج مـــن أذنيه كبخار مرجل، سيقتلها، بالتأكيد سيفعل، لن تسطيع الاختباء حتى في باطن المحيط، لكن ليطمئن على مســـار الأحداث الحالية أولًا، عندما ســـيجدها سترى العقـــاب الفعلي حتى تركع طالبة الخلاص.

(6)

داليا جلال حجازي

الخامس والعشرون من يناير الثالثة ظهرًا.

توقف التاكسي كما طلبت داليا أمام مستشفى خاص في ضاحية المنيل، بعيدًا عن الارتياب الحكومى و شباك صيد المصابين جرّاء الأحداث في المستشفيات الحكومية القريبة من قلب الحدث، لم تحاول أن تفسر لنفسها ما شعرت به من انجذاب ليوسف، تلك الرغبة التي كافحتها منذ أعوام، منذ لقاءتهما الأولى ما كان منها غير إلا أن تئد مشاعر تسربت تجاه هذا الشاب العجيب، انسحبت داخليًا أمام بوادر نظرات الوله المسكوبة من عين يوسف و هو في حضرة أميرة الثلوج المميزة، فانعكس الضعف العاطفي في تصرفاتها تجاهه فسرها هو بنفور و فسرته نور على أنه غرور متكلف.

عند ازدياد الخواطر الممضة، سحبت داليا كفها من كفه، نظر إليها يوسف متحرجًا ثم أشاح بوجه إلى الخارج مستكشفا لوحة المستشفى المضيئة في نهار يناير، ابتسم يوسف عندما وجد القدر ينكزه في صدره، اسم المستشفى كان «النور» قال لنفسه بصوت مسموع: « مؤامرة كونية بالفعل» .

خرجت داليا مغرقة في أسئلتها النفسية، لماذا استكان كفه في كفها؟ لماذا لم يرفضه؟

هل الأحداث و المكان اللذان علقا به لهما دخل مزدوج في حدوث تفاعل روحي جسدي ما؟

يقال إن الروابط التي تتكون بين جنود في معركة تكون أقوى من روابط الدم، حاولت ألا تشغل بالها بتفسيرات رغم الإلحاح الأنثوي الفضولي داخلها، يوسف منهك و مهدم، بل أشبه بمدينة يابانية خرجت

تـــوًّا من قذف مكثف بالقنابل الذرية، ضعيف ووحيد، مثقل بجراح غائرة جشـــعة، لا يعول على لمسته أو مشـــاعره لأنها وليدة اللحظة؛ خرجا من السـيارة، قالت له و هي تتبعه صعودًا إلى مدخل المستشفى:

- عند الاســـتقبال، سيسألونك عن ســـبب هذا الكسر حتى ينفوا أية شـــبهة جنائية، هذا إجراء طبيعي، فقط قل إنك سقطت على سلم البيت، أومأ يوسف متفهما، و بالفعل عند السؤال أجاب كما اتفقا، ثم انكب يملأ استمارة الدخول، عندما انتهى وضع القلم على سطح الورقة أمام الموظف، عندما التفت وجدها تحملق في وجهه ســـاهمة، نظرة مغلفة بغبار ســـحري نتاج انسحاق لؤلؤة تقبع تحت ضلوعها، قطب يوســـف جبينه ثم لوح بكفه أمام مجال نظرها.
- مرحبا، هل ما زلتِ معنا في نفس العالم.

سرحت قليلا

- اعذرني، إجهاد!!

قالتها داليا بحدة كي تخفي ما يمور بصدرها..

حضر ممرض ليطلب من يوسف أن يتبعه إلى عيادة العظام، الأمور قد تستغرق وقتًا، الأشعة أولًا ثم سنرى. ربتت داليا على ظهر يوسف مشجعة، تتبعته بنظرها حتى غاب بين الممرات، اختارت مقعدًا في قاعة الانتظار لتلقي بنفسها عليه، أخرجت هاتفها تتفحص إشعارات متراكمة لطن من المكالمات اتصالات متتالية من الجريدة و اتصالين فقط من الشربيني، ماذا يريد؟

لكن الاتصـــالات من أمها القادمـــة من رقم هاتـــف الإمارات تعدت العشـــرين، الأخبار تنتقل في طرفة عين، و بالتأكيد أثارت فزع والديها، أعادت الاتصال بها، و ظلت لربع ساعة تكرر أنها بخير و بعيدة عن موقع الأحداث، بـــل جنحت إلى الكذب المطمئن بأنهـــا كانت نائمة و مازالت في البيت لم تبارحه كي تســـتمتع بفعل لا شـــئ، و تســـتفيد بإجازتها لأقصى حدود الكســـل، تحملت داليـــا الملل من أعـــادت كلمات بعينها

على مســـامع أمها، نعم، حاضر، لا تقلقي، حسنا، سأزوركم بالتأكيد.

أغلقت الهاتف و هي مستمرة في الحديث مع نفسها:

- غبية، يا ليتني رضيت بالحياة في دبي، مجنونة أنتِ بلا شـــك يا داليا، ما الذي يجبرك على المكوث وسط هذا الخراب؟!

ما الذي منعها، هل لرفضها سلطة أبوية لم تعتد عليها؟

إنهما غريبان عنها جرّاء الغربة الاختيارية، لم يهتما بها يومًا أو شاهداها و هـــي تكبر أو أعاناها عند أول تعثـــر في خطواتها، حتى قلق أمها مجرد قناع إرضاء لمعنى الأمومة، جدتها كانت كل شئ في حياتها وبعد رحيلها لم تفكر أن تترك مصر، هناك شـــئ ما هنا يجذبها و يربطها إلى الأرض و سيمنعها من الهروب وقت اشتعال المدينة الوشيك، ثم بعد خروجها من محبسها أتاها القرار أن ترحل لتعيش بعيدًا، أطلقت زفرة حرة و هي تقول:

- لماذا أجبت على رسالتي يا يوسف. .

أتى يوســـف من بعيد، مظهره يُرثى له بقميصه غير المهندم و شـــعره المتعاركة خصلاته و ذراعه المعلق بشريط طبي أبيض مغطى في الجبس الطبي الأبيض الأصم، لوحت له داليا، جرجر خطواته حتى ألقى بجسده على المقعد الملاصق لها، نظرت إليه ضاحكة و هي ترخي ساقيها أمامها.

- شكلك بديع.

لفظتهـــا داليا ممطوطة ثم أخرجـــت كاميرتها مجددًا كي تلتقط صورة له و هـــو مقطب الجبين معترضًا.

- ما قصتك اليوم، أراك مستمتعة!!

- نعم مستمتعة، أرى أنك تستحق ما حدث لك، انتظر يجب أن أزين الرباط هذا.

عبثت في حقيبتها ثم أخرجت قلمًا بتلذذ الأطفال، ثم اســـتغرقت في الرســـم على الجبس، أشكال وزهور و ذيلتها بكلمة للذكرى.

- للذكرى، الخامس والعشـــرين من يناير، أخبرني، هل كسر الذراع يجبر كسر القلب يا فنان؟

أنهـــت جملتها و هي تضع القلم مرة أخـــرى في حقيبتها ثم اتبعت بصوت خفيض:

- يوسف! أعترف لك أنني سعيدة بوجودك رغم غرابة الشعور.

وضعت كفها على كفه مستطردة:

- أتمنى حقًا، أن يسكن جرح قلبك الناخر.

- ما بكِ يا داليا، هل تظنين أنني لم أحاول أن أتعافى، لكن هي استأصلت قلبي و تركت الســـكين مكانه، طالما السكين مازال مغروزًا في صدري ســـأظل أحبها، اللعنة، سأتحسن، بالتأكيد سيحدث، أغلقي القصة رجاءً، لكن أخبريني ما سبب الشعور السعيد الغريب الذي يخايلك؟

- طوال ســـنوات معرفتنـــا كنت اهتم فوق تخيلاتـــك، المهم هيا بنا نذهب، ألقت جملتها بعصبية و هي تلملم أشياءها متجهة إلى الباب، حتى استوقفتها كلمات يوســـف التي زادت اضطراب معدتها.

- كيف تحب امرأة ثم تتنازل عن حبها لامرأة أخرى يا داليا؟

زفرت بحرقة و هي تقول لنفسها:

«لو من نفس نوعيتي، لن تهدر طاقتها في حرب من أجل حبيب مسلوب الإرادة، لن تقول إنها تحب لمن تعلم أنه ليس لها تمامًا».

خرجت من باب المستشـــفى و هو يتبعهـــا، وقفت ثم التفتت له و هي تقول بعصبية.

- يوسف ليتني كان في يدي شئ أخفف عنك، لكن للأسف لست نور و هي ليست صورتها في عقلك، لنغلق الموضوع إذن، ما رأيك أن تذوق طبخي؟

- طبخك. !! أتدعينني إلى بيتك.

- لا ســـأطبخ وســـط الميدان، ما المشـــكلة، أتظن أنك ستغويني بذراع مكسور يا جو، رجاء توقف عن الأفكار المتخلفة، على كل حال سترى طبخي و بالمناســـبة أنا أسوأ طباخة في المجرة.

همت أن توقف تاكســـيًا حتى أوقفها رنين هاتفهـــا المتواصل، ألقت نظرة بلا اهتمام على الرقم الغريب، رقم خط أرضى، يبدو أنها الجريدة، طلبت من يوسف الانتظار ثم استقبلت المكالمة، انقبض قلبها عندما أتاها الصوت القديم لصديقة غائبة.

- داليا، أخيرًا أجبت.

ابتعدت داليا عن مسامع يوسف:

- لم أسمع الهاتف يا نور، هذا رقم مصري، ما الأمر؟
- لم أتصل عليك من رقمي الفرنســـي، ألقيت الشـــريحة و الهاتف في أقرب مكب قمامة، أنا وصلت مصر صباحًا، أحدثك من الفندق، بعد أن يئســـت من إجابتك قررت أن أجد أقرب فندق لأرتاح.
- هل عاصم معك؟
- لا طبعًا، أنا هربت منه يا داليا، هربت من الجحيم.
- حسنا، نور أنا في العمل الآن، ارتاحي، سأتصل بك لأتي اصطحبك. أملتها نور اســـم الفندق ورقم الغرفة، ثـــم باقتضاب انهارت في بكاء تطايرت عبره شـــكواها و ألمها، طمأنتها داليا و ألحت عليها أن ترتاح قليلاً..

أغلقـــت الهاتف ثم عادت راسمة ابتســـامة صفراء أمام عيون رفيقها المتوجسة.

- خير؟
- مكالمة من الجريدة، لا تشغل بالك، هيا بنا، سأقتلك اليوم بطبخي.

أوقفت تاكســـيًا و لم تخيفها نظرات السائق الذئبية كالمعتاد، فهي الآن لم تعد وحيدة، كما كان!!

(7)

يوسف الرواي

دخلنا معًا إلى شـــقتها، أضاءت النور ثم ألقت حقيبتها كيفما اتفق على أرضية الردهة، كان كل شيء متناثرًا، أثاث غير مرتب مغبر و بقايا معلبات و طاولة طعام تحولت إلى مكتب عليه جهاز حاســـب آلي وأوراق و أقلام و أكواب فارغة و بقايا تبغ، جلست على الأريكة و هي تزيل الملابس من حولي من هنا وهناك.

- شقتك تليق بمسكن فنان بوهيمي.

نظرت إلىَّ شذرًا و هي تطوف جنبات الردهة كنملة شغالة..

- هذا المتاح، اعتدت عليه، غير أن ظروف الأســـابيع الماضية لم تترك لي رفاهية الترتيب.

تركتني لتدخل إلى المطبخ ثم أتاني صوتها:

- يوجد اسباجتي و لحم مفروم.

- أي شيء، جيد أنني أحب هذه الوجبة.

أطلّت برأسها من الباب و هي ترسم نظرة ملل مصطنعة على وجهها:

- هذا ليس خيارًا، أنا فقط أعلمك بما ســـتأكل. ســـأصنعها لك بمذاق إيطالي، هل لديك مشـــكلة مـــع الفلفل الحار؟

لم يكن تساؤلاً قدر ما كان إجبارًا ديكتاتوريًا، اعتدت تقبل ديكتاتوريتها بصدر رحب، امرأة مختلفة تخفي في صدرها رقة تغلفها بقسوة و سخرية دائمة، بها شـــئ محبب مع الاعتياد، كطعم قدح من القهوة السوداء المُرة

تأنف طعمها اللاذع مع أول رشـــفة، ثم مع الرشفة الثانية تدمن حرقتها على طرف لسانك.

تذكرت أيامنا الخوالي، أيام نور و اللقاءات اليومية، مساجلتها معي التي تصل إلى حدود العراك والتراشق أكثر مما يحتمله الموقف من حدة.

ملامحها المثيرة المتحفزة عادت إلى وعيي الآن بشكل جديد، لعل تعويذة نور حجبت عن عيـــني رؤية العالم و من حولي، حجبت كل تلك الحياة المشتعلة على مرمى حجر، هززت رأسي نافضًا حرقة هرمونية اشتعلت في أســـفل بطني عندما لاحت أمامي تجئ و تذهب، هذا الجســـد الاستوائي الناضج، أعاد ضخ دماءً ذكورية غابت عني لدرجة العجز لســـنوات خلت من رهبنة الحزن.

أتت تجفف يدها بمنشـــفة خضراء صغيرة ثم جلســـت ملتصقة بي، أطلقت تنهدًا لا إراديًا و هي تشـــعل لفافة تبغ .

- اليوم غريب، أشـــم غرابته منذ الصباح، شـــعرت بأن شيئًا لا يُوصف ســـيحدث، إنه يوم من تلك الأيام المنفلتة يا يوســـف، عندما تشعر أنك على حافة جرف، ما شـــهدته في محبســـي مهما كان لا يقارن بما أشعر به اليوم، هناك كان الزمن في ثبات مريب، أما اليوم تشعر أن صنبور الزمن قد حُطِّم أو انفجر. استطردت تقص كمن يحدث نفســـه عن تجربة اعتقالها و ماهر الشـــربيني و علاء الذي ضاع في زوبعة التجني الأســـود و موت أحمد عزت المأساوي، بلا شعور وضعت كفى على رأســـها أداعب شعرها بهدوء.
- لا عليكِ، كل هذا قد مرَّ، ســـنرى ماذا سيحدث، أشعر عكسك أن تظاهراتِ اليوم لن تمر مرور الكرام.
- أنت ابن الرواي، وُلدِت كي لا تتحمل شيئًا.
- أشعر في كلامك نوعًا من السباب يا داليا.

- لا أبدًا يا يوسف، أنا فقط أقر حقيقة، ما يحدث لا يشكل لك أزمة، كلنا نعلم من هو أبوك، هو محمي بالفطرة و أنت أيضًا المفترض!! أما الميدان حتى و إن زادت حدة التظاهرات، أتظن أن النظام سيسقط؟

- لا أظن، حتى لا أظن أن أكثر المتظاهرين جنوحًا طموحاته ترقى إلى ذلك، أقصى التقديرات تغيير حكومي و سنرى!

لو كنت مكانك لأويت إلى كنف أبي، مظهر الفنان الصعلوك ما عاد يليق بك.

ذكرتني بجملة نور عن صلاتي، ابتلعت ريقي محاولًا القضاء على جفاف حلقي.

- أهلي لم أحبهم يومًا يا داليا، لم أشعر بانتمائي لهم، محتمل ما فعلته مجرد رد فعل!

- أنت ثرت على سلطة أبيك بشكل سلبي، حتى لم تقم بما تحب، حتى نور..

صمتت فجأة كأنها شعرت أنها على وشك الخوض في غمار ما أرادت تجاهله، وضعت بقية اللفافة المشتعلة في فمي و هي تقف.

- ما علينا، سأذهب لأغتسل، لا أستطيع تحمل الغبار و العرق و التوتر على جلدي.

قالتها و هي تتجه إلى الحمام، ثم توقفت ملتفتة لي و اتبعت فنظرت إليها.

- ألقِ نظرة بعد قليل على قدر الماء، وعندما يغلي ضع الاسباجتي و قلبها، وانتبه لصلصة اللحم المفروم بالفلفل الحار، لكن لا تقلبها كثيرًا حتى لا تفقد نكهتها!! لن أغيب.

كدت أن أجيبها بأني سأفعل لكن! توقفت الكلمات في حلقي و أنا أراها تخلع قميصها لتلقيه على الأرض منتصبة أمامي بحمالة الصدر

فقط، أشـــحت بوجهي إلى الاتجاه الآخر مقاومًا فورة دمي، ماذا بها هذه المرأة؟

سمعت صوت انســـياب الماء، أكملت لفافتها ثم أشعلت لفافة أخرى متجها إلى المطبخ.

وضعت شـــرائط الإسباجتي القاســـية بالماء المغلي، يفور الماء و رأسي يغلي، أشعلتني فكرة لعينة، أنها لم تقم بما فعلته بدافع إغراء أو غنج، بل خلعت ملابســـها بعفوية أنثوية، عفوية تحدٍ لرجولتي و قوانين وجداني، تحدٍ لرغبة متنسكة منسية في دهاليز أنسجتي.

أقلب شرائط الاسباجتي و صورة جلدها لا تغيب عني، البطن المشدود و كمال اســـتدارة النهدين المتبجحين، غبـــت في حومة التعرق، ورائحة الصلصة المشـــبعة بنكهة الفلفل الحار تتســـلل إلى أنفي فيزداد جسدي اشتعالاً و لهيبًا، أفقت على لسعة الماء الحار لأناملي فارتددت إلى الوراء.

هذه الشقة التي شاهدت خلوتي الوحيدة بنور، هنا وقفنا، تعد الشاي و أنا ملتصق بها من الخلف أشـــم مؤخرة عنقها، هنا وقفنا و ذقت عنبر الشفاه السائل، هنا قبلتني و ضمتني، هنا اختلط ماؤنا وأحاطتني بنظرة الرضا و الاكتمال، هنا قالت لي:

- لا ذنب في حب تبادلناه يا يوســـف، بعضنا من بعضنا، أنت لي دائمًا، و كلما نظرت إلى جســـدي في المرآة سأقرأ عهود الهوى التي طبعتها عليـــه، و أيقن أننا لن نفترق، أين العهود الآن؟ هل محاها عاصم عن خريطة جسدك؟

أين تلك اللحظة، لحظة العناق التي هوت من أجله نجمات، المحصلة صفر، كأن ما حدث لا يعدو أن يكون حلمًا لمراهق شـــاهد نفسه يضاجع أميرة أحلامه ثم آفاق قبل الوصول إلى الذروة، مع شـــعور بالضياع والبلل و حسرة القطيعة.

وضعت رأســـي تحت الماء المنهمر من الصنبور، رشفت الماء مغالبا طعم الصبار الشوكي المتعلق بحلقومي، ثم تركت الماء حرًا ينساب على رأسي لعل الحريق يهدأ، هل أشتم رائحة ذوبان عقلي؟

تمنيت أن يغسل الماء صورتها الســـاكنة ببصيلات شعري، تمنيت أن يستكين حد الســـكين عن لعبة النشر المتواصل في صدري.

- ماذا تفعل؟ أتمنى ألا تكون قد حرقت الصلصة، انتظر سأحضر لك منشفة.

أغلقت الماء تاركًا الماء يقطر من جبهتي، أغمضت عيني كأنني أخاطب الظلام، شعرت بالمنشفة توضع على رأسي و يد داليا تجففها بحنو دافئ، حتى سرت رجفة اســـتئناس في عمودي الفقري، لِمَ لا نشعر بالاستمتاع ذاته مع لمستنا لأنفسنا؟

لِمَ يأتِ الدفء و الاسترخاء مع أنامل الآخر؟

أنهت داليا تجفيف رأســـي ووجهي ثم نزعت المنشفة عني ناظرًا إليها، وقفت أمامي في ثوب منزلي قصير، كشف عن ساقيها المصبوبتين و ارتفع حتى التقاء الفخذين الغامض، و صدرها لاح يلهو حرًا بلا حاكم تحت القماش القطني الناعم يستفز جاذبية الشمس ذاتها.

تحركت إلى الموقد حافية القدمين يكاد الدم يرقص في التقاء الكعب مـــع القدم و وتر الخلفي لركبتهـــا أكاد اسمع نبضه في صدري، مالت لتقلب الإســـباجتي على النار و تتذوق بعضًـــا من صلصة اللحم الحارة، فبدت ثنايا تعرج الظهر كشلال يصب على صخر صلد متكور لين، غبت تمامًا فيها بنظري و رائحة جسدها الممتزج بالصابون العطري تسكرني.

- الحمد لله لم تحترق الصلصة والطعام قارب على الانتهاء!!

لم أكـــن منصتًا لها، بدا صوتها قـــادم من كهوف منعزلة و كل ما شـــغل بالي تلك الرغبة الممضة، أن التصـــق بها من الخلف كالمجنون، التفتت تنظر لي بابتسامة غامضة.

- ما بك يا يوسف؟ تبدو كالتائه.

- لا شئ، سأذهب إلى الحمام ريثما تفرغين.

قلت العبارة مفككة بصوت محشـــرج مبحوح، أشـــعلتني قبل أن أخرج عندمـــا مالت تحك ركبتها، فبدا مفرق الثدي متســـعًا أمام نظري.

اندفعت إلى الحمام، فتحت الماء و جلست مطرقًا إلى الأرض على حافة المغطس، عقلي فارغ بلا فكرة أو ذكرى فقط جســـدها يتشكل مرة أخرى في عقلي ليقتلني، سألت نفسي أين الذكريات؟

بحثت عن الذكرى و حد السكين أتعلق بهما فما فلحت، غابت صورة نـــور و وجع القلب أمام بركان الغريزة المنتصب المجســـد في تلك المرأة الغجرية السمراء.

أغلقت الماء و تصميـــم الحمقى يتعالى داخلي، ســـأودعها ثم أرحل، لا مجال للبقاء وســـط هذا المحيط المتلاطم، ســـأرتكب حماقة إن ظللت جوارها.

كانـــت لا تزال على وقفتها أمام الموقد تقلب صلصة اللحم و رائحة الفلفل الحـــار تطلق مصحة المختلين من عقالها في رأســـي، دخلت إلى المطبخ محاولاً تملك رابطة جأشـــي المرتخية، هممت أن أخبرها بعزمي علـــى الرحيل لكنهـــا التفتت و هي تمد طرف الملعقة المحملة بالســـائل الأحمر الحار الفواح، ضمت شفتيها ونفثت بالملعقة كي تبرده قليلا ثم ألقمتني إياها قائلة:

- ذُق!

ما إن لامست الصلصة الحارة لساني إلا وثارت حواسي وانتفض قلبي راكضًا كخيول الســـباق، تساقطت قطرات من الســـائل الأحمر على قميصي، نحت الملعقة جانبًا ثم شـــرعت في محاولة إزالة البقعة المتمددة، اقتربت مني بأنفاســـها الحارة المتلاحقة كوقع قلبي.

رفعت عينيها تنظر إليَّ مســتكينة متطلبة، طوقتها بذراعي السليمة ثم انغمســت أقبل الشــفتين المتفجرتين بعنفــوان الصائمين، لم تقاوم بل شــدتني بذراعيها تقربني أكثر فأكثر إليها، شعرت بصدرها المتكور وجسدها اللدّن ينصهران بي.

لا أعلم ما حدث، فقط أصفه بأنه متوالية حسابية لا نهائية لمضاعفات رقم اثنين، ضاجعتها على أرضية المطبــخ الباردة أولاً، ثم خرجنا لنعيد الكرة مرارًا في الردهة و على الأريكة و فوق طاولة الأكل التي تحولت إلى مكتب مكدس بالأوراق و الأكواب و عرقنا المترسب معًا.

فاصل صغير أبعدنا لثوانٍ، عندما غزت رائحة الأكل المحترق أنفينا، تركتني مهرولة عارية كظلال الصور القديمة، و عندما عادت اشــتعل اللهيب بيننا مرة أخرى.

عند ساعات الصباح الأولى نامت متوسدة صدري و قضيت الليلة كلها أحملق في السقف شــاردًا، ترتسم على الجدران علامات تعجب مسمارية عن نسيان الألم المؤقت و الفناء في أتون الجسد المشتعل بالرغبة.

سمعت صوت العم مصطفى في جنباتي يقول جملته الخالدة: « كي تتجاوز امرأة عليك بامرأة أخرى، لا يفل الأنثى غير الأنثى».

يا ليت المســكن الأقدم ينفع، الجنس مع الوقــت يصبح كالعقاقير فاقدة المعنى يــا صديقي، و تعود ذكرى نور أقوى و أكثر، و لا يشــعر بجمرة النـــار إلا المكوي بها.

***

Marcia Funral

مارش جنائزي

(8)

نور الهدى فريد عبد العظيم

غرفة الفندق، النظيفة بشـــكل يثير الهلع، نظافة كتلك التي تعقب إزالة أشلاء القتلى من مسرح جريمة، أشياء و أشياء دارت هنا، عابري سبيل مرّوا، الفراش تمددت عليه أجســـاد مختلفة الألوان و الأعمار والروائح و الدوافع، عمليـــة تدوير كبرى كالوجود ذاته، هل يعلم أحدهم أنه فقد شعيرات من رأســـه في المغطس أو لعاب على وسادة هاهنا، أفكار زادت من توتر نور، وحيدة، هاربة، لكنها ليســـت تائهة كما كانت حتى النتائج ما عادت تعنيها كثيرًا، حاولت الاتصال بجان مرارًا لكنه لم يرد، هل نسيها؟ هل تجاوز وجودها الطاريء على حياته؟

تظن لا، لكنه سيســـير فيما تبقى من لياليه مبتسمًا كعادته لا يهتم متظاهرًا بالخلود و الزهد.

الساعة تجاوزت العاشرة مساءً، و لم تعد داليا مهاتفتها، لعل انشغالها في تغطية الأحداث فعل فعلته.

فتحت التلفاز تقلب القنوات مرارًا، هؤلاء البسطاء الشباب المتمترسون في وســـط الميدان لم يبارحوا مكانهم، هل هو يأس من مصير التخلي عن جمعهم؟ أم أمل في معجزة قد تأتي؟ عادت إلى مصر كفراشـــة تتشرنق عكســـيًا، الآن هي بلا ونيس أو أب روحي أو بيولوجي، كلاهما في التراب، لن تجد أحدًا يأخـــذ بيدها كما كانت وهي طفلة في أروقة الدار تلهو، أمنيتها الكبرى أن تجد يوســـف، لا لأمل رتق ما تمزق من حب، بل لتغفر لـــه و تطلب منه الغفران، هذا المحطم الوحيد الذي لم ترحمه أشـــباحه يومًا و اســـتغاثته بها لم تفهمهـــا، لم تحب أحدًا كما أحبته، و لم تخذل

أحدًا كما خذلته، ما عادت تهتم بمصير آتٍ، الأسوأ قد مر حتى وإن عاد لن يترك علامة دامية على جسدها.

غالبت رهابها من غرف الفنادق ثم تمددت على الفراش محتضنة الوسادة، غلبها التعب فأسلمت نفسها لسبات عميق..

في تلك الأثناء هناك في باريس، تزاحم المارة أمام البناية رقم ٥٤ بمونمارتر، سيارات الشرطة البيضاء و سيارة إسعاف، توقفن أمام البناية، المحققون جالوا في الشقة متفحصين جثه الرجل الخمسيني برتابة، انتحار، الانتحار لا يثير الريبة أو السهر في العمل مع أقداح القهوة، رجل آخر في منتصف العمر قرر أنه لا فائدة ترجى من وجوده فانتحر، عندما أبلغ الجيران الشرطة بوجود موسيقى تدور بصوت لا يطاق، حضر شرطيان، مجرد جنحة إزعاج أخرى، مع القرع على الباب لم يستجب أحد، أحضروا حارس العقار الكهل، مقاومًا سعاله اختار مفتاح الشقة الاحتياطي بعد لأي، و عندما دخلوا وجدوا البدين يتدلى من السقف وجهاز الأسطوانات الإلكتروني يعيد اللحن الجبار مرارًا و تكرارًا .

- من يضع أسطوانة موسيقى على نظام الإعادة المستمرة و هو مقدم على الانتحار؟!

تساءل أحد الشرطيين متهكمًا، لعل أمنية خفية أن تنقذه الموسيقى من غيبوبة الموت ظلت في مخيلته، أو تخيل أن الموسيقي هي عملتان ذهبيتان يمر بهما عبر نهر الجحيم في العالم السفلي أُغلقت القضية، حُمل الجسد إلى مشرحة المدينة و كُتب تقرير عن غياب أي دليل قتل عمد، مجرد رجل ذي سمعة طيبة وسط جيرانه أصابه الملل فانتحر، هذا يحدث كل يوم.

في بهو أحد أكبر فنادق العاصمة، جلس عاصم مرتديًا حلة رمادية بلا ربطة عنق، أمامه يجلس رجل ذو رأس أصلع تفوح منه رائحة الأهمية، ملابسه و بنيته العسكرية المشدودة، بعد أن أتاه هاتف من رقم مجهول،

و عندمـــا رد عاصم كان الحوار من الطرف الآخر أشـــبه بمجموعة من الأوامـــر، أن يأتي في المكان قبل موعده بنصف ســـاعة، أن ينتظر الرجل الغامض حتى يأتي، لا يتحدث بل ينصت.

- عاصم جبر، أظن أنك تعلم من أكون؟
- نعم نعم، رأيت صورة لسعادتك مرة أو مرتين، و أيضًا تشرفت بحضور حفل منذ أعوام مع أبي على شرفك سيدي.

هز الرجل رأســـه، بلا بادرة انفعال على قسماته المجعدة و شاربه الكث المصبوغ ليداري سنه الطبيعي المقترب من السبعين.

- عاصم، سأدخل في الموضوع مباشرة، أنا وقتي ليس ملكي كما تعرف، بالتأكيد قد سمعت الأخبار القادمة من مصر!

بلع عاصم ريقه و هو يؤكد كلام الرجل الغامض.

- جيـــد، بلا تجميل للحقيقة، الأمور غير مبشـــرة، البلد على منحنى قادم، لكـــن هذا ليس لكل الناس!

تساءل عاصم عن المعنى الغامض لجملته.

- ماذا تقصد سعادتك؟
- أقصد ألا تقلق، لن أفســـر فهذا لا يعنيك الآن، لكن كإشارة، البلد مقدمـــة علـــى غربلة، تختفي وجـــوه و تصعد وجـــوه، المهم هنا ما يخصك .

لكن أنا كما تعلم، لا أملك شـــيئًا، حتى المتبقي تم المقايضة عليه، غير أنه ما أفضليتي، لســـت سياسيًا كأبي.

- أولاً أفضليتك أنك محســـوب على من وقـــع عليهم ظلم كبعض رجـــال الأعمال، هذه ورقة جيدة تقدم للناس، ثانيًا لا يهم ما تملك، أبوك نفســـه لم يكن يملك شـــيئًا، نحن من نصنع هذا، ستجد مع ســـكرتيري أوراقًا و عقودًا، وقع عليها!

ارتعد عاصم، عقود مرة أخرى، اللعنة، ألا يشبعون، وقف الرجل المهيب و صافحه قابضًا على راحته ثم قال كمن يقرأ عقل عاصم:

- لا تخف، فلســـت البرعي ذلك الدنيء، هذه عقود شـــراء و تأسيس باسمك، جريدة و شبكة قنوات فضائية و مصنع للأسمنت، لا تسأل الآن، كله بوقته.

تركه المهيب يتنفس بصعوبة الخلاص، جسده يرتجف بنشوة غريبة أسكرته، التفت له الرجل كمن أراد إضافة شئ:

- آه بالمناسبة، زوجتك وصلت القاهرة صباحًا، هي تقيم بفندق قريب من المطار، نصيحة لك، طلقها!

زادت فـــورة دماء عاصم عندما أتى ذكر نور، نصيحة الرجل هي أمر، لكن هل يبتلع ما فعلته؟

حتى و لو طلقها لن تغيب عنها شمس انتقامه، أتى المساعد بالأوراق، وقع عاصم بعنفوان، فبدا كإمبراطور عثماني يوقع اتفاقية انتصاره على خصمه العنيد..

الحركة الرابعة

Grand finale

نهاية في قالب سوناتا

(1)

سقوط حر

ألقى يوسف نظرة على جسد داليا العاري المسجي على الفراش، ذاك الحضور الأنثوي الصاخب القوى يفوح رغبة و طلبًا، كانت تغط في نوم هادئ، تحيطها هالة من السلام السرمدي.

ارتدى ملابسه بهدوء خشية أن يوقظها من سباتها، خرج على أطراف أصابعه إلى الصالة، التي زادها اشتباك أمس عشوائية، أشعل سيجارة و هو يجلس على الأريكة، عصر رأسه بكفيه محاولاً استعادة السيطرة على نفسه، شعر بندم رهيب مما حدث، الآن هو متورط مع المرأة، لا يعرف ماذا سيفعل أو ماذا سيقول لها، هل هي تنظر إلى علاقتيهما معًا كعلاقة أبدية، يوسف في صميم قلبه شعر بخيانة ما لنور، بل لفكرة نور عنده، أن يسمح بدخول أخرى في حياته عذبة، شعر أن تجاوز حبه المرهق سيضع أمامه نتيجة منطقية تخل بكل أسبابه التي أنتحر من أجلها، معنى أن يميل مرة أخرى أنه لن يحب كما يجب، ستزول عنه مسوح العاشق المحروم المعذب المطعون في الصميم.

أغمض عينيه، زاد توافد الصور على عقله، صورتها نور بكامل كيانها، ارتعش من هول الصداع، كيف تتحول صورة حبيبة إلى رعب يكمن في التلافيف الرمادية؟! حتى أنه لم يستطع أن يكرهها يومًا، وسط الأحداث لم يلمها أبدًا، ألقى بحزنه و حسرته على كاهل نفسه، هل شعرت هي بنفس مشاعره الآنية بعد زواجها؟ هل تعايشت مع رجل آخر يقطف ثمارها كل ليلة؟

الفكـــرة الممضة تعصره كليمونة عجفاء بـــلا عصارة تُرجى، تذكر غضبه من أخيه بعد أن رماها بالعهر والرخص، تذكر رده العجيب الذي يلخص كل ما في صدره.

كان رده صارخًـــا ذبـــح أحباله الصوتية، قال لشـــريف ثائرًا مغالبًا دموعه:

– حتى و لو كانت عاهرة و أشـــر الناس، هي عاهرتي الخاصة و شري الخاص، لن يفهمني أحد أبدًا.

أخرجته من ظلمته يد داليا الدافئة تحتضن رأســـه إلى صدرها، فتح عينيه على ابتســـامتها الراضية، قالت له و هي تقبل رأسه:

– سأصنع إفطارًا ملكيًا لك يا يوسف.

ذهبت كما هي لم تكلف نفسها بوضع رداء يسترها، كانت مستمتعة و منتشية، كأنها تعلن عما في صدرها من أفكار، أنها تريد أن تكون أنثى في حضرته، بلا رتوش أو ملابس أو أي شئ، تحب أن ترى الاشتهاء الدائم في عينيه، دخلت إلى المطبخ و هو كما هو في جلســـته، يتمنى أن يذهب و لا يعود، يتمنى أن يغســـل أفكاره، تلك الأفكار التي خدرتها قبلات المرأة الحارة أمس على جســـده، عادت بشدة و بطنين أسراب الندم. دخل إليها، أرســـلت له قبلة بالهواء و هي تقوم بتقليـــب البيض في مقلاة، تابعت ما تفعله ثم ألقت نظرة على وجهه المطرق إلى الأرض مكفهرًا.

– ما بك يا يوسف؟ تبدو مختلفًا.

– لا أبدًا.

قالهـــا مهزوزة مترددة تجر أذيال الكذب الأبيض و الأســـود و المرقط، وضعـــت الملعقة في المقلاة و ألقت بكليهـــا بعنف في الحوض و قالت:

– لا، الندم يعلو وجهك، أنا لست حمقاء أو غير ناضجة.

– داليا ما حدث أمس و ما أفكر فيه.

قاطعته كلبؤة غاضبة:

– لم يكن هذا الندم أو تلك النبرة تعلو في صوتك أمس يعني، هل قضيت وطرك و انتهينا؟ اللعنة هل تظن أني أدعو كل يوم رجلاً إلى فراشي، أنت أحمق، توقعت أنك ستفهم يومًا.

خرجت مغاضبة، خرج خلفها يتنفس بصعوبة، ارتدت روبًا منزليًا على جسدها العاري المحمر غضبا كشعلة نار.

– أريد فقط أن أخبرك، أن ما حدث غلطة يا داليا، لا أقصد إهانتك، لكن إلى ماذا سنصل بعد هذا؟!

– توقف عن التفاهة أرجوك، قلت لك أمس ارحمني من مظهر الطفل التائه هذا، أنا لست نور يا يوسف، أنا أسلم جسدي الذي أملكه لمن أحب، لست كمعشوقتك أبيعه لأغنى رجل أمامي.

انتفض يوسف غاضبًا، اقترب منها بعنف كأنه ينوي صفعها لكنه توقف.

– نور أشرف منك و مني، أخرجيها من الموضوع، المصيبة أنها صديقتك و اعتبرتك أختًا لها.

– اذهب يا يوسف، اذهب لا أريد أن أراك، حبيبتك الملائكية أخذت كل شئ و يا ليتها تشبع، حتى من أحببت أنا، أكثر ما كان يقتلني أنك لم تكن تراني و هي معنا، لست أقل منها في شئ يا ابن الراوي، بل أنا أقوى و أوضح، لولا وجودي لظلت حبيسة القمقم.

– سأذهب فعلاً، على كل حال أنا آسف إن كان الاعتذار يليق، لن أحمل أحدًا سواد عالمي و أتمنى ألا تفعلي أيضًا، تلقين شرارك في كل مكان.

ارتدى حذاءه مسرعًا، فتح الباب فأتاه صوتها الباكي.

– أنا أحبك يا أحمق، و أتمنى أن تموت يا يوسف.

قالتها بصوت متهدج و انهارت في بكاء عنيف بلا توقف، تردد في تركها، ألقى عليها نظرة، وقال:

– كلنا مذنبون و أوغاد يا داليا، و هذا العالم اللعين يلهو بنا كالدُّمَى.

قالها ثم أغلق الباب بعنف و ذهب إلى حال سبيله.

سار يوسف من مدخل البناية بلا هدف، غارقًا في صديده الروحي حتى الأذن، تطلع حوله إلى الطريق و السيارات و مناشر الغسيل بالواجهات و الوجوه المتحجرة حوله، أصابه شعور كائن فضائي يرى الأرض لأول مرة، عندما تتحول الموجودات إلى رسومات صبيانية من فيلم لرسوم متحركة سخيف، سخافته أنه يطابق الواقع بلا خيال، هؤلاء وجوه بشر فقدت خيالها.

مر بجوار كشك إبراهيم الكهل، الذي يجلس صاحبه كأبي الهول بلا حراك على كرسيه الذي أصبح جزءًا منه، ينصت إلى صوت «عبدالباسط عبدالصمد» الجامح ينساب برَّاق من المذياع كخيول محاربين برية يجتاز أثير الوجود و يملأ الشارع بعبق فردوسي.

توقف يوسف طالبًا علبة تبغ من الشيخ، مد يده بالنقود فمال الشيخ في جلسته بجزعه كعنق بومة رمادية ملتقطًا علبة من الرف الخلفي مناولًا إياها له.

فتح يوسف العلبة بمهل كعاشق ينزع خمار حبيبته لأول مرة، نظر إلى أكوام الجرائد المتراصة على الحامل الحديدي.

جال ببصره وسط العناوين الملونة أحمر و أسود، ابتسم يوسف أمام كمية السخف المعلب، وفى محاولة من جريدة الأخبار لتهدئة أجواء الشارع المصرى، أبرزت تصريح رئيس مجلس الشورى، الذى أكد أن هناك فرقاً بين حرية الرأى والتعبير وحالات الفوضى، وحذر الشريف من الخروج على الحرية والاستقرار فى مصر وألا يتيحوا الفرصة لأحد أياً كان أن يستثمرها بهدف الخروج عن نطاقها.

بحث عن القداحة، لم يجدها، يبدو أنه فقدها, لقد كانت هدية من نور، يبدو أنه نسيها لدى داليا، لقد نسي هدية نور لدى داليا, كما تناسى نور في لحظاته المحمومة مع داليا.

شعر بالانزعاج لهذا الخاطر، طلب علبة ثقاب من الشيخ إبراهيم وأشعل سيجارته, ملأ صدره بالدخان و عينه بتشفٍ تجول على بقية العناوين المعبرة

* دعاة التحريض فشلوا فى تحقيق أهدافهم والأمن تعامل بضبط النفس

*مظاهرات فى بعض المناطق، وهدوء فى معظم المحافظات

*أزمـــة حادة فى لبنان، مظاهرات حاشـــدة لأنصار الحريرى بعد تكليف ميقاتى بتشكيل الحكومة

* متعب وزكى وزيدان يعودان للمنتخب، الزمالك يســـتعيد شيكابالا، وميدو يشارك فى المران

* فى اجتماعين لمجلس التنمية العمرانية والمحافظين برئاسة د. نظيف:

تطوير«المثلثالذهبى»بالأقصر،وتخصيص١.٥مليارجنيهللقرىالفقيرة

* وزير النقـــل: رفع طاقة الموانيء إلى ٢٠٠ مليـــون طن وإضافة ٥٠٠ كيلو متر للســـكك الحديدية

* أمانة الحـــزب الوطنى بالقاهـــرة تحتفل بعيد الشـــرطة، هلال: حريصـــون على تعميق مفهـــوم المواطنة

بصق يوســـف هلامًا أســـود، صعـــد إلى حلقه من الضحكـــة الرنانة المســـتهزئة التي أفلتت منه، نظر له إبراهيـــم بنظرة فارغة كرجل تعود جميع أنواع الزبائن، قال الشـــيخ بصوت مســـموع:

– الله يلعن الحشيش، صار أكثر من الشاي و السكر.

لم يلتفت يوســـف إلى الشـــيخ، التقط بعينه آخـــر خبر، على صفحة صوت الحقيقة، النائب العام يباشر التحقيق مع الإرهابي المتهم في حادث القديســـين، ثم تحته في خبر كتب بخط أصغر تورط جماعات إرهابية فلســـطينية في التفجير الآثم، ألقى يوســـف السلام على الشيخ، و اتخذ طريقه و هو مغرق في الضحك.

(2)

امرأتان

وقعّت نور على فاتورة الفندق بعد أن دفعت مبلغ إقامتها ليلة وحيدة، شيعها الموظف المنمق بابتسامته التي يرتديها مع زي العمل و شارة الاسم المعلقة على سترته السوداء أتبعها بتمنى يوم جيد لها بالإنجليزية.

ارتدت نور نظارتها السوداء التي ابتلعت نصف وجهها، خرجت تحمل حقيبة كمانها المغتصب وحقيبة يدها الصغيرة، صاحبها عامل الفندق حتى التاكسي المنتظر عند البوابة، نفحته مالًا بلا عد، تسأل السائق عن وجهتها، أجابت بصوت متكسر .

- الهرم، لو سمحت.

ظل السائق ينظر لها منتظرًا العنوان الكامل، وسط تلك المنطقة المتشعبة، تداركت نور الأمر متبعة.

- نصل شارع الهرم و سأدلك فأنا لا أعرف اسم الشارع.

انطلقت السيارة في الطريق، الذي لم يتغير منذ أن رحلت عن المدينة، مرت بمطعم كان آخر مكان تلاقت فيه مع يوسف، آه من ذلك اليوم، جلسا معًا طلبا الطعام و طلب هو زجاجة نبيذ أحمر، تعجبت فقال إنه يحتفل بوجودهما معًا، كان غريبًا و عيناه تموجان بألف ألف سؤال، شرب بشراهة، سألته:

- ما الأمر؟!

أجابها:

- لا شئ.

ألحت في السؤال، فنطق بالسؤال المسكوت عنه:

– - هل تخونينني يا نور؟

جنت فاتبع مغالبا صراعًا يفتك به:

– هل تقابلين عاصم جبر؟ إنه يشعر و لا يريد أن يصدق.

غضبت و تركته مداريـــة الحقيقة التي تحاول ألا تظهر على وجهها الكريســـتالي، أميرة الثلوج لم تســـتطع رســـم وجه قناعي يخفى الندم و الذنـــب خرجت و ركض وراءها، في الســـيارة قال لها إنه لا يســـتطيع الاســـتمرار، مع تلك الظنون و ما يـــُنقل إليه يسمم قلبه.

– لا أريد أن أكرهك يا نور، القاتل أني لا أستطيع بكت دموع حارة.

كانـــت آخر خطوط دفاعها أمامه، لم تنـــف التهمة التي رماها بها، عندما رأى دموعها أنهارًا يبكي كطفل مشـــرد في ليلة موحشـــة وسط المقابر، عرفت أنها كسبت يومًا جديدًا معه، احتضنها و قبلها وسط عيون المـــارة المتنمرة، هو تفتت إلى أجزاء، قال لنفســـه: لا يهم أن تخون عهدي ألف مرة المهم أنها معي وجواري، عندما تحول الحب إلى عذاب ســـيزيف العبثي، صخرة تحمل و قلب يرزح تحت أطنان من سنين الرفض و العزلة.

بكـــت نور من مرارة ملح الذكرى، بحثـــت عن منديل في حقيبتها لم تجد، لمحها الســـائق في المرآة، مد يده بالعلبة الكرتونية للمناديل المقررة على ســـيارات الكوكب، مسحت دموعها و هي تئن.

– يا مدام، نحن في شارع الهرم الآن.

انتفضت نور و مالت تشـــرح له الاتجاهات كمـــا تتذكرها، توقفت الســـيارة أمام البناية القديمة، نزلت نور بحقيبة كمانها و وضعت أوراقًا نقدية مجعدة في كف الســـائق الضجر؛ دخلت إلى البناية التي شاهدت بداية خروجها إلى العالم من كهف المايســـترو، صعدت حتى باب الشقة. رنـــت الجرس بقنوط المذنبـــين، أكثر من مرة، انتابهـــا اليأس أن تكون

صديقتها متواجدة حتى لاح الأمل في صوت خطوات تقترب من الباب، فُتِح الباب ليكشف عن وجه داليا الملبد بالدموع و الغضب و انكسار الخاطر، لم تتحرك داليا قيد أنملة؛ كان رد فعلها باردًا لا يخلو من ملامة مستترة..

لو كان هناك طرف ثالث بين الصديقتين في تلك اللحظة, لأدرك سريعًا ملامح الكراهية التي لاحت على وجه داليا فبدا كأنه بورتريه بعد أن أنهاه الرسام لم يعجبه فلطخه بالفرشاة، لقد كانت الكراهية دخيلة على داليا لا تتسق مع شخصيتها الواضحة, من مثلها لا يتورع عن إعلان رفضه بدلًا من كبت مشاعره لتتضح في لحظة انفعال قوية كتلك اللحظة..

وضعت نور حقيبة الكمان على الأرض و احتضنت داليا باكية، لم تبادلها الغجرية النارية العناق الحار أو المواساة المطلوبة ولو حتى من باب الافتقاد لمن كانت غائبة.

- لا أصدق أنني هنا يا داليا، لا أصدق أنني بين ذراعيك, كم افتقدت هذا الإحساس بيننا.

تملصت منها داليا و ابتعدت عنها واتجهت لتجلس على الأريكة ببرود شديد، بدت الدهشة على وجه نور المبلل بالدموع، شعرت وكأنها كطفلة صغيرة ارتكبت خطأ وسارعت بالاعتذار لأمها والارتماء في حضنها باكية نادمة فإذا بالأم تبعدها وكأنها ترفض اعتذارها، كادت أن تنطق بشيء ولكنها تراجعت، حملت الحقيبة ثم أغلقت الباب خلفها وتبعت صديقتها لتجلس جوارها، كانت داليا تحاول إشعال لفافة تبغ بعصبية زائدة, وضعت نور يدها على كتف داليا التي ارتعشت فجأة.

- ما بِكِ؟
- لا شئ يا نور، لا شئ!!
- يبدو لي أنك لست سعيدة بوجودي.
- لا طبعا، لكنني كنت نائمة , كما أن الأحداث الأخيرة ضاغطة على الأعصاب بشكل لايصدق.

وأتبعت بتهكم دفين:

- حـــدث الكثير يا نـــور الكثير في غيابك, ولكنـــكِ بالطبع أبعد ما تكونين عما يحدث علـــى أرض الواقع..

كادت أن تقول لها: ألســـتِ أميرة الثلوج ونحن الرعايا!! متى شعرت الأميرة بسواها، تراجعت وزفرت نفسًا عميقًا من سيجارتها ثم أطلقته في هواء الردهة ؛ التفتت إلى نور لتقول:

- ألم أطلب منك أن تنتظري مكالمة مني، حتى أرتب أموري.

غالبت نور الحرج الذي صبغ وجهها بحمرة مدقعة و قالت:

- نعـــم، أعتذر منك، لكن لم أكن أملك مبلغًـــا ماليًا لليلة إضافية، سامحيني.
- لا أقصد شيئًا يا نور، فقط أنا في حال يرثى لها، المهم الغرفة لديكِ لتستريحين فيها كما تشائين.
- سأرحل في أقرب فرصة لا تحملي همي.
- لا عليكِ، المايســـترو رحمه الله ترك لك وصية، شقته ملكك، المهم أخبريني ماذا حدث معك.

قصت نور حكايتها على مسامع صديقتها المتبلدة المشاعر، ظلت داليا تسمع و تهز رأسها كنوع من التضامن الزائف وإن كانت بعيدة!! بعيدة عن كل انفعال لأجل نور!!

شردت ولم تنصت لما تقصه عليها؛ تساءلت داليا بحسرة :

- مـــا الذي أتى بكِ يا نور؟ ألا يكفيكِ ما أخذتيه مني من قبل لتأتي الآن وتحرميني منه ثانية؟!

أفاقت داليا من شرودها على صوت نور وهي تنهي حديثها:

- هذا ما حدث يا داليا، أشعر أنني حرة أخيرًا رغم ظلمة المجهول الذي

ينتظرني.

- ليتك ارتضيتِ، لو كنت بمكانك لعشت مع عاصم و تمتعت، الرجال كالأطفال من السهل أن تروضيهم لكنك عنيدة كعادتك.

- لن تفهمي، منطقك ما كان سيصمد يومًا مع هذا الوحش، المهم أخبريني، هل هناك أي أخبار عن يوسف؟

انتفضت داليا واقفة وسارت للمطبخ موارية عصبيتها المتفجرة عن عيني نور، عادت بقنينة ماء.

- لا لم يجب على رسالتي ولا أعرف عنه شيئًا، ما أهمية يوسف يا نور الآن، انسيه و عيشي حياتك، لا تكوني حمقاء.

لم ترد نور على التهكم المكنون في طيات عبارة داليا، استأذنتها و دلفت إلى الغرفة لتبدل ملابسها، طلبت منها شيئًا لترتديه، فهروبها لم يسنح بفرصة لإحضار شيء، فتحت داليا الخزانة، سحبت سروالاً وقميصًا ألقتهما لها بإهمال على الفراش و تركتها لم تتمالك نور نفسها، بكت في صمت، كما بكت في المسرح و هي تختبيء من المايسترو طفلة، بكت و هي تتجرد من ملابسها التي صاحبتها طوال يومين، توتر داليا وعدوانيتها و حدتها غير مفهومين على الإطلاق،

ليس هذا فقط، هناك شيء آخر, كما لو كان أخدودًا قد تمدد ليفصل بين صداقتيهما، ربما هناك ما يضايق داليا, انتبهت نور أنها طوال فترة صداقتها مع داليا لم تهتم كثيرًا بالتعرف على أحوالها, مشاعرها, حكاياتها اليومية, لقد كانت علاقتهما غريبة نوعًا، صداقة من طرف واحد، لقد اعتادت نور على اهتمام داليا بها لا العكس، اعتادت على رعايتها لها, أما هي نفسها فلم تقدم شيئًا يذكر لداليا، لم تتخيل يومًا داليا وقد احتاجت لشيء, هي دائمًا قوية, تعتمد على نفسها وتساعد من حولها, لم تكن داليا من تلك الشخصيات التي تظهر حاجتها للآخرين سواء دعمهم أو مساندتهم، لم تكن تطلب شيئًا دومًا

مكتفية بنفسها، ربما تغير الحال! ربما هي بلحظة ضعف وتحتاج من يقف بجوارها، قررت نور أن تحاول إظهار نوع من الاهتمام لم تظهره من قبل لصديقتها فربما فاضت لها بمكنون نفسها، ولكن ليس الآن!!

ارتدت القميص و هي تخبر نفسها بأنه وجب الرحيل، شكرًا لمعلمها الذي بذل في موته لها خيرًا كما فعل في حياته. وضعت ملابسها القديمة في حقيبة الكمان و حملت الحقيبة متجهة إلى الخارج، وهي تستدير بالخروج بطرف خفي لمحت قداحة فضية فبدت مألوفة لديها، وضعت الحقيبة على الفراش، اقتربت من الكومود والتقطت القداحة كان منحوتًا عليها شعار مفتاح الصول الموسيقى نظرت بتمعن إلى الشعار وأشعلتها لتلتمع نارها زرقاء متوهجة، قلبت القداحة على وجهها المقابل، لترى حرف النون منحوتًا بسكين كما كان منذ أن نقشه يوسف وهو معها تخليدًا لهذه الهدية التي أحضرتها هي له يوم ميلاده؛ اشتعلت النيران بصدرها، والتقطت حقيبة كمانها من على الفراش لتندفع سريعا للخارج، نظرت إلى داليا التي كانت جالسة أمام الكمبيوتر المحمول محملقة في شاشته، توقفت نور للحظة قبل أن تسير في اتجاه داليا بدت وكأنه شبح اكتشف توًا أنه لم يعد جزءًا من عالم المحسوسات، وقفت أمامها و أظهرت القداحة:

- لم تتوصلي إلى مكانه؟ إذًا كيف حصلت على القداحة هذه؟ بلا أكاذيب، فما عدت احتمل أكاذيب يا داليا.

أغلقت داليا شاشة الكمبيوتر المحمول بعنف و انتصبت غاضبة.

- كان هنا يا نور، معي في فراشي، مارسنا الحب في كل مكان بالمطبخ وبالردهة وعلى المنضدة وبالفراش حتى هنا بموضع قدمك، أو تدرين شيئًا كان لي! ومعي! بلا طيفك الذي لا يغادره يا نور، ألف لعنة على يوم ظهرت في حياتي، ماذا تبغين؟ استحوذت عليه و تركته كالبيت المهجور المسكون بطيفك، سممت حياته الماضية و حياتي أنا القادمة، ألم يكفيك كل ما أخذتنه، أتريدينه الآن بعدما تركته في موات؟!

مشدوهة ذاهلة من هول البركان المتراقص في عيني صديقتها نظرت نور دامعة إلى داليا، لمَ كل هذا الحقد و اللوم لمَ؟

- أنتِ يا داليا، أنتِ من تقولين هذا!!
- نعم أنا، و كان يجب أن أقول هذا من قبل، لكني لم أدافع عمن أحببت لأنــه لا يرى غيرك، يبحث عنكِ في كل امــرأة، أنتِ أنانية لا ترين سوى نفسك و متطلباتك، و هو أحمق مسحور.
- لست بأنانية و لم أكن يومًا! ربما ضعفت نعم، لافتقادي الأمان ربما هــذا ما أوصلني لما أنا فيه، العجيــب أنكِ تصرحين بحبك له منذ متى؟ أنتِ تحبين؟ هذا أعجب ما سمعت!!
- و لمَ لا أحب؟ ألست بشرا؟
- بشــر، نعم! لكن هل تحتاجين للحب؟! لقد كنــتِ تبدين لي دومًا مكتملــة لا حاجة بكِ لســواكِ، كنت أراكِ مكتملــة، لا تهتمين بالعاطفة أو الاحتياج العاطفي! عدم الاهتمام هو الظاهر، فهل كان هذا مجرد قناع!! وبداخلك نفس تتوق إلى الحب والاكتمال به، أم أن حبك له نوع من الغيرة، كرغبتك في الاستحواذ على كل شيء في عالمي، كنت أشــعر بضيقك من التفــاف الجميع حولي عندما كنت أشارك بحفلات الساقية، كان هناك نوع من الغيرة التي كنت أستشــعرها و إن كنت أكذب مشــاعري وقتها، حتى المايسترو لم يســلم من تطفلك، الآن فهمت. لقد كنتِ بمثابة أختي! أهذه هي مشاعر أخت أو صديقة؟!
- أخت! صديقة!! باستنكار مستعر من شدة الغضب نطقت بهما داليا ثم أتبعت
- وهــل اعتبرتني أنتِ أختا أو صديقة أم مجــرد وصيفة لأميرة الثلوج وتابعــة لهــا؟! فلتكن لحظة صــدق حقيقية ولتعترفي لنفســك بأنانيتك قبــل أن تهاجميني..

لم أكن أغار منكِ, فأنا من ساعدكِ لتعزفي في حفلات الساقية وأنا من أخرجكِ للعالم من شـــرنقتكِ! وإن كنت أســـتغرب حرصكِ على الاستحواذ على الانتباه لتبقي في الصدارة ويبقى الجميع خلفكِ، حتى المايســـترو جميل الفقي من كان سببًا في حسرته؟! أنا! أم أنتِ!!

وعندما مـــات مقهورًا من كان جواره وقتها، أنـــتِ؟ أم أنا!! من فينا الشيطان الآن؟

أنتِ مدللة ترى العالم مدينًا لها على الدوام بشـــيء. والحقيقة أنكِ مدينة لي أنا!!

فلولاي ولولا حفلات الساقية ما كنتِ عرفتي يوسف, وما كان أحبكِ..

- لا أحد مدين لي، و أنا لست مدينة لأحد!!

على كل حال أغفر لكِ و لنفســـي، فما عدت ألوم أحدًا، سأذهب إلى حال سبيلي. ..

حملـــت نور أغراضها و هي ما زالـــت تقبض على القداحة في كفها، قالت بصوتٍ مكتوم:

- أعطني مفتاح شـــقة الزمالك، لن أطلب منكِ الاتصال بيوسف، أنا سأجده و أتمنى أن تتصالحي مع نفسكِ، اطمئني فلست أريد يوسف, ولا أريد أن أســـترجع علاقة الحب بيننا، فقط أريد أن يسامحني، وأن يغفر لي , وهو لكِ إن شاء!!

أحضـــرت لها داليا المفتـــاح وضعته في يدها وهي ترتجف من شـــدة الغضب، كادت أن تقول شيئًا ولكنها تراجعت، ألقت نور نظرة أخيرة على المكان وغادرت وهي تغلق الباب خلفها بشـــدة..

أمـــا داليا فبقيت واجمة تنظر للباب ثم ارتمـــت على أريكتها تبكي و تصرخ، دفنت رأســـها في الوسادة الصغيرة، تشـــعر بانهيار تام، لقد انتهى الأمر وخســـرت كلتاهما للأبد يوسف و نور..

(3)

كريشندو الغضب

انتصبت الهرة ترشـــف من ماء يتسرب من ماسورة متشققة بمحاذاة الحائط البالي، غرق يوسف في لهفة الهرة الشهباء النحيلة و هو جالس في مقعده الخشبي غير المريح بالمقهي.

ترك داليا و لم يعرف إلى أين تأخذه الطرقات!!

كره فكـــرة العودة إلى فيلا الراوي، كـــره أن يلجأ إلى أربع حيطان تحتويه، كره أســـــر الروح في حواشي الجسد الفانى.

عرج على أول مطعم قابله، ابتاع شـــطائر فول و فلافل باردة محشوة بأوراق خضراء ميتة منذ أيام.

قضى الظهيرة على المقهى أكل و طلب ألف قدح من القهوة الكريهة و الشاي الأقرب لماء المستنقعات، ومع كل طلب كان ينفح النادل حسابه متعلـــلا بأنه في انتظار مكالمة و مـــن الممكن أن يذهب فجأة، كان كمن يخلص دينه مع العالم أولًا بأول.

عند الواحـــدة ظهرًا، قام و رغبة اســـتعادة قداحته الاثيرة تطيح بها فكرة العـــودة إلى الذئبة مرة أخرى.

لعن غباءه و أكمل طريقه وسط البشر حتى لفت نظره أفيشات أفلام في واجهة سينما، اقترب و تمعن في الملصقات الملونة المغرية الخيالية.

اقترب من شباك التذاكر قال للموظف:

- كم ثمن التذكرة؟
- ٣٠ جنيها، لكن أي فيلم يا أستاذ؟

- أي فيلم، لا يهم.

نظر له الرجل بغباء، و بدأ يتلو أسماء الأفلام المعروضة بنفاذ صبر.

- أتفضل فيلمًا أجنبيًا أم عربيًا؟!

- أجنبي، ليكن.

- حسنا، طارد الأرواح الشريرة، أيعجبك هذا؟

- الاسم موحٍ، موافق.

أعطاه الرجل التذكرة و تابعه و هو يذهب ثم مال على زميله قائلًا:

- هذه ليست دماغ حشـــيش، هذا الرجل بالتأكيد متعاطي كيمياء، أقطع ذراعي.

ابتلع ظلام القاعة يوســـف الذي غرق في مقعده ســـابحًا في الشاشة الفضية، فتاة تتلبســـها روح شـــيطانية وقس يكافـــح لخلاصها، تيمة تم اســـتهلاكها لدرجة الملل المقيت!!

أغمض يوســـف عينيه و رحل إلى غيمة الحلم. رأي فيما يرى النائم، شـــياطين وســـط الجحيم حول فوهة بركانية يحملون هرواة مدببة و يرتدون أزياءً عســـكرية، و هو وســـط جموع من البشـــر يتقدمون عرايا، يلقـــون واحدًا واحدًا في الفوهة تصحبهم هـــرواة الزبانية، من مكانه لمح نور في ثوب فضفاض أبيض تســـير على مهل، هتف باسمها لعلها تنتبه لكن صوته لم يغادر حنجرتـــه، تملص من الزحام محاولاً الاقتراب منها، هبطت ضربة أطاحت به عند الحافة النارية، قبل ســـقوطه وجدها تمد يدها لتخرجه كأنه بلا وزن، امتدت أيادٍ تسحبه من الكاحل، إلى الفوهة الفاغرة كفم فقمة بلا أسنان.

جذبته نور بقوة ليجد نفسه أمامها، لمست وجهه و همست:

- لن أتركك أبدًا.

استيقظ يوسف و هو يشهق بعنف، نظر إليه جاره بتعجب، كان الفيلم يوشك على الانتهاء، القس يخرج الشيطان بواسطة قوة المسيح النورانية، الفتاة تتلوي ثم تطير في الهواء و عند آخر لفظ لاتيني تلفَّظه القس سقطت على الأرض لتفرغ معداتها كخرطوم إطفاء.

نهض يوسف وسط الظلام و هلع المشاهدين مغادرًا، إلى أين تأخذك الخطوات يا يوسف؟

وقفت نور مستمرة وسط غرفة المايسترو جميل، الغبار تمدد كغلالة باهتة على جميع الأغراض، كرسيه المطل على النافذة مكان جلسته الدائمة، الطاولة المستديرة الصغيرة مازال كوب من الماء المصفر في مكانه، الجرامافون الألماني احتضنته شباك عنكبوت رحل، كيف تستشعر العناكب غياب ساكن المنزل الوحيد؟

اقتربت من حامل النوتات الموسيقية، أزالت الغبار عن الأوراق المهترئة، كانت مدونات الموسيقى التي وجدتها في الصندوق الأثري في محل الانتيكات، قاومت دموعها، التي استثارت بفكرة أن المايسترو رحل وآخر موسيقى رآها كانت ما أهدتها إياه.

خرجت إلى الردهة، لتتصل من الهاتف الأسود العملاق بالحارس، أخبرته أنها تريد مساعدة في تنظيف الشقة، قال لها الحارس بأن آخر وصايا المايسترو كانت ألا يدخل أحد الشقة إلا عندما تعود ابنته الوحيدة من غربتها، و أكمل بأنه سيرسل زوجته و ابنته لها، دين المايسترو و لحم أكتافهم من خيره..

أغلقت السماعة، ثم عادت إلى الغرفة فتحت الخزانة المزخرفة، أخرجت الكمان الستراديفاري، أثمن مقتنيات جميل الفقي، كان يسمح لها كثيرًا أن تتدرب عليه هنا، الكمان الذي كانت تقتنيه زوجته المجهولة و آخر ما تركته له بعد موتتها المفاجأة مع قلب متكسر. أخرجت الكمان بقدسية الكتب السماوية، اقتربت من النوتة و بدأت في العزف.

انساب اللحن الجهنمي كمياه الشـــلالات، مع ارتفاع الموسيقى بكت بقهـــر و تذلل العبّاد الصوفيين في صوامعهم، يا ليتها تعرف من أين أتى هذا اللحن و من ألفه؟!

البداية

احتشد الناس في صلاة الجمعة كأنها الصلاة الأخيرة قبل يوم الحشر، أكثرهم شباب ورد متفتح يانع، تمددت الصفوف كجيوش النمل، كتف بكتف و قدم بقدم، دوت تكبيرات كهزيم الصواعق، كمن يرفع إلى السماء روحه مبذولة عن طيب خاطر.

يوسف بعد أن قضى ليلته متسكعًا بين المقاهي و كورنيش النهر، جلس بين العشاق و مدمني السهر والمشردين و بائعي الشاي و الزهور الذابلة، عند الظهيرة انتبه لنصل الوقت في كبد السماء و أصوات الصلاة. قام يوسف من جلسته متجهًا إلى المسجد الكبير في ميدان مصطفى محمود، توضأ و اتخذ مكانه جوار رجل في منتصف العمر أفسح له فرجة ليشاركه الصلاة على ورق جريدة صباحية، عند السجود قرأ الخبر المتصدر، على لسان أحد الكهنة: احتضنوا الشباب!! تبسم و استغرق في السجود فجرت مدامعه.

عند نهاية الصلاة، وجد الشباب يحملون حقائب الظهر و يوزعون زجاجات المياه الغازية و الماء والخل، و بدأ الهدير بهتافات سقوط الفرعون.

اندفع الجمع منضمًا له جموع من شوارع فرعية متخذين طريقا إلى كوبرى السادس من أكتوبر، إلى التحرير كانت الصيحات.

الشرطة الكامنة و قوات مكافحة الشغب، بدأت بإطلاق الغاز و مدافع المياه، دمعت عينا يوسف واشتعلت مقلتاه جراء الغاز، اقترب منه شاب، قال له، و هو يناوله زجاجة المياه الغازية:

- اغسل عينيك و تشجع.

غســـل يوسف وجهه و عينيه بالسائل، بدأت الرؤية تعود، فأتبع سببًا، تراجعت الشرطة متقهقرة أمام الإصرار الحديدي حتى منتصف الجسر. زادت مقاومة جنود الأمن في الصفوف الأولى، لمح يوسف مدرعات تنقض بوحشـــية على الصفوف، و دخان أسود لســـيارة تحترق في أتون الغضب. ارتص الناس كالبنيان المرصوص، عُزَّل لا يحملون إلا حبًّا و حلمًا لهذه الأرض الجاحدة، عند ازدياد الهجمات بدأ الناس في صلاة، صلاة إن جازت فهي صلاة صمود.

دفع وانكسار، شـــد و جذب، كر وفر، حتى تجلى طريق الانتصار مع تراجع الأمن الغريب، اندفع الناس إلى الميدان و يوسف كأنه يطير. بدأت جولة أخرى من القتال، ســـلمية لم تمنع البطـــش الجائر هرواة هبطت لتطيح بشـــاب يجاوره في المسير، دفع يوســـف الجندي بعنف ثم نزع منه العصا الغليظة و ألقى بها على طول ذراعه، حمل الشاب السائل دمه على قميص يوســـف صرخ يوسف على بعض المعتصمين منذ الموقعة الأولى:

- أخي دمه يسيل، أخي دمه يسيل.

أشار له شاب إلى خيمة.

- هذه المستشفى الميداني، أحمله معه إلى الداخل، خرج يوسف مستثارًا و الملحمة تتبدى في عينيه كشـــريط لفيلم سينمائي، بعض الشباب يحـــاول اعتـــلاء المدرعات الســـائمة بين الجموع، قنابـــل غاز تكفي ميزانيتها إطعام ألف ألف بطن.

ارتدت المدرعات ثم عادت، و الجمع لا يتزحزح، بدأ يوســـف يشـــتعل، يكســـر الأحجار يلقيها على المدرعة، على خيباته على أبيه و كوابيسه، على كل شـــبح اتخذ هيئة عاصم المتبجح، بكى و هو يهتف حرية حرية، انعتق داخله شـــريف إلى رقدته ليستريح، هشَّم نور مرات و مرات.

لم ينتبه إلا و هو غائب عن الوعي بضربة على جبهته كرفيقه، تفجر الدم و غاب بين أيدي أبناء تراب أرضه.

ما هذه المهزلة؟ الاســـتخفاف العنيد المتعالي بوعينا، التلفاز قنواته الحكومية و الخاصة اتفقت على أن كل شـــئ تحت السماء هادئ في بث حي لمشهد نهر النيل البديع، كخلفية تصلح لأفلام عز الدين ذو الفقار الرومانســـية، تبقى أن تظهر في الشاشـــة فرقة رضا ترقص و تغني، مصر بلدنا بلد الاستقرار.

– أولاد زوانٍ.

هتفت داليا فائرة، ارتدت ملابســـها و تمنطقت بالكاميرا، فتحت باب شقتها و اندفعت إلى الشارع.

لا وجـــود لتاكســـي يرضى أن يقلها، من المختل الذي ســـيذهب إلى التحرير الآن.

لم يوقفها هذا، انطلقت الوقت كله معها، ســـتوثق كل ما يجري و ليكن ما يكون، الشـــربيني الآن في بث مباشر يتقيأ أي هراء كعادته عن وحدة الصف الوطني و المؤمـــرات الخارجية ذات الأصابع التي تخوض في مؤخرة البلد كي تخرج أحشائها!!

لم تتوقف انضمت إلى مســـيرة جبارة تعبر كـــبري الجامعة، وجدت وجوهًـــا مألوفة، صحفيين معارضين ونشـــطاء رافقوهـــا في كل وقفة، احتضنت واحدة منهم فرحة مهللة، و في وســـط المياه المندفعة للتفريق رأت الرجل الأصلع بعويناته البيضاوية، محاطًا بالأحبة و المؤمنين كما يليق بالأنبياء.

انتظمت في خطوات الحجيج المقدسة التي تشق الأرض..

عيش حرية عدالة اجتماعية الشعب يريد اسقاط النظام ارحل ارحل

و مع الوقت اختفت أية مقاومة شرطية، آه لو تملك القدرة أن تحضر كل الأوغاد كي تدوســـهم واحدًا واحداً بنعلها حتـــى تتقرح أبدانهم، أولهم الشربيني و القائمة تتسع و تفيض.

ركضت لتشـــهد جنودًا ينزعون ملابســـهم العســـكرية متخلين عن عتادهم ليعودوا فلاحين بســـطاء كما كانوا، ســـيارات الشرطة تتفتت كأوراق الخريف، و امتزجت رائحة الغاز بدخان أســـود، رائحة تشكل أول نفس حرية في مدينتها القاهرة، الاشـــتباكات كانت أعنف في التحرير و شارع القصر العيني، كمنت و أطلقت عدسة كاميرتها تبتلع المشاهد، اندفاع بلا نظام أو ترتيب، قوات الشـــرطة المتبقية كانت تهاجم كالنمر الجريح، و هذا ما أدى إلى اشـــتعال أرو المقاومة في نفوس المتظاهرين..

فتح يوســـف عينيه باذلا جهدًا مضنيًا لإزاحة ســـتارة ضبابية أغشت الرؤيـــة، وضحت الموجودات من حوله.

كان راقـــدًا على الأرض المفروشـــة بمفرش أبيض متســـخ، و حوله رجل يرتـــدي معطفا طبيًا و فتاتين تبدون مـــن زيهما أنهما ممرضتان، كان المكان أشـــبه بخيمة بدائية، تعالت أصوات الاشتباكات من الخارج، تحســـس يوســـف جبهته الدامية فعنفه الطبيب ثم استغرق في تضميد الجرح الغائر، لم ينتبه يوسف لما قاله الطبيب محذرًا إياه بأنه سيتألم ألمًا لم يمـــر بأعصابه من قبل، ألم بكر جديد معربد ممتد و متســـع.

صرخ يوســـف مع أول القطـــب بالأبرة الجراحية المعكوفة، تشـــبثت الممرضة الأولى بـــذراع و الأخرى ألقت وزنها على جســـده الطريح كي تمنعه مـــن الانتفاض، أتي صوت الطبيب الشـــاب لاهثًا:

- تحمـــل، لحظك العاثر نفـــذت عبوات المخدر، هانـــت تبقى القليل تماسك يا رجل.

ألقم الطبيب يوســـف منشـــفة كي يعض عليها، كان قرارًا متأخرًا بعض الشـــئ، لكنه أكمل عمله بيد مرتعشـــة، بعد دقائق طالت أطلق ســـراح الجريح، دمعت عينا يوسف رغمًا عنه و جسده زاد ارتعاشًا، غرست الممرضـــة محقنا مليئًا بالمضاد الحيوي في مقعدتـــه، لتمنع عنه الحمى و تلوث الجـــرح، فالمكان يعج بالملوثات ليس كغرفة معقمة في مشـــفى،

الوضــع أقرب إلى إجراء عملية جراحية وســط معركة حربية بالفعل.

- آسف يا بطل، لكن المستشفى الميداني رغم شح الأدوات قام بعمل جيد حتى الآن.

قالها الطبيب واضعًا ســيجارة مشتعلة في فم يوسف، نظر له يوسف بامتنان عميق و قال:

- أين أغراضي، أريد هاتفي أريد ان أجري مكالمة عاجلة يا دكتور.

جالــت داليا بعينهــا بين بقايــا المعركة المتوقفــة، اقتنصت صورًا لأشــلاء الأشياء المبعثرة، جلست على طرف الرصيف جوار سور الجامعة الأمريكية، مسحت بكفه على شعرها الثائر، لم تتمالك نفسها، انصاعت لرغبة البكاء الشفيفة، اســتغرقت في ذاتها و مع ذاتها.

الدموع تصنع المعجزات، متى ستتعلم البشرية أن تتصالح مع دموعها، تتابعت الصور مع انســكاب الدمع المالح، صور على شاشــة كاميرتها، يوسف مكسور و متعب، هي تنظر بسخرية.

نــور و هي تجيبهــا و تعريها، متى كنت حقيرة، هل يولد الإنســان حقــيرًا؟ أم هي صبغة تُلَقــى على الخائبين؟

مجرد غلّ، غلّ هو من شــيء لا تعرفه، من ألا تكون الفضلى، المرغوبة، المشعة!! غِلّ منَ نور و من عالمها المثالي الزجاجي.

- سامحيني يا نور.

قالتها داليا بتهدج لنفســها، مدت يدها تبحــث عن منديل ورقي في حقيبتها، لم تجد، ســألت شاب يجاورها:

- معك منديل يا أخ.

بحث الشاب المرسوم على وجه ملامح الضنك و التعب، لم يجد نظر لها بتسليم و هو يقاوم دمعه:

- آسف حضرتك، يبدو أني فقدتها هناك.

أشـــار إلى صينية الميدان الحجرية، هنـــا تأملت داليا في وجهه، كانت عينه اليمني معتمـــه و دامية، قامت و اقتربت منه.

- ماذا حدث لها؟

- هناك عند الصينية، فقدتها وســـط الغاز، حقًّـــا لا أعرف لكن الألم كان رهيبا يا أســـتاذة، الآن حتى الألم فقدته.

ربتت على كتفه بمحبة:

- جدع، أنت أفضلنا، شكرًا لك.

قالتها باكية أكثر فأكثر، تابع الشاب بلطف عجيب:

- هناك كشك صغير، صاحبه النوبي لم يغلق، انتظري دقيقة اشتري لك كيس مناديل.

ابتســـمت داليا من قـــوة الفتى، هذا الصغير الـــذي لا يتعدى عمره العشرين عامًا، بوجهه الأسمر المصري المنحوت، هذا الشاب يحمل ميراث أجداده الذي مهما خفت و توارى ظهر معدنه في الشـــدائد.

التفت إلى مكان إشـــارته، شاكرة مروءته، هنا ارتعش جسدها عندما لمحته يهتز مســـتندًا على الحائط كسفينة مخروقة الجوانب.

عبرت الشـــارع مسرعة إليه و هي تمســـح وجهها، وضعت ذراعه حول عنقهـــا محاولة منعه من الوقـــوع، نظر لها بعين فارغة:

- يوسف، يوسف هل أنت بخير، تمالك نفسك ارجوك.

هنا أتى الشاب ليسعفها، وضع ذراع يوسف الأخرى حول رقبته و قال:

- هيا بنا إلى المستشفى الميداني حالًا.

عبرا الشـــارع في اتجاه الخيمة، حتى أوقفهما صوت ســـيارات مسرعة تطيح ببعض الشـــباب الواقف على جانـــب الطريق، تحاملا مندفعين و

يوســـف شبه غائب حتى خيمة الإسعاف، وضعه الطبيب على الأرض وهو يقيس ضغطه، الأصوات كانت تزداد.

– هناك أشخاص تحاول اقتحام المتحف المصري.

قالتهـــا ممرضة أتت من الخـــارج، بدأ الطبيب في محاولات إســـعاف يوسف الذي هبط ضغطه حد الموت، جلست داليا على الأرض جاره تبكي و تحتضن كفه البارد: هل رحلت يا يوســـف، هل هذه النهاية الطبيعية؟

هنا وجدته يفتح عينيه بوهن ناظرًا إليها، ابتسمت دامعة، قال بصوت ضعيف.

– أنتِ هنا يا نور؟

اغمضـــت عينيها ثم طمأنهـــا الطبيب أنه ســـيتعافى، وقفت خارجة بتصميم وســـط الغبار و الغاز وغليان القلب و ســـطوة الانكســـار.

***

عندما فتح باب الزنزانة المظلمة كالقبر، لم يتخيل علاء السمري في أجمل توقعاته أنه على وشـــك الخلاص، ظن أنها جولة جديدة في حلبة الاستجوابات العبثية تنتهي به دمية في أيدي الساديين، معلقًا أو مكهربًا أو مجرد كيس رمل لتدريب الملاكمة.

وجد الواقف على الباب، مبهـــور الأنفاس لكنه لا يرتدي زي الحرس البني، كان في زي المســـاجين الجنائيين الأزرق الباهت.

– هيا، هيا، أخرجوا.

قالها و انطلق وســـط الراكضـــين في الممر، نظر عـــلاء إلى زملائه المعتقلين، جلّهم من الإسلاميين، كانوا ينتظرون رأي كبيرهم الجالس في ركن الزنزانة يســـبح بصوت جهوري فبـــدا كعجل مجوف له خوار.

توقف عن تسبيحه بعد برهة ثم قال:

– إخوانـــي، لا انصحكم بالفرار معهم، لعلها و العلم عند الله مكيدة، و الله أمرنا ألا نلقي بأيدينا إلى التهلكة، و المؤمن يجب أن يكون كيّسا فطنًا.

زادت ضربات قلب علاء، استفزاز حروف الرجل أشعل كل نيرانه.

– أي مؤامرة يا دكتور!؟ يبدو أن هناك هروبًا جماعيًا، السـجين الذي فتح الباب فتحه بمفاتيح الحرس.

– و هــذا ادعى للريبة يا أخ علاء، نخرج ظنًا منا أنه هروب جماعي، ثم نجد الزبانية بأسلحتهم في وجوهنا، تصفية يا أخ علاء.

وقف علاء متجهًا إلى الباب، فتابع الرجل.

– هل جننت، اجلس، لا تكن بلا عقل.

قال علاء و هو يخرج:

– حتى لو، الموت أفضل من هذه الحفرة التي بلا قرار.

عندما خرج كان الهرج على أشـده، المساجين يفرون كقطعان أُفلِت زمامها، أصوات طلقات مدافع رشاشـة في الهواء، تصفر كالرعود.

عند الساحة كانت جثث مختلفات، بين سجين و حارس، ركض و هو محـني، كان كل ما يدور في ذهنه توقعه كل لحظة و أخرى أن تصيبه طلقة شاردة، كأنه عالق في مشـهد أبدى داخل فيلم حربي هوليوودي، يدور في العراق أو أحراش فيتنام.

تخيل ظهور مقاتل من الفايتكونج ليلقى قنبلة حارقة عليه، أو سـربا من طائرات الفانتوم تقصف السجن بالنابلم الحارق كمشهد من فيلم «القيامة الآن».

إنها القيامة بالفعل تحدث، و هو يشـارك فيها، جيل محظوظ حضر انهيار سـور برلين و تفتت الاتحاد السوفيتي و يوم الفزع الأكبر.

تمتم علاء بآية من القرآن اعتاد ترديدها وقت الشدائد، وقت أن شاهد أباه مئات المرات يؤخذ عنوة من سـريره، (و جعلنا من بين أيديهم سّـدًا ومن خلفهم سّـدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) مرارًا و تكرارًا، يلهج بها، ينسـى كلمات، اختلطت الكلمات، شعر أنه يحرف كلام الله المحفوظ، شـعر بالذنب أكثر، أعادها مرارًا ببطء حتى لا يرتكب ذنب اللحن.

وجد نفسه خارج أسوار السـجن عبر فتحة في السور، لا يعلم كيف حدثـت؟! لكن البلدوزر الأصفر الواقف خارجا كان إجابة سـاطعة له، ركض إلى الطريق السـريع، حاول إيقاف سيارة باستماتة، حتى توقفت سيارة ميكروباص خالية.

أشار له السـائق بالصعود بإلحاح صعد علاء محاولاً ألا يفقد توازنه جـراء عدم توقف السـيارة، وعندما أغلق الباب تنفـس الصعداء، نظر بامتنان لمنقذه، الذي يحمل وجهًا مشـوهًا بآثار معارك قديمة، ابتسـم لتظهر أسـنان ضاعت من التدخين.

- شكرًا لك يا أسطي.
- لا شكر على واجب يا أخ، بصراحة أنا لم أكن لأتوقف خصوصًا وسط الكارثة التي نعيشها، لكن صراحة أشفقت عليك، شكلك ابن ناس.
- أي كارثة تقصد، ما يحدث هناك في السجن؟
- صحي النوم يا أستاذ، سجن؟ البلد كلها أبوابها فتحت، حتى شوف.

قالها و أطلق ضحكة ثم وضع لفافة حشيش و أشعلها و هو يهز رأسه طربا و هو يغني بصوت مشروخ :

- ما تولع و تحشش و لا احنا في بنزينة.

استجوبه علاء عن كل معلومة جرت اليومين الماضيين، ماذا حدث؟

أخبره السـائق بلهجته التي يعمل السـباب فيها مكان الفواصل عن الثورة و هروب الشرطة و البلد التي استيقظت فجأة على فراغ أمني، كان

عالقًا في الإســكندرية و قرر أن يعود إلى القاهرة حتى يشاهد الأحداث.

- الإسكندرانية، أنهوا الموضوع.

أكمل مقلدًا لكنة السادات :

- في ست ساعات.

قاوم علاء ضربات قلبه المتلاحقة، كان كل ماشــغل باله، تداعيات ما يحدث، لم يكن ليصدق تمامًا انحســار الطوفان، و صعود النار وســط الميادين، داليا ســيطرت على تفكيره وســط كل هذا، خوفه عليها كان طاغيا، طلب من الســائق هاتفه المحمول ليجري مكالمة.

- كل سنه وأنت طيب، الاتصالات مقطوعة يا أستاذ.

قالها السائق المنتشي، ثم مَدّ له اللفافة.

- اشرب، عشان تفتكر.

و اســتغرق في ضحك أقرب للسعال، رده علاء بأدب، لكن السائق قال مصممًا:

- علىّ الطلاق، ستشرب معي، أنا ابن بلد و الكيف مناولة يا أستاذ.

هز علاء رأسه مستسلمًا، لا مناص من إطاعة رغبة منقذه، لكن اعتمر في داخله شــعور بالضياع، بالثورة، لمَ لا يجرب، يخوض غمارًا لم يطأها، التقط اللفافة و قربها من شفتيه كأنها يحمل قنبلة، أخذ نفسًا خفيفًا، ســعل حتى احمرَّ بؤبؤ عينيه، و أعاد اللفافة إلى الســائق الذي نظر له شذرًا، لاعنًا الأفندية الذين لا يُقدرون نعمة الكيف الأزرق.

ارتجعت رأس علاء، زلزال ســار في تلافيفه، كأن لمبات مخه انفجرت و تحول لون ضوئها إلى الأزرق الشــاحب، شــعر أنه ينفصم اثنين، علاء الجســد و علاء وهمي يجلــس أمامه، هل روح أبيه تشــاهده الآن؟! هل سيغضب الأب؟ هل ســيعنفه على تدخين مخدر؟

أم كان عليه أن يعتذر أولًا على ضياع عائلة في منفى و مطاردات باهتة؟

بلا هدف أو داع، حلم بصحوة أيديولوجيا تنجيه و تنجي الأمة، لو كان أبوه عاقر الحشيش لكان وصل إلى صحوة من نوع آخر.

انفجر علاء في ضحك هستيري، جعل السائق يصيح:

- يا وعدي، أنت وصلت؟

ضحك علاء، احتدم السؤال في نفسه و نبع من نفسه، عند محك التجربة عند انفجار الثورة، هل سيشترك الإسلاميون فيها؟

أم سينسحقون تحت الريبة من العلمانيين الذين بدأوها؟ القيادات غسلت يدها ببيان باهت، لكنه ظن أن الشباب مثله لن ينصاعوا هذه المرة لسمع أو طاعة، الرعب الأكبر هو القادم، هو اعتلاء الجماعة للنتائج ببرجماتية الضباع، التي تكمن حتى تنتهي المعركة.

- حمدا لله على السلامة، نحن على مشارف القاهرة، ماذا ستفعل؟

تردد علاء في تحديد مصيره، المخدر أشعل فزعه من مجهول لا يراه، هنا نظر السائق لملابس السجن البيضاء، ثم أوقف السيارة على جانب الطريق، خلع سترته الجلدية السوداء، ألقاها لعلاء .

- ألبس السترة تداري ملابس السجن، و أغلقها، خطر أن تعود إلى بيتك، أنا سأدبر لك مكانا حتى تهدأ الأمور، أنت ابن حلال، و سبحان اللى جمعنا من غير ميعاد أنا حبيتك.

انطلق السائق ينهب الطريق الدائري مرة أخرى، لاحت أمام أعينهما ملامح نهاية العالم، سيارات الأمن المتفحمة و بقايا هرج و مرج.

أغمض علاء جفنيه و هو يتلو بصوت صداح:

(و ذا النون إذ ذهب مُغاضبًا فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) .

أول النهايات

ذرع مصطفـــى الجنايني غرفة الجلوس بالشـــقة ذهابًا و إيابًا، كنمر حبيـــس القضبان، و التلفاز بـــين القنوات الإخباريـــة لا يطفىء ظمأه بمعلومة عن الأهل المحاصرين في الإســـكندرية، شـــعور العجز تحول إلى أنشـــوطة من حبل ليفي خشن يعتصر عنقه.

عجـــز العماء و حجب المكان بعيدًا عن مســـرح الأحداث و الهلع على مصير فلذة الكبد و أمل العمـــر وزرعة الدموع التي رُويت بصبر الغربة و الفراق.

توقف مؤشر القنوات على الجزيرة، هنا قال شادي :

- اقعد يا عم مصطفى، إن شاء الله خير.

جلـــس مصطفي بلا كلمـــة و أصابعـــه تلعب في حبات المســـبحة الكهرمانية بعصبية و يأس، كانـــت المذيعة تتحدث عن مجرى الأحداث التصاعدية في المدن المنتفضة، القاهرة و الإسكندرية و الأعنف السويس، ثم استدركت:

- الآن مع اتصال هاتفي من باريس، الســـيد عاصـــم جبر أحد رجال الأعمال الذين اصطلح على تســـميتهم بالهاربين من نظام «مبارك»، ســـيد عاصم ما رأيك فيما يحدث في مصـــر و كيف ترى المطالب؟

أتى صوت عاصم الزجاجي عبر الأثير، سعل مرتين:

- أرى أنها مطالب شـــرعية و إن ما يحدث قـــد تم التحذير منه، هذا نتاج طبيعي للقمع و الظلم و أنا كأحد من انكوى بنار هذا النظام،

الذي اســـتحل مالي و سمعتي، أضم صوتي لـــكل ثائر بالميادين، هذا نظام يجب أن يرحل، هذا نظام شـــردني كما شرد الآلاف و استولى على مجهودات رجـــال أعمال وطنيين كثر و تم نفينا، إلا و كنا في السجن.

وقف مصطفى مرة أخرى متجها إلى باب الشقة، و هو يسبح و يستغفر على حافة البكاء..

يوسف الراوي و نور الهدي فريد عبد العظيم

عنـــد النهايات تتجلى البدايات، و من غياهب الغياب في إغماءته، رأى يوسف نفسه فيما يرى النائم وسط معركة تجري في سهل أخضر ممتد؛ لامس بأنامله زهور عباد الشـــمس التي تفحمت و تفســـخت تحت نيران المدافع، جثث قتلى الجيشين لا يفرق بين وجوههم البائسة غير اختلاف لون الزي، كلهم شباب من الطرفين، بيادق فنيت من أجل مجد ما لأحد النرجسيين الجالسين في القصور بعيدًا عن ميدان المعركة، هنا رآها تقف بين حطام المدافع المخلفة وراء فلول المنسحبين، نادت عليه بصوت أثيري:

- هنا يا يوسف، تعال، تعال.

اتبع فيوض حضورها النوراني، مد يده يلمســـها فتبعثرت كالدخان، ثم تشـــكلت نور مرة أخرى، أشارت إلى الساحة و قالت:

- الشباب وجودوا لحمل المســـتقبل، لا لحمل السلاح يا يوسف، العالم سينتهي عندما تتلاشـــى هارمونية اللحن من الوجود بددًا.

أفاق يوســـف كمن صحا من غرق، انتفض جســـده و سال ريقه زبدًا على جانب فمه، ثبته الطبيب المنهك المتعرق، و مال عليه بشـــربة ماء، تنهد يوسف، بعين زائغة تلمس المكان و الزمان الحاضر، قال له الطبيب:

- ارجوك اســـتلقِ، انت جرحك شـــبه ملوث، أنتظر إمدادًا من حقن المضاد الحيوي حتى أســـعفك، خطر أن تنقل إلى مستشـــفى قريب سيعتقلونك.

أزاح يوسف يد الطبيب بضعف، ثم قال :

- أين هاتفي.

تلفت الطبيب حتى وقع عينه على الهاتف الميت، مد يده به إلى يوسف.

- سأرحل، فقط اتركني ارحل من هنا، سأعود إلى البيت.

- لن تستطيع إكمال مائه متر على قدميك يا أخ، أتفهمني، أنا أخشى عليك من مضاعفات الجرح.

لم يمهله يوسف الفرصة للنقاش، وقف بصعوبة التقط سترته ثم ارتداها متجهًا إلى باب الخيمة تحت عين الطبيب التي اكتست بالتسليم، مد يده في جيب سترته مخرجًا سماعة الهاتف، أوصلها بالهاتف ثم وضعها في أذنيه، قال الطبيب بيأس.

- الاتصالات مازالت مقطوعة ماذا ستفعل بالهاتف؟! فتح يوسف الهاتف، ثم اختار برنامج مشغل الموسيقي و هو يقول.

- لا شيء، أريد أن أستمع إلى موسيقى.

اختار يوسف موسيقى الحركة الأولى من سيمفونية «شوبرت» الثامنة غير المكتملة، ضغط ذر التشغيل و هو يجتاز فرجة الخيمة التي يعبث بها هواء يناير المختل.

بدأ اللحن بصعود منذر لآلة التشيلو الجبارة، صوت حلقي منذر كطبول الحرب على الأبواب، تقدم يوسف خطوات حتى قويت قدماه، كأنه يتعلم المشي مرة أخرى، انبعثت أصوات الوتريات تعلو في لحن متفجر كهجوم أسراب من الجراد النهم.

الناس كانوا يتمترسون حول الميدان، وضعوا براميل و أخشابًا كبوابات بدائية عند المفارق، كونوا لجانا للحماية، زكم أنفه رائحة

أخشـــاب تحترق لزوم التدفئـــة. أغمض عينيه و بـــدأ في تحريك يديه كمايســـترو متمرس أمام أعظم أوركســـترا في العالم، عند بزوغ لحن الفالس الراقص وســـط صراع الوتريات الصداحة و التشيلو المحذر من شـــئ ما. عند نهاية الفالس سمع وســـط الموسيقى اسمه.

– يوسف.

اسمه بصوت ملتـــاع تائه قادم من أغوار عالمه المنســـي، صوت كعود أبدى، كاستنســـاخ الهندوس في دورات الحيـــاة التي لا تنتهي.

– يوسف.

فتح عينيه و توقفت يده معلقة في هواء سديم الميدان الباسل في غضون براح هواء يناير المتمدد، ارتعشـــت أطرافه كأنه آدم عند نفخة الروح في الطين. كانت هي!! حقيقة لا حلم أو نزوة ســـكر محموم، هي كما رآها أول مرة تنثر الموسيقى على الأرواح في مسرح الساقية، و للمصادفة كان يناير أيضًا.

نور الهدي فريد عبد العظيـــم، النوتة التي غيّبها العالم عن أسماعه، هنا تقف كما هي منتصبة لم تفقد بريق شموخها، منهكة لكن لم يصبغ جبهتها الوضاحة استسلام، و الأهم سحرها الذي اجتاح قلبه كأول مرة، هنا شـــعر بمقبض السكين الذي زرعته في صدره عند منعطف الضعف و الخيانة، تألم لكنه أيقن يقين المؤمنين بأنه لم يحب ســـواها و مازال الحب ساريـًا يجري فيه مجرى الدم.

اقتربت منه مهرولة، ألجم لسانه فبدا التائه وسط السوق

– يوســـف، أنا آسفة، لم أصدق عندما حضرت داليا إلى شقة المايسترو و أخبرتني مكان وجودك و ما حدث، يوســـف كل شئ حدث أوصلنا إلى

هنا يجب...

قاطعها و هو يمســـك كفها، كي ينتفـــض الحي فيه و يتجلى في الميت الذي يكسو جبلته.

- لا يهم، لا يهم يا نور، المهم أننا هنا.

دمعت نور و هي تبتسم و تتنهد حتى تفجر الدمع بعطف اللقاء.

أشارت إلى السماعة قائلة عن صوت الموسيقي الخافت:

- «فرانتز شوبرت»، السيمفونية الثامنة الشهيرة بغير المكتملة أظن هذا التسجيل بقيادة «بيرنستين».

هز يوسف رأسه و هو يقاوم انهياره.

- عادتك لم تتغير، الوحيدة التي لم تتغير.

شعرت بمقصده الذي اخترقها كسهم الذنب، هو قال:

- لا يهم لكنه لن ينسى، ستطيعه في أي شئ، ستنفذ ما يرضيه، ستقاتل حتى تعوضه.

تذكرت جان في الغابة و هو يقول:

- الباب الأبعد و الاختيار الأصعب هو الأصح يا فراشة.

أتبع يوسف و هو يسحبها من كفها كي يعبرا الطريق.

- تعالى معي!!

- سأتبعك إلى أي مكان يا يوسف.

ابتسم و هو يقودها إلى باب إحدى البنايات المطلة على الميدان، صعدا السلم حتى بلغا السطح، قال لها:

– هذا هو سدرة المنتهي، آخر عروجنا معًا يا نور.

ضمته حتى خيل لهما أنهما سيتلاشيان في مسام بعضهما البعض، قبلها و تلاقي الدمع متعانقًا من مآقي أعينهما، اقتربا معًا من السور المطل على الميدان الرابض كالأسد الذي فرض سيطرته على مناطق نفوذه، قالت له، و أضواء المعتصمين تتلألأ كنجم الشمال في أعين الرحالة،:

– ماذا بعد يا يوسف؟

ضمها إليه بعنفوان كي يطير الماضي بعيدًا عنهما، كأن شيئًا لم يكن، ثم همس لها مشيرًا:

– أتذكر مثلاً إيطاليًا، يقول:

«العالم سينتهي عندما تتوقف الموسيقي عن الانبعاث».

النهاية